جيلبرت سينويه

البكباشي والملك - الطفل

مذكرات من مصر



ترجمة

محمد التهامي العماري

منشورات الجمل

رواية

جيلبرت سينويه

البكباشي والملك - الطفل

مذكرات من مصر

ترجمة

محمد التهامي العماري

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر ثم أكمل دراسته الموسيقية بباريس حيث تحصل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان، رواية (١٩٩٩)؛ المصرية، رواية (٢٠٠٥)؛ ابنة النيل، رواية (٢٠٠٧)؛ اللوح الأزرق، رواية (٢٠٠٨)؛ أخناتون ـ الإله اللعين، رواية (٢٠١١)؛ الفرعون الأخير، رواية (٢٠١٢)؛ أنا، يسوع، رواية (٢٠١٢)؛ يريفان، رواية (٢٠١٢)؛ صمت الآلهة، رواية (٢٠١٥).

جيلبرت سينويه، **البكباشي والملك ـ الطفل، مذكرات من مصر**، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Gilber Sinoué: Le colonel et l'enfant-roi

Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الإهداء

إلى روبير سرسق،

الصديق الذي مكّنتني حواراتي معه من أن أرى مصر

في صورة كانت قد توارت عنّي.

مقدمة

أنجبتني مدينة حبلى بالنور، يعبُرها وئيداً نهرٌ عنيد. وُلدت بين ضفَّتين خصبتين تصارعان الصَّحراء منذ زمن سحيق.

هذا هو المكان الذي تبقى فيه الطبيعة حيّة بالصدفة بين الظلال المتناثرة على نحو غامض. وبالصدفة أيضاً تلقح الريح مدن الواحات. ولدت من طمي خصّبه كلّ شيء، من بلد صيفه أبدي، جابته الآلهة ذات مساء في الأزمنة الغابرة تاركة في سفوح الكثبان آثارها الباهرة. ومنذ ذلك الحين يرقد حورس وحرماخيص وماعت وغيرهم من الآلهة في واد ملكي لم يعد له وجود في الحاضر، بينما يبحث أبناؤهم القذرين بيأس عن آخر بحيرة مقدّسة. كلّ شيء في هذا المكان يمتزج بعرق الكلمات وتقاطع النظرات، وبالأسقام المجهولة. ها هنا يدرك المرء المعنى الحقيقي لكلمة قدر أو مكتوب، وهو *الاسم الآخر للرب*.

كتب الرجل العجوز الذي سكن طيفه المعقوف ـ وما يزال ـ شوارع الإسكندرية: الزمن يمضي. أوقدت مصباحي منذ الساعة التاسعة واتّخذت لي مكاناً هنا. مكثت لا أقرأ ولا أتحدّث، من عساني أكلّم وأنا وحدي في البيت؟ منذ أن أشعلت مصباحي على الساعة التاسعة، تبدّت لي صورة جسدي الشاب وصورة الغرف العطرة الدافئة، وكذا صورة الملذات الماضية. وتراءت لي من جديد شوارع فقدت ملامحها، ورجال ونساء هلكوا، ومسارح ومقاه لم

يعد لها وجود. لاحت لي صورة جسدي الشاب فحرّكت في ذهني ذكريات رهيبة: فواجع الأسرة ولواعج الفراق ومشاعر الأهل ووصايا الأموات التي ووجهت بالاستخفاف. إنّها الثانية عشرة والنصف ليلاً. ما أسرع مرور الزمن! إنّها الثانية عشرة والنصف ليلاً. ما أسرع انصرام السنوات!».

دوريل لم يعد له وجود. وإذا كانت واجهة فندق صقليّة المزخرفة ما تزال تطلّ على البحر، فإنّ الفندق لم يعد هو نفسه فندق صقليّة. وذابت جوستين وبالتزار ومونتوليف وكليا تحت حرارة الشمس ثمّ سالت على الإسفلت. هل سبق لها أن وُجدت؟ مهما يكن، فدوريل لم يفهم شيئاً. لم ير سوى أرض تذكّره بانجلترا. عاشت مجموعته الرباعية على هامش إحدى المدن منفيّة خارج البلد. وكانت الحياة الحقّة تنبض حوله، لكنّه لم يلمحها.

ما تزال القاهرة تهتزّ تحت ضربات الصحراء العنيفة، وما زال الريح يداعب خصلات شعر المقطّم الكلسيّة، ويثير دوّامات من الرمل تتعالى في السماء قبل أن يذروها على النوافذ والأسطح والأزقة والصوامع والواجهات وحبال النشير. إنه غبار أزلي، معركة خاسرة سلفاً.

رأيت بأمّ عيني كنّاساً باسلاً يكنس الرمل من الطريق عند سفح الأهرام لساعات متواصلة تحت شمس حارقة... لا يكاد يخلّص بضعة أمتار حتّى تكسوها الرمل من جديد. هذا هو قدره. إنّها معركة خاسرة مقدّماً. ماذا بوسعه أن يفعل؟ هذه مشيئة الخالق. الصبر ثمّ الصبر. فالمجتمع المصري قُدَّ من صبر. غداً يا ولدي، سيكون كل شيء، *إن شاء الله*، على ما يرام. لا *تنس أبداً أنّ الفُرس والإغريق والرومان والمماليك والأتراك والفرنسيين والإنجليز، كلّهم ولّوا الأدبار، وبقينا نحن ها هنا.*

بالأمس كانت الملكيّة، واليوم تجسد جمهورية نموذجاً مشوها للديمقراطية، وتخرس الأصوات. ستزول وسنبقى نحن هنا. جابت بالأمس أمّهاتنا، وقبلهنّ جدّاتنا، شارع قصر النيل بأذرع عارية، مكتسيات بآخر تقليعات الموضة الباريسيّة، سافرات الوجوه ومتزيّنات. كنّ بالأمس يتسابقن إلى محلاتنا التجارية الكبرى كصيدناوي وشملا وشيكوريل لشراء السلع المخفّضة. وكنّ يسْبحن بلباس من قطعة واحدة في مسبح نادي سبورتين بالجيزة، أحد المآثر التي بناها المعمّرون الإنجليز قبل قرن من الزمن، لحاجتهم إلى مكان يلتقون فيه يليق ببزاتهم وبجولات البولو والكريكيت التي كانوا يلعبونها. كنّ يسبحن بالتذاذ في أمواج سيدي بشر وستانلي بيتش، بين ميكس وقصر المنتزه حيث كان الملك سيء الطالع فاروق يقضي مواسم الصيف. ومع أنهنّ كنّ سافرات الوجوه، عاريات الأذرع، كنّ مسلمات أبيّات محصّنات، لا يخرجن عن النهج الذي خطّه لهنّ الرسول. فماذا حدث إذن؟ لماذا تسير بناتهنّ اليوم مقنّعات؟ ترزحن تحت المحظورات والصمت القسري، وقد طمست الظلمات أجسادهن: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[1].

مع أن أولئك هنّ أمهاتهن...

لكن، أتُراني أخطأت؟

أكان ذلك في بلد آخر؟

أم أنني لم أصادف سوى الكافرات؟

كانت الفرقة النحاسية تعزف سنة ١٩٣٨ مرّة كل أسبوع بحدائق الأزبكية، وكان جميع أفرادها من جنود الإنجليز. وعلى طول

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

المماشي كانت النساء ترفرفن حولهم كالفراشات وقد حملن في أيديهن المظلات، يسرن برشاقة وهنّ يداعبن الرجال برموشهن، فينحنون لهنّ وقد وضعوا على رؤوسهم الطرابيش والقبعات المستديرة.

Ti kanis? Dové vai? shabbat chalom! Günaydyne! Gute Nacht! Parev! السلام عليكم! أسمع أصواتاً، أتسمعها تصعد من هذه الأندلس المصريّة المحروقة يا بابا، من قرطبة الإسكندرية المتشظّيّة؟ إسبانيا ١٤٩٢. إيزابيلا الكاثوليكية المزعومة. الثورة سنة ١٩٥٢ مع عبد الناصر. يتعلّق الأمر ببلدين، بمَنفَيَيْن، بتمزُّقين وقِطَع حياة شُتِّتتْ إلى الأبد.

لم نكن نتحدّث لغة متجانسة، بل لغة هجينة، ضرباً من الفسيفساء الزردميّة تختلط فيها الإيطالية بالإغريقية، والعربيّة بالعبرية، والتركية بالأرمينية.

كتب رولان بارط: «إنّ قليلاً من الاختلاف يقود إلى العنصرية، على حدّ قول فرويد في كتاب (موسى وديانات التوحيد)، لكن كثيراً من الاختلاف يقي منها على نحو قاطع. كل جهود الموازنة والدمقرطة والحشد لا تنجح في محو «أبسط اختلاف»، الاختلاف الذي يعدّ بذرة التعصب العنصري. فما يلزم هو رعاية التعددية والتهذيب المستمرّ».

لقد جُعِلت مصر على نهج واحد، بما لذلك من حسنات وسيئات.

فماذا جرى؟

الجزء الأول

(١)

ماي/حزيران ١٩٤٨ خلال الحرب

يبسط ثلاثة ضباط خريطة القيادة العامة في قطار حاشد بالجنود. هم في الثلاثين من العمر، يسمّى أحدهم عبد الحكيم عامر والثاني زكريا محيي الدين. أمّا ثالثهم فيدعى جمال، جمال عبد الناصر. وسيلقّب لاحقاً بالبكباشي، وهي رتبة عسكريّة تركيّة تعني «قائد الألف». هذا اللقب سيُطلق فيما بعد على رتبة عقيد في الجيش المصري عموماً.

الرجل فارع، يبلغ من الطول متراً وأربعة وثمانين سنتمتراً. كحيل العين، ذو ابتسامة تجمع بين السحر والشراسة. كلّ شيء فيه يشي بالقوة والعزم والإقدام.

يتقدّم الموكب باتجاه العريش، وهو أوّل مرحلة في الطريق إلى غزّة، المدينة الحدودية التي خاض فيها شخص يُدعى بونابارت، وهو في طريقه إلى سوريا سنة ١٧٩٩، معركة دامية ضدّ قوات جزّار باشا. غزّة هذه هي التي قال فيها بن غوريون في أحد المجالس الوزارية: «أمّا غزّة، فأخشى من أن تُحرِجنا في نهاية المطاف. لو كنت أؤمن بالخوارق، لصلّيت من أجل أن تغور في البحر». كلمة لا تخلو من نبوءة، لأنّ أرييل شارون سيرفع هذا «الحرج» يوم الرابع عشر من أغسطس من سنة ٢٠٠٥.

وضع عبد الناصر أصبعه على نقطة في الخريطة:

- مش معقول! إلى أين يبعثون بنا؟ في أيّ جحيم يلقي بنا هذا الملك الدّمية؟ اليهود مجهّزون بأسلحة تفوق أسلحتنا تطوراً بمائة مرّة، بل لا تمثّل أسلحتنا شيئاً أمامها! ينتظرنا في الجهة المقابلة أناس مثقفون جاءوا من أوروبا، وعاشوا في الغيتوهات والبؤس. أمّا رجالنا فليست لهم أيّ خبرة بالحرب؛ وجيشنا البئيس لم يخُض حربا أبداً. ظلّ طيلة الحرب العالميّة يترقّب، ولم يطلق رصاصة واحدة باستثناء بعض رجال سلاح المدفعية الذين كُلّفوا بصدّ الهجمات الجوية!

وبإشارة متبرّمة أومأ إلى رفاقه من الجنود المتكدّسين الغافين.

- أهؤلاء البؤساء هم من سيسترجعون مئات الكيلومترات من أرض فلسطين، ويطردون الكيبوتزات؟!

كيف انتهينا إلى هذا الوضع؟!

قبل ذلك بسنة، في يوم التاسع والعشرين من نونبر/تشرين الثاني من سنة ١٩٤٧، تبنّت الأمم المتّحدة مشروع تقسيم فلسطين (وكانت ما تزال آنذاك تحت النفوذ البريطاني) إلى دولتين مستقلّتين: دولة لليهود وأخرى للعرب. ولم يحفل أحد بطلب رأي ١١٤٢٠٠٠ فلسطيني كانوا ما زالوا يعيشون على هذه الأرض. يضاف إلى هذا أنّ التقسيم المُقترح كان في منتهى العبث. هناك من جهة دولة عربيّة تمتدّ على مساحة ١٢٠٠٠ كيلومتر مربّع، يأهلها ٧٣٥٠٠٠ فلسطيني، منهم ١٠٠٠٠ يهودي؛ وفي الجانب الآخر دولة يهودية تمتدّ على مساحة ١٤٠٠٠ كلم مربّع، يسكنها ٤٩٨٠٠٠ يهودي و٤٠٧٠٠٠ فلسطيني. أما ساكنة القدس التي تقدّر بـ٢٠٥٠٠٠ نسمة، منهم ١٠٠٠٠٠ يهودي، فتوضع تحت الوصاية الدولية.

رفضت الجامعة العربيّة القرار. ففضلاً عن أنّ هذا المشروع يقيم

حدوداً عبثيّة، فقد أخذ عليه الفلسطينيون تحيّزه لليهود بمنحهم أخصب الأراضي الواقعة على ضفّة البحر الأبيض المتوسط.

وبالموازاة مع ذلك، رفضت الحركات اليهودية المتطرّفة (إرجون[١] وجماعة شتيرن[٢] التقسيم، وطالبت بالأرض كلّها، كما اعترضت على وضع القدس تحت الوصاية الدولية.

وها هي فلسطين تتحوّل إلى برميل بارود.

ويوم الرابع عشر من ماي/أيار ١٩٤٨، أعلن بن غوريون قيام دولة إسرائيل. وفي اليوم الموالي تحرّكت وحدات عسكرية من مصر وسوريا والعراق وشرق الأردن نحو فلسطين...

هزّ عبد الحكيم وزكريا رأسيهما. رفيقهما محقّ فيما يقول. فهم إن لم يكونوا يسيرون نحو حتفهم، فهم يتوجّهون على الأقل نحو الهزيمة.

ترك عبد الناصر نفسه يهوي على الأرض، ووضع وجهه بين راحتيه. تذكّر زوجته تحيّة التي تركها، وابنتيه: هدى ومنى. وعادت إلى ذهنه أيضاً ملامح أمّه يرافقها سيل من الذكريات. أمّه الغالية التي فقدها مبكّراً، كيف له أن ينسى ذلك الجسد الذي لم يمهله القدر لكي يتذوّقه ويتشمّمه؟ كيف له أن يسدّ فراغ غيابه الأبدي؟

يا إلهي، ما أبعد ذلك المنزل المتواضع المبني بالطوب

---

(١) إرجون (مختصر إرجون سفاي ليومي: منظمة قومية عسكرية) منظمة قومية يهودية مسلحة، نشأت سنة ١٩٣١ عن انقسام الهغانا، وقادها بعد ١٩٤٣ مناحيم بيغين، وقد أُدمج معظم أعضائها في الجيش النظامي. (المؤلف).

(٢) تسميتها الأصلية هي الليحي (اختصار عبارة لحمي حيروت إسرائيل «المحاربون من أجل حرية إسرائيل»). وقد أطلقت عليها السلطات البريطانية اسم جماعة شتيرن نسبة إلى أول من قادها وهو أبراهام شتيرن. (المؤلف).

والجبس: الواقع في قلب صعيد مصر، بقرية بني مرّ القاحلة حيث عاش أبوه عبد الناصر حسين، موظف البريد الصغير، وأمه فهيمة حماد، بنت أحد المقاولين.

بني مرّ تجمّع سكني بئيس يقطنه ثلاثة آلاف نسمة تقريباً، منها ألف مسيحي، ويضمّ ثلاثة مساجد وكنيستين قبطيتين، وكتّاباً، وأكواخاً من الطوب. أمّا العائلات الموسرة، فتسكن دوراً من الإسمنت.

الناس هناك لا يشبهون غيرهم: صعايدة. لون بشرتهم أغمق من لون مصريي الشمال نظراً لأصولهم الإفريقية. وهم معروفون بحميَّتهم وشدة شكيمتهم وتعنّتهم، بل بعنادهم وحدّة طبعهم. ولعلّ هذه الطباع هي التي جعلتهم موضوعاً مفضلا للدعابات والنكت في المجتمع المصري.

وما كاد أبو جمال يتزوّج حتّى عُهد إليه بمكتب بريد باكوس بضواحي الإسكندرية. باكوس أو باخوس الإغريقي. باكوس المشهورة بعربات الترامواي ذات الطابقين. استقرّ موظف البريد بمنزل تحيط به بنايات غبراء كالحة. لم تكن حاله معسرة ولم تكن كذلك موسرة. لكن لولا مساعدة أصهاره لكانت حياته على الأرجح أقلّ استقراراً. ذلك أنّ راتب موظف البريد لم يكن يتجاوز ثمّانية جنيهات في الشهر.

ها هنا رأى عبد الناصر النور يوم السادس عشر من يناير/كانون الثاني من سنة ١٩١٨. هو بكر والديه، ولم يلبث أن تلاه أطفال آخرون. لم تمكث أسرة عبد الناصر في باكوس سوى ثلاث سنوات، ذلك أنّ حسين نُقل إلى أسيوط، ليعود بذلك إلى صعيد مصر. ولمّا أتمّ الصبي جمال ستّ سنوات، التحق بالمدرسة الابتدائية. ولم تكن

أسيوط بعيدة عن مسقط رأس والديه، وكان محظوظاً بذلك؛ إذ كان حسين وفهيمة يتردّدان على قرية بني مرّ لقضاء بضعة أيام كلّما سنحت الفرصة. هكذا طبعت هذه القرية قلب الصبي إلى الأبد.

ظنّوا أنّ المقام سيطول بهم في أسيوط هذه المرّة. كلا. سيُنقل موظف البريد من جديد. سيُبعث إلى الخطاطبة بدلتا النيل، وهي بلدة صغيرة، مدينة شبحية يحفّ بها نخيل مُنهك.

كيف سيتعلّم ابنه في هذا المكان القصي حيث لا وجود لمدرسة حقيقيّة؟ كيف سيُعدّه للحصول على موقع داخل هذا المجتمع المصري المزدحم؟ ذلك أنّ ساكنة مصر انتقلت بين ١٨٨٢ و١٩١٨ من ستّة ملايين إلى أزيد من اثني عشر مليون نسمة، وهو رقم سيتضاعف بعد عشرين سنة من ذلك. أما اليوم، فقد تضاعف ثلاث مرّات. لم يكن أمامه إلا حلّ واحد: أن يبعث به إلى القاهرة. لا يهمّ إن كان الفراق صعباً. ثمّة عمّ، العمّ خليل، الموظّف بهيئة إدارة الأوقاف، وهو يسكن بالقاهرة. سيعهد إليه بجمال الذي أكمل سبع سنوات. فور وصوله، سجّله العمّ بمدرسة النحاسين الابتدائية التي لا تبعد إلا بضع خطوات عن سوق خان الخليلي ومسجد الأزهر الشهير. وغير بعيد، كان يلوح مُجمّع معماري يضمّ قبور سادة مصر قديماً: المماليك، الرقيق الشراكسة الذين تجبّروا. وقد بسطوا سلطانهم على أرض الفراعنة لقرنين من الزمن. وكان يلزم أن يفد صباح ذات يوم من أيام سنة ١٧٩٨ لواءٌ نكرة من أصل كورسيكي لكي يبيد هؤلاء الفرسان المتغطرسين. لكن موتهم الحقيقي سيكون في الفاتح من مارس/آذار من سنة ١٨١١ بين أسوار قلعة القاهرة حيث أجهز عليهم جنود محمّد علي، حاكم مصر آنذاك.

كان جمال تلميذاً رزيناً، وحيداً في غالب الأوقات، وكثير

الشرود. وكان له ميل مقلق إلى إهمال غذائه وملبسه ودروسه، كما كان يُدهش والده بملاحظاته الغريبة: «لماذا نأكل نحن اللحم يا أبي في حين لا يأكله من يربّون الخرفان من الرعاة؟» لم يتبادر هذا السؤال إلى ذهن موظف البريد قط. فيجيبه: هكذا تجري الأمور. إنّه *المكتوب*.

لم يكن جمال يراسل من منفاه بالمدينة إلا أمّه. كان يشعر بأنّها تفهمه أكثر من أيّ أحد آخر، وأنّها تشعر بخبايا روحه الشابة المعذّبة. وكانت كلّ رسالة تصله منها تبعث في نفسه شحنة من السعادة تعينه على تحمّل الحياة في حاضرة كان يشعر فيها بالوحدة رغم حنان العمّ.

وبحلول شهر أبريل/نسيان من سنة ١٩٢٦، انقطعت عنه رسائلها.

شعر جمال بالقلق، لكنّ أباه طمأنه: «أمّك منشغلة بأعمال البيت التي لا تنتهي. ثمّ هناك تربية شقيقيك الصغيرين». وواصل جمال مع ذلك تسويد الصفحات. لا بأس إن كانت الستّ فهيمة لا تردّ. فحسبه أن يكتب ويُفرغ قلبه ويبوح بمكنون نفسه.

وبحلول الصيف عاد جمال إلى الخطاطبة لقضاء العطلة. لم يجد فهيمة في استقباله. كان حسين يقف عند عتبة الباب بسحنة كئيبة. ونزل عليه الخبر الرهيب كساطور: «لقد ماتت أمّك منذ بضعة شهور. نقلناها إلى الإسكندرية لكي تُعالج. هنا لا يوجد أيّ شيء. أسلمت الروح هناك. لم أشأ إخبارك بالأمر حتّى لا تتأثّر».

وفي اليوم الموالي باغت حسين ابنه وهو يحفر حفرة قرب المنزل، فقال له ناهراً: «ماذا تصنع؟!» فردّ جمال: «أريد أن أرى ما تخفيه هذه الأرض. أريد أن أعرف من أين نأتي وإلى أين نروح».

بعد ذلك بسنوات، سيكتب السادات في مؤلفه صفحات مجهولة: «كان ذلك سنة ١٩٣٨. كنّا جميعنا من نفس الفوج. كان يصنع كل ما نصنع، ولكنه كان مع ذلك أيضاً يفكر، ولا نكاد ننطلق في المرح حتّى نجد موضوعاً هادئاً... يثيره بيننا جمال عبد الناصر... كان جمال يطوي نفسه على كثير من الآلام الشخصية... آلام يذكرها منذ توفيت والدته وهو صغير، فأثّرت وفاتها في حياته تأثيرا كبيراً». ويضيف كذلك في كتابه «البحث عن الذات» «كان الطاغي عنه أنّه شاب جادّ لا يميل إلى المزاح مثل غيره من الزملاء، ولا يقبل أن يضاحكه أيّ إنسان لأنّه كان يرى في هذا مساساً بكرامته ممّا يجعل أغلب الزملاء يبتعدون عنه، بل ويتحاشون الكلام معه حتّى لا يسيء فهمهم. كان ينصت لمناقشاتنا باهتمام، لكنّه لا يتكلّم إلا في القليل النادر». من الواضح أنّه أقام سوراً عالياً بينه وبين الآخرين، وأنّه يبدي تحفظاً بيِّناً، وأنّ علاقته بالسادات تقتصر على التقدير المتبادل.

وفي سنة ١٩٢٨ سيسارع والد جمال إلى الزواج ثانية.

كيف عاش الطفل هذا الزواج الثاني؟ من الراجح أنّ وقوع هذا القران بعد مدّة قصيرة من وفاة والدته أغاظه. ومهما يكن، ففهيمة أقبرت معها كلّ أمل في السعادة الأسرية.

وفي خريف سنة ١٩٢٩، نقلت إدارة البريد حسين، وهذه المرّة إلى كوم حمادة شمال الخطاطبة. ثمّ ستنقله من جديد سنة ١٩٣٣، لكنّه انتقال كان بطعم السعادة بما أنّ الأمر يتعلّق بالقاهرة. وأخيراً اجتمع شمل الأب بابنه!

إلا أنّ جمال غيّر مع ذلك المدرسة، إذ سُجّل بمدرسة النهضة الواقعة بحي الظاهر، وهي مؤسسة لا تبعد إلا بضع خطوات عن مسجد الإمام الشعراوي، المسجد العتيق المتداعي، المبنيّ بحجر

الكلس، والذي لم تنجح واجهته المزيّنة بالفسيفساء الزرقاء في أن تضفي عليه رونقاً. وعلى الرغم من ذلك كان جمال يشعر فيه بالغبطة. فإليه كان يفرّ من ضيق بيت الأسرة، ومن زوجة الأب التي لم يكن يحسّ نحوها بأي شعور. هناك كان يجد متعة في مراجعة دروسه والتفكير ـ منذ هذا الوقت المبكر ـ في مستقبل مصر.

مسكينة مصر... تحوّلت إلى ضيعة قطن لشركة لانكاشير. وها قد مرّ قرابة نصف قرن وهي ترزح تحت نير الاستعمار البريطاني. لا شيء يمكن أن يُعقد أو يحلّ من دون مباركة ممثّل بريطانيا. فمصر مكبّلة، وبرلمانها مسخرة. من المؤكّد أنّ لها ملكاً اسمه الملك فؤاد، لكنّه لم يحكمها إلا لمدّة قصيرة. بعد ثلاث سنوات، صباح يوم من أيام ماي/أيار من سنة ١٩٣٦، سيخلفه ابنه الصغير فاروق.

(٢)

ولد فاروق في الحادي عشر من فبراير/شباط سنة ١٩٢٠

قلّما لقي ملك ما لقيه من استهجان وزراية وشتم واستخفاف واحتقار. تردّد عنه كلام كثير يشعر معه المرء كما لو أنه أمام نصّ مستنسخ إلى ما لا نهاية: طاغية، أكرش، دمية، زير نساء، أبله، مقامر، مصاب بهوس السرقة... حتّى إنه لو قورن بكاليغولا ونيرون لظهرا أمامه من الصالحين.

لمّا شعر والد فاروق بدنوّ أجله، صار دائم التفكير في ابنه الذي سيخلفه على عرش قائم على رمال متحرّكة من دون أن يتوفّر له التأهيل اللازم. ومع ذلك لم يطلب من وزير خارجيته عودة فاروق على وجه السرعة إلا ليلة وفاته، وذلك لكي يسدي له آخر نصائحه. لكن الوقت كان قد فات: فالبرقية نفسها ستنعاه والده وستطلب منه العودة إلى بلده، وستخبره بتنصيبه ملكاً على عرش مصر.

عجّلت الحكومتان الفرنسيّة والبريطانيّة بتيسير إجراءات عودة فاروق إلى وطنه. عبَر بحر المانش من داوفر إلى كالي، واجتاز فرنسا على متن القطار ليصل إلى مارسيليا ويستقلّ يخت المحروسة الملكي نحو الإسكندرية. في تلك الأثناء، كانت تجري بالقاهرة مراسيم جنازة فؤاد على نحو باذخ.

وصل العاهل الشابّ إلى القاهرة في الخامس عشر من ماي/أيار من سنة ١٩٣٦، وكان يوماً قائظاً.

وما كادت قدماه تطآن رصيف الميناء حتّى سارع الحاجب إلى تقبيل يده، وعزفت الفرقة النحاسية النشيد الوطني. وقف كلّ الحاضرين بانتباه. وما ظلّ عالقاً بأذهان كلّ من شهدوا هذا الموقف هي صورة تلميذ متصلّب في بذلة طويلة سوداء، يضع طربوشاً على رأسه، تلتهمه ـ من ضعفه ـ عيون ذلك الجمع الغفير من البشوات والأمراء، المتوثّبين للانقضاض عليه لبلوغ أطماعهم، حتّى إن أحد المراسلين البريطانيين همس: ما أشبهه بدانييل في جُبّ الأسود.

بعد الحاجب جاء دور الأمير محمّد علي، الذي عيّن وصيًّا عليه، للانحناء وأداء التحيّة، ثمّ بعده رئيس المجلس علي ماهر. وما هي إلا نصف ساعة حتّى اقتيد الصبي إلى محطة القطار المستأجر خصّيصاً لنقله إلى القاهرة.

اصطفّ حشد كبير من الناس على جنبات الطرقات والشوارع، وعند مرور الموكب تعالت هتافاتهم: «يحيا فاروق! يحيى محرّر البلاد!».

قطع القطار المسافة الفاصلة بين الإسكندرية والقاهرة في أقلّ من ساعتين، وهي سرعة قياسية. واستُقبل العاهل الجديد بالحفاوة نفسها.

كان أوّل ما قام به هو زيارة قبر والده الذي ووري الثرى بمسجد الرفاعي. درجت السيارة ببطء تسبقها سريّتان من الخيّالة وسط الهتافات. وغطّت الزغاريد على أنغام الموسيقى العسكرية. وما كاد يبلغ المقبرة حتّى عاد إلى طبيعته الطفوليّة. تناسى كلّ قواعد البروتوكول وارتمى على الرخام المثبّت حديثاً، وراح ينتحب.

إنّه في السادسة عشرة من العمر ويحكم اثنين وعشرين مليوناً من الرعايا المصريين. وجد نفسه يتسنّم عرش مملكة يحتلّها البريطانيون،

وترِكة بحوالي مائة مليون دولار. ورث فضلا عن يخت *المحروسة*، المصنوع للإبحار في أعالي البحار، *قاصد خير*، وهو مركب نهري فاخر (بعد تنازل الملك عن العرش، انتقل هذا المركب إلى ملكية والدي الذي حوّله إلى مطعم فندق، واستغلّه لتنظيم أولى الرحلات السياحية إلى صعيد مصر. وقد شاء القدر أن ينعم عليّ بقضاء معظم أوقات مراهقتي على هذا المركب الشراعي الصغير الشبيه بعوالم ألف ليلة وليلة... وهي حكاية أخرى...).

اكتشف فاروق في الترِكة التي ورثها عن أبيه أيضاً ستّة قصور، وعدداً لا يحصى من الفدادين تتوزّع على كافة أرجاء مصر، وكميّة هائلة من السجاد واللوحات والأسلحة والنقود النادرة، ومجموعة مذهلة من الطوابع البريدية تقع في عدّة مجلدات. كان الأمر يتعلّق على الأرجح، حسب زعم بعض المتخصصين، بأهمّ مجموعة طوابع في العالم بعد مجموعة التاج البريطاني.

لكنّ تربية الملك الصبي لم تكن مكتملة، ولن تكتمل أبداً. وحتّى بعد عودته إلى إنجلترا لم يتوفّق مدرّسه إدوارد فورد (ذو الأصل الإنجليزي طبعاً، الذي عيّنه ممثّل بريطانيا مايلز لامبسون) في أن يفرض على تلميذه انضباط الأكاديمية. حلّ لامبسون الرجل الفظّ بمصر منذ الثامن من يناير/كانون الثاني سنة ١٩٣٤. بعد بداية متواضعة بوزارة الخارجية سنة ١٩٠٣، ارتقى المراتب شيئاً فشيئاً بين صوفيا وفلاديفوستوك وطوكيو وبيكين إلى أن تقلّد منصب سفير مفوّض. وقد كانت مصر آنذاك منصباً حساساً، وبذلك وافق تعيينه بها هوى في نفسه. وفي سنة ١٩٣٦ أكمل لامبسون الثانية والخمسين من عمره. كان رجلاً متوسّط الطول، نحيفا، بعينين صغيرتين، ووجه مستطيل ينتصب في وسطه أنف أشبه بأنف سيرانو. طلّق زوجته الأولى راشيل ماري فيليبس، وكان يتأهّب للاقتران بامرأة إيطالية

تدعى جاكلين كاستيلاني، ابنة السير ألدو كاستيلاني. وقد عقد قرانه عليها في الثامن عشر من ديسمبر/كانون الأول من نفس السنة. كان شخصاً مقيتاً يعكس غطرسة دولة ما تزال مزهوّة بمستعمراتها. وفي سنة ١٩٤٣، منحته الحكومة البريطانية لقب بارون كيلرن.

كانت حياة فاروق في بادئ الأمر شبيهة بحياة أيّ ولي عهد. يستيقظ صباحاً على الساعة السادسة فيقوم بحصّة من التربية البدنية تحت إشراف أستاذ رياضة فرنسي، ثمّ يتعاقب عليه المدرسون. وقد كان أبوه حريصاً على أن يتقن اللغة العربيّة على وجه الخصوص، وهي اللغة التي لم يكن هو نفسه ناطقاً بها، ممّا كان يمثل مفارقة عجيبة: ملك يحكم بلداً لا يفهم لغته. وجدير بالذكر أنّ فؤاد، على غرار أسلافه، ينحدر من أصل تركي ألباني. وحتّى سلفه الشهير محمّد علي، لم يكن يتكلّم العربيّة على الإطلاق.

كانت أمّ فاروق، الملكة نازلي، تعيش منعزلة في الحريم الملكي. وظلّت رهينة هذا المحبس طوال ستّ عشرة سنة، في وضع أقرب إلى الانهيار العصبي. وكانت تخصّص لابنها لحظات الترويح الوحيدة التي يسمح لها بها زوجها. ولم يكن الابن للأسف ميّالاً للدراسة. كان اللعب يستأثر بكلّ اهتمامه، وهو أمر سيلازمه طيلة حياته. ولمّا اشتدّ عوده وصار قادراً على حمل بندقية هوائية، صارت أفضل تسلياته هي التصويب على طيور السمان التي يطلقها الخدم في أجنحة القصر بعد أن يكونوا قد أحضروها في أقفاص لهذا الغرض. وقد كسر خلال إحدى هذه الحصص كلّ نوافذ الطابق السفلي من قصر القبّة. وأكّد لي أنطوان بوللي، سكرتير فاروق الخاص، أنّه كان، وهو راشد، يتربّص ببستانيّي القصر، فيرشّهم بخراطيم السقي.

لم يكن طبعه ميّالاً إلى الحزم، بل كان مهملاً، وهو ما تشهد به

ملاحظات مدرّسيه التي عُثر عليها بالقصر: «عليه أن يحسّن خطّه ويعتني بكراساته» وكذلك «من المؤسف ألا تحفظ تاريخ أسلافك وتاريخ البلد الذي ستعتلي عرشه ذات يوم». عاش طفولته حبيس القصر، وبذلك كان يجهل كلّ شيء تقريباً عن مصر. لم ير الأهرام إلا بعد أن اعتلى العرش. ولم يكن له أصدقاء. كتب في أحد إنشاءاته المقالية: «لأبي كثير من الوزراء، أما أنا فليس لي أحد سوى هرّ». وكانت تنتصب على منضدّة سريره صورة خوان، وهو ابن أخت جيردا سيوبيرغ، مربيته السويدية التي كانت «الأجنبية» الوحيدة بين جيش من المربيات البريطانيات. وقد ظلّ خوان «أفضل صديق خيالي» لولي العهد.

كان أقرب كائن إليه في قصر عابدين الضخم، الشبيه بقصر برمنغهام، هو ذلك الشاب الإيطالي الذي ذكرناه، المسمّى بوللي. كان يكبره بعشر سنوات، وكان أبوه مسئولاً على صيانة تجهيزات القصر الكهربائية. كان الشاب أنطوان مساعداً يتعلّم المهنة، وكان من الطبيعي أن يؤول إليه إصلاح لُعب وليّ عهد مصر. ويمكن القول إنّ الصداقة بين المراهق والصبي نشأت منذ هذه اللحظة، وهي صداقة متينة ستمتدّ حتّى قيام الثورة. وقد شاع عن أنطوان بوللي أيضاً كلام سيء كثير: قوّاد الملك، خنوع، متزلّف، رذيل... وحتّى أختصر، فقد عرفتُ الرجل، ووجدت فيه الصاحب الذي لم يجُد علي القدر بمثله. كان من أولئك الرجال القلائل الذين يجعلون النزاهة والإخلاص في قمّة الخصال النبيلة. ما كان يكنّه من شعور لفاروق أقرب إلى التقديس، وهو شعور سيقوده، كما سنرى لاحقاً، إلى التضحيّة. لمّا قصفت إيطاليا السواحل المصريّة سنة ١٩٤٣، طلب مايلز لامبسون من الملك التخلّي عن صديقه وكلّ أفراد طاقمه من الإيطاليين، فردّ فاروق: I'll get rid of my italians, when you

«سأتخلى عن رجالي الإيطاليين لما تتخلّى أنت get rid of yours. عن إيطاليتك»، ملمّحاً بذلك إلى السيدة كاستيلاني، عقيلة المندوب السامي.

كان فاروق في شبابه على قدر كبير من الوسامة، كما كان نحيفاً وفارعاً، دقيق القسمات شهواني الثغر. كان حينئذ أقرب إلى «تايرون باوور» منه إلى شخصية غارغانتويا التي سيصير شبيهاً بها فيما بعد. وما إن أكمل الخامسة عشرة حتّى تقرّر، بإيعاز من لامبسون دائماً، إلحاقه بإحدى الأكاديميات العسكرية، وهي أكاديمية وولوتش الملكية التي تبعد بحوالي خمسة عشر كيلومتراً عن لندن. وهي إن لم تكن تحظى بهالة أكاديمية ساندهورست، فقد اشتهرت مع ذلك بتخريج رجال أمثال اللورد كرامر أو تشاينيز غوردن. حكم الأول مصر بين ١٨٨٣ و١٩٠٧، ونصّب الخديوي إسماعيل الثاني حاكماً على السودان، وذاع صيته بعد ما أبداه من بطولة في الدفاع عن الخرطوم التي حاصرها المهدي[1] الشهير بين مارس/آذار ١٨٨٤ ويناير/كانون الثاني ١٨٨٥. وقد لقي غوردن حتفه والمسدس في يده خلال هذا الحصار لما اخترقه رمح بعدما نفذت ذخيرته.

صباح ذات يوم من أيام أكتوبر/تشرين الأوّل من سنة ١٩٣٥ استقلّ فاروق سفينة دوفانشاير متوجهاً إلى إنجلترا، وهي سفينة حربية بريطانية. وقد رافقه حارس شخصي يُدعى عزيز المصري، وهو وطني صادق شديد الشكيمة، ليكون له رائداً، ممّا أزعج سفارة إنجلترا بالقاهرة. ذلك أنّها لم تكن تنظر له بعين الرضا. وقد وجدت

(١) زعيم ديني مسلم، قاد مائة ألف رجل حرضهم على تحرير السودان من النفوذ المصري البريطاني. وقد كلّف الوزير الأول غلادستون تشاينيز غوردن بإجلاء الثلاثة عشر ألف عسكري ومدني الذين كانوا موجودين بالخرطوم. (المؤلف).

في محمد حسين باشا الشخصية التي ستحقّق التوازن، لاسيما وأنهّ كان يُعَدّ، عن حقّ أو عن باطل، عميل العرش البريطاني.

كان من المقرّر أن يتابع فاروق دراسته على مدى خمس سنوات على الأقل، وأن تتخلّل هذه المدّة أسفار إلى مختلف الدول الأوروبية، وإجازات قصيرة يقضيها مع ذويه. لكنّ القدر شاء خلاف ذلك.

لمّا أرسله أبوه إلى انجلترا، لا شكّ أنّه كان ينوي تجنيبه تأثير العالم الشرقي المعروف بميله إلى التقاعس. ولم يكن فؤاد يكتفي بالتقارير الأسبوعية التي ينجزها الوصيان الرئيسيان عن الأمير، بل كانت تجري مراسلات نشيطة بين لندن والقاهرة، وكانت تتضمّن رسائل خاصة تقدّم معلومات دقيقة عن الشخصيات التي كان يلتقي بها فاروق، ولاسيّما عن ردود أفعاله نحو من يتحدّث إليهم.

هكذا عاش الأمير المراهق بعيداً من مسقط رأسه بهنري هاوس في ريشموند. ولمّا عاد إلى مصر سنة ١٩٣٦، لم تكن له أيّ خبرة بالحكم ولا بالناس. فقد قضى طفولته في قفص من ذهب بالقصر، منقطعاً عمّا يجري بالخارج. ولمّا اعتلى العرش وجد نفسه بين مطرقة الصحوة الوطنية وسندان الاحتلال البريطاني، وكان مطلوباً منه أن ينجح حيث فشل أبوه. كانت تحيط بالصبي، وهو اللقب الذي كان يطلقه عليه مايلز لامبسون بازدراء، بطانة فاسدة ومستشارون غير مخلصين، فأبى أن يَرشُد، وآثر أن يسجن نفسه في مراهقة أبدية. ما كان يتطلّبه التاريخ منه يتجاوز طاقته. لم يكن يملك الاختيار بين الشعور الصارم بالواجب ومتعة الطيش. لم يكن بوسعه الاختيار.

(٣)

كانت الحرارة في المقطورة لا تطاق، لكن يبدو أن جمال عبد الناصر لا يحفل بها. فقد كان مستغرقاً في قراءة كتاب المفكر السوري الوطني عبد الرحمن الكواكبي الموسوم بـ«طبائع الاستبداد». فرّ هذا الكاتب من اضطهاد السلطات التركية ولجأ إلى لبنان ثمّ إلى مصر حيث وافته المنية. لما ظهر الكتاب في طبعته الأولى، لم يحمل اسم مؤلّفه، ربّما خوفاً من الانتقام بسبب انتقاده اللاذع للنظام التركي الاستبدادي. انتقد عبد الرحمن الكواكبي الغرب أيضاً لتواطئه مع الطغاة، وتسخيرهم لاستغلال الشعوب، عوض مساندة نضالها من أجل الاستقلال.

ولم يكن هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذي أقبل عليه جمال إقبالاً. فقد كان في مرحلة دراسته يسارع إلى المكتبة الوطنية كلّما سنحت الفرصة ليستعير كتباً بالغة التنوع مثل سيرة الزعيم القومي التركي مصطفى كمال، و«قصّة مدينتين» لديكنز، ويوليوس قيصر لشكسبير، والبؤساء التي ترجمها الشاعر المصري الكبير حافظ إبراهيم، وغوردن والسودان لـ«ألان ب. م، ونابليون ومعركة واترلو لـ«بيك»؛ لكنه كان يطالع أيضاً كتب روسو وفولتير. ولم يكتف بقراءة يوليوس قيصر، بل شخّص هذه الشخصية على خشبة مسرح مدرسته، مدرسة النهضة، خلال حفل نهاية السنة الدراسية. ويُحكى أنّ أباه ذلك اليوم كاد يهبّ لإسعافه لما رآه يسقط متأثّراً بطعنة بروتوس.

ولعلّ أهمّ كتاب أثّر في الطالب عبد الناصر هو كتاب أمّ القرى الذي يُجهل مؤلّفه[1]. وهو يتضمّن تحليلاً ثاقباً وبعيد النظر للعالم العربي ولأسباب جموده، إذ يذهب فيه صاحبه إلى أنّ آفة الدول الشرقية هي تقلّب أمرائها في البذخ من دون أن يأبهوا بحقوق المحكومين وحاجاتهم. ويردّ سبب تأخر تلك البلدان إلى سباتها. فما ينقصها هو الزعيم المستقيم الذي يحسن قيادة الشعب. والنتيجة لا غبار عليها: إنّ المسلمين في حال من الكسل والخمول والجهل هو أصل كلّ أمراضهم.

ستشقّ هذه الأفكار طريقها إلى وعي جمال عبد الناصر. فقد كانت المواضيع السياسيّة هي أقرب المواضيع إلى نفسه وهو ما يزال تلميذاً بمدرسة النهضة. فبينما كان غيره من الطلاب يركضون وراء الكرة، كان هو يمضي الساعات منغمساً في النقاشات الحاميّة. وكان أساتذته يحاولون التخفيف من حماسه، لكنّه ظلّ عنيدا، مواظباً على تنظيم اللقاءات في بيته الصغير بزقاق خميس العدس، أو بحديقة مسجد سيدي الشعراوي، التي كان يتردّد عليها للدراسة أو التأمّل.

ورغم صغر سنّه، كان الطالب عبد الناصر يتمتّع بالجرأة والحيوية. وقد كشف أقرب أصدقائه في المرحلة الثانوية حسن النشار كيف كان يسعى بكلّ الوسائل للاتّصال برجال السيّاسة. فقد حدث ذات يوم من أيام فبراير/شباط ١٩٣٧ أن ضرب لهما سياسي نافذ موعداً. وصل الشابان في اللحظة التي كان فيها السياسي على وشك مغادرة مكتبه. كان جليّاً أنّه نسي الموعد، لكن جمال لم يحفل بذلك، بل لحق به أمام المصعد، وبادره بلا مقدمات قائلاً:

(١) هو كتاب لعبد الرحمن الكواكبي، نشره باسم الفراتي، وهو اسم مستعار. (المترجم).

«لقد شكلنا جماعة من الطلاب، ونودّ أن نستشيرك في أفضل طريقة نخدم بها بلدنا».

نصحه السياسي، وقد باغته السؤال، بأن يتصل بلجنة طلاب جامعة القاهرة.

ذهبا للقائهم بعد شهر، فكانت الخيبة: لم يجدا الطلبة يتناقشون في أمور السياسة والكفاح، بل كان شاغلهم الشاغل هو أفضل السبل للاستئثار بمهامّ داخل ناديهم: الرئيس ونائبه والسكرتير. وبذلك قرّرا أن يشتغلا بمفردهما، وأن يشكّلا لجاناً خاصة من تلاميذ المدارس الثانوية، الحكومية منها والأهلية.

ويذهب شاهد آخر هو عبد العزيز الشوربجي، عضو الحزب الوطني، إلى أن رؤية جمال عبد الناصر لم تكن قد تشكلت بعد في هذه المرحلة. كان تائهاً في عالم مرتبك، يروح هنا وهناك، يزور الأحزاب السياسيّة بأمل العثور على حزب يستجيب لتطلّعاته، واستخلص أنّ هذا الحزب المثالي لا وجود له.

نعثر على أقوال متناثرة هنا وهناك، تذهب إلى أنّ جمال عبد الناصر وهو يبحث عن الحزب المثالي، قد يكون انتمى في لحظة من اللحظات إلى حزب القمصان الخضر، ذي التوجّه النازي. أسس هذا الحزب سنة ١٩٣٣ محام شديد الشبه بغوبلز، يدعى أحمد حسين. وهو رجل مشاغب ومضطرب الشخصية، محتال وهستيري. وقد أكّد هذا الأمر الصحفي أحمد أبو الفتح. وأبو الفتح هذا، الذي سنعود إليه لاحقاً، هو صهر المقدّم ثروت عكاشة، أحد الأعضاء المؤسسين للضباط الأحرار. كان رئيس تحرير صحيفة المصري، لسان حال حزب الوفد، نشأت بينه وبين جمال عبد الناصر صداقة دامت خمس سنوات تقريباً، قبل أن يختار المنفى سنة ١٩٥٤ بعد نشوب خلاف بينهما.

كتب عبد الناصر لصديقه حسن النشار سنة ١٩٣٥:

«قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ فأين يا صديقي هذه القوّة التي نستعد لهم بها؟! إنّ الموقف اليوم دقيق ومصر في موقف أدقّ، ونحن نكاد نودّع الحياة ونصافح الموت. إنّ بناء اليأس عظيم الأركان... فأين من يهدم هذا البناء؟ إنّ في الحكم حكومة قائمة على الفساد والرشوة.. فأين من يغيّر هذا الحال؟ والدستور معطّل، والحماية على وشك الإعلان.. فأين من يقول للاستعمار قف عندك.. ارجعوا عن غيّكم فإن في مصر رجالاً ذوي كرامة لا يريدون أن يموتوا كالأنعام؟ أين هذه الكرامة؟ أين الوطنية التي كانت سنة ١٩١٩ تشتعل ناراً في الصدور؟ أين ذلك الذي يذود بدمه ولسانه وخطرات قلبه عن حياض هذا الوطن العزيز المقدّس مضحًّيا بالحياة والعمر في سبيل الاستقلال؟! أين من يخلق خلقاً جديداً حتّى يصبح المصري الخافت الصوت... الضعيف الأمل... الذي يطرق برأسه ساكنا صابرا على حقّه المهضوم، ساهياً عن التلاعب بوطنه... عالي الصوت... عظيم الرجاء... مرفوع الرأس... يجاهد بشجاعة وجرأة في طلب الاستقلال والحرية؟! أين ذلك الذي يسمّونه رعونة الشباب؟ كلّ ذلك قد غاب في الآفاق، وظهرت الأمة نائمة كأهل الكهف، فأين من يوقظ هؤلاء التعساء الذين هم عن حالتهم لا يعلمون؟!

لقد قال مصطفى كامل[1]: «لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة»، ولكنّنا نجد الآن حياة مع يأس ويأساً مع حياة. لقد انقلبت الآية يا أخي... فرجعنا إلى الوراء... رجعنا خمسين سنة إلى الوراء..

(١) سياسي مصري، زعيم الحزب الوطني (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨) (المؤلف).

رجعنا إلى حكم «كرومر»، ولكن «كرومر» وجد من أذلّه وشنّع به في عرض المعمورة فكانت النتيجة أن استقال، ولكن أين من يشنّع الآن؟ إنّ الجميع يتمسّحون بأذيال الاستعمار، ولا يعرفون إلا الملق والتزلف... يقولون إن المصري يجزع من حفيف ثيابه في وضح النهار، ولكن يجب أن يتقدّم من يقودونه إلى موقف الدفاع، ومواطن الكفاح، فيكون لهم صوت أعلى من صوت الرعد تتداعى لقوّته أبنية الظلم والاستبداد.

قال مصطفى كامل: «لو نقل قلبي من اليسار إلى اليمين أو تحركت الأهرام من مكانها المكين، أو تغيّر مجرى النيل، فلن أتغيّر أو أحيد عن المبدأ». ذلك يا صديقي كان مقدّمة طويلة لعمل أطول وأعظم، فقد تكلّمنا مرّات عديدة في عمل يوقظ الأمة من غفلتها، ويضرب على الأوتار الحساسة في القلوب، ولكن هذا لم يدخل في حيز العمل حتّى الآن، وعلى ذلك فأنا منتظرك في منزلي يوم ٤ سبتمبر أيلول سنة ١٩٣٥ الساعة الرابعة مساء لكي نتباحث في الموضوع... وأملي أن تحضر في الموعد المحدّد.

من عند جمال عبد الناصر».

وفي العاشر من نوفمبر/تشرين الثاني، ارتكب البريطانيون حماقة (انضافت إلى حماقاتهم السابقة) صبّت الزيت على النار. ففي هذا اليوم أعلن السير صمويل هور، كاتب الدولة في الشؤون الخارجية أنّ بريطانيا لا تعترض على عودة الحياة الدستورية إلى مصر، لكنّه أضاف قائلاً: «لمّا استُشرنا عبّرنا عن معارضتنا لعودة العمل بدستور ١٩٢٣ الذي قدّرنا أنّه غير صالح لمصر».

بدا للمصريين أنّ هذا الخطاب يؤكد بما لا يدع مجالاً للشكّ أن الوزير الأول المصري يتلقّى التعليمات من لندن، حتّى لمّا يتعلق الأمر بتدابير داخلية، وهو ما أثار حفيظة الشعب وسخطه...

وما كاد يحلّ اليوم الموالي حتّى نظّم عبد الناصر تجمّعاً بميدان الإسماعيلية (الذي يسمى اليوم ميدان التحرير). وفي الثاني عشر من نونبر/تشرين الثاني خرج طلاب المدارس والجامعات في موكب واحد يهتفون: «تحيا مصر!» فتدخّلت الشرطة، وانهالت عليهم بالعصي، لكنّ ذلك لم يزد المتظاهرين إلا صمودا وإصرارا على التعبير عن تذمرهم. وبغتة حدث ما لم يكن في الحسبان. كفّ رجال البوليس عن ضرب الطلاب، وانضمّوا إليهم، وراحوا يرددون: «تحيا مصر! تحيا مصر!»

هكذا كان جمال عبد الناصر شاهداً على هذا التحوّل المباغت وقد غمر وجهه الدم النازف من جرح أصيب به في جبينه. ولعلّ هذه الانتفاضة قدّمت له جواباً عن سؤال كان يلحّ عليه: «من يستطيع أن يوقظ هؤلاء البؤساء الذين لا يعون وضعهم؟»

واستئنفت المظاهرات في اليوم الموالي على نحو أشدّ، لكن الأمور هذه المرّة ستعرف نهاية مأسوية، إذ استشهد عدد من الطلبة، وجرح آخرون. وعلّق المندوب السامي البريطاني على الأحداث قائلاً: «لا يمكن أن يفخر أحد بقتل شباب في السابعة أو الثامنة عشرة من عمرهم، ونحن لا نعرف ماذا سنصنع بمن اعتقلناهم».

وتوالت الشهور تتخلّلها الاضطرابات وتراجعات البريطانيين والتقلبات المفاجئة، وهي الشهور التي وجّه فيها عبد الناصر كلّ طاقته للمعركة السياسيّة. وقد حاول أساتذته وأبوه ثنيه عن ذلك، لكن عبثاً.

وفي أبريل/نيسان ١٩٣٦ أعلن عن موت الملك فؤاد، وخلفه ابنه فاروق. وجد نفسه يواجه هذا الوضع المضطرب وهو بالكاد يبلغ السادسة عشرة من عمره. كانت إسبانيا في أثناء ذلك ترزح منذ شهر

فبراير/شباط تحت نير الحرب الأهلية، وغزا اليابانيون الصين، واحتلوا بيكين وشنغاي؛ وكان موسوليني يتأهّب للاستيلاء على إثيوبيا، كما كان ليف دافيدونوفيتش برونشتاين المشهور باسم تروتسكي يعمل بهمّة بمكسيكو، وضمّ هتلر النمسا على مرأى من العالم اللامبالي. وفي فلسطين كانت النار كامنة تحت الرماد.

قال عبد الناصر في نفسه: ملك جديد، صبيّ بلا سلطة بمّا أن مجلس الوصاية هو الذي سيحكم البلاد برئاسة الأمير محمد علي، أخ الخديوي عباس حلمي الذي خلعه الإنجليز سنة ١٩١٤. كان هذا الأمير الستّيني أشبه بشخصية روائية. لم تستهوه السياسة يوماً. قضى حياته في الاستمتاع بثروته الضخمة، وبمزارع الورد التي شيّد في قلبها بيتاً كان يقضي فيه ليالي الصيف الحارة، محتميا بناموسية معدنية رفيعة.

يعدّ قصره المنيل، الواقع بجزيرة الروضة، متحفاً يضيق بما فيه من سجاد وتحف زجاجية وفضيات ومخطوطات ومنمنمات، وأثاث مطعّم بالصدف، ونحاس منقوش وسفرات عثمانية وتحف خشبية دمشقية. بل كان يضمّ سريراً من الفضة. وقد عاش هذا الأمير حياة باذخة في باريس بين ١٨٩٨ و١٩١١. ورغم تقدّمه في السن، ظلّ حريصاً على أناقته وولعه بالنساء، حتّى ليُخيّل لمن يراه أنّه شخصية من شخصيات مارسيل بروست.

كان مايلز لامبسون هو من يسهر على إدارة الأمور في الكواليس، متخفّياً خلف مجلس الوصاية. وكان يكفيه أن يجهم لكي يركع الملك الصبي مرتعشاً. ومن ثمّة لا داعي لتأميل النفس في التغير: لا شيء سيتغير.

وفي نهاية الموسم الدراسي لسنة ١٩٣٦، فوجئ عبد الناصر

برفضه في امتحان البكالوريا بذريعة الإفراط في التغيب عن الدروس. فهو لم يحضر إلا خمسة وأربعين يوماً في السنة الدراسية؛ وهو ما أدّى إلى انتفاض التلاميذ، فتعالت الهتافات والاحتجاجات، واضطر مدير المدرسة إلى التراجع عن قراره.

ولمّا حصل على البكالوريا، أصابته الحيرة. ماذا سيفعل؟ أين سيكون وجوده أنفع؟ كيف السبيل لخدمة بلده؟ ولم يجد إلا جوابا واحداً: الجيش. تقدّم للكلية الحربية، واجتاز كشفاً طبياً روتينياً بيّن أنه لائق للخدمة؛ لكن كان عليه أن يمثل أمام لجنة مؤلفة من كبار الضباط حتّى تؤيّد قبوله بالأكاديمية.

- أبوك يشتغل إيه؟

- موظف في مصلحة البريد.

- موظف كبير؟

- لا... موظف صغير.

- بلدكم إيه.

- بني مرّ... مديرية أسيوط.

- يعني فلاحين؟

- ... أيوه

- في حد من عائلتكم ضابط جيش؟

- ... لا

- أمال أنت عاوز تبقى ضابط جيش ليه؟

- ... علشان أبذل دمي فداء للوطن.

- في حد اتكلّم علشانك؟

- واسطة يعني؟... أنا واسطتي ربنا.

- انت اشتركت في مظاهرة ١٩٣٥؟

- أيوه...

وأُعلنت اللجنة عن قرارها: رفض عبد الناصر، وكانت الخيبة رهيبة. ماذا بوسع شابّ في التاسعة عشرة من عمره يعيش بمصر ولا ينحدر من أسرة برجوازية، أن يفعل؟ إذ كان الانتماء إلى الجيش في ذلك الوقت مقصوراً على أبناء الأغنياء.

أصيب عبد الناصر بالإحباط، واضطر إلى أن يتسجّل بكلية الحقوق حيث سيمنى هناك أيضاً بخيبة جديدة. رسب، وكان التعليل هو انتماؤه للحزب الشيوعي، وإشرافه على تنظيم مظاهرات طلابية، وبذلك فهو لا يقدم الضمانات المطلوبة فيما يتعلق بحسن السلوك والامتثال السياسي.

عيل صبره، وضاق صدره، لكن لا مجال للخمول والاستسلام للقدر. تسلّح إذن بالشجاعة، وطرق باب بيت إبراهيم خيري باشا وكيل وزارة الحربية. لم يكن قد حصل على موعد، لكن لا بأس، فسينتظر ما شاء له أن ينتظر.

وأُدخل عبد الناصر أخيراً إلى مكتب الباشا.

- عاوز إيه؟

- هي الكلية الحربية يا باشا ما تقبلشي الطلبة إلا إذا كان عندهم واسطة أم أن هناك قواعد عامة تسرى على الجميع؟

- هل قدّمت طلباً ورفضت؟

- أيوه، ونجحت في الكشف الطبي، ولكن كشف الهيئة يحتاج لواسطة، وأنا ليس لي واسطة، ومعنى ذلك أن أعود لكلية الحقوق.

تعجب خيري من جرأة هذا الشاب. صمت لحظة ثمّ قال:

- يا ابني تقدم مرة ثانية للكلية...

اندهش جمال عبد الناصر لهذا الجواب، لكن خيري أنهى المقابلة بقوله:

- تقدّم مرة ثانية للكلية...

امتثل عبد الناصر للنصيحة، وتقدّم ثانية أمام اللجنة، وهي اللجنة نفسها التي أقصته سابقاً، لكن هذه المرّة كان يرأسها خيري باشا، وقُبِل جمال.

وفي شهر مارس/أيار من سنة ١٩٣٧ التحق بكليّة العباسية الحربية، بحي يقع بهامش القاهرة. كان في التاسعة عشرة من عمره، لكن كل التقارير تؤكد أنه كان طالباً مجدًّا. إذ لم تكد تمضي ستّة أشهر حتّى عيّن رئيس فريق، وأسندت له مهمة تأهيل الطلبة المستجدين. وفي هذه المرحلة لفت رجل انتباهه، ينحدر هو أيضاً من الصعيد. اسمه؟ عبد الحكيم عامر، وكان رائد مشاة. هو من مواليد ١٩١٩، وقد صار صديق جمال عبد الناصر الحميم، ومساعده، ووزيره للحربية لاحقاً. وما لبث الرجلان أن اكتسب كل منهما لقباً: اشتهر عبد الناصر بلقب «الأومباشي جيمي» (وهو لقب مستمدّ من تحوير نطق اسمه «جمال»)، في حين أُطلق على عبد الحكيم عامر لقب روبنسن لشغفه الشديد بقصص الأسفار والمغامرات. وكانت هيئة عامر مختلفة تماماً عن هيئة صديقه

الجديد. كان رجلاً بوجه مستطيل وسحنة حزينة، ذا شعر أسود مجعّد، وشارب يغطي شفته العليا. وكان ذا طبع يمكن إجماله في بضع كلمات: ودود، لكنه مندفع. ويمكن أن نضيف إلى هذه الصفات أنه كان مدمناً على تدخين الحشيش. كل هذه الصفات ستذوب بالتدريج لاحقاً في نشوة السلطة.

وفي فاتح يوليو/تموز ١٩٣٨ سينجح عبد الناصر في امتحان التخرّج من الكلية الحربية بمعدل ١٤ من ٢٠، وسيعيّن في منقباد، وهي قرية صحراوية تبعد بضعة كيلومترات عن أسيوط وبني مرّ، تمتلئ بالبرك والقنوات.

وسرعان ما أدرك عبد الناصر ضعف هذا الجيش. قال المشير عزيز المصري يوماً ساخراً: «ماذا تنتظر من جيش أنشأه لنا الإنجليز؟ لم يكن من مصلحتهم أن يكون قوياً». والواقع أن هذا الجيش كان خليطاً غير متجانس من أفراد الشرطة والخيالة من الشباب المدللين.

وهنا سيتعرّف عبد الناصر على شخصيتين ستلعبان، على غرار عبد الحكيم عامر، دوراً بالغ الأهمية في حياته. يُدعى أحدهما زكريا محيي الدين. كان حليق الوجه دائماً، بملامح ملائكية. وكان حينئذ ضابط مشاة. أما الثاني فلم يكن غير السادات، وكان برتبة ملازم في سلاح الإشارة. كانت تجمع بين أفراد هذا الرباعي نفس الأحلام، ويشتركون كذلك في مقت السلطة القائمة، كما يجمعهم نفس الشعور بالامتعاض من المحتل.

كان مقامهم بمنقباد يطبعه الشعور بالخزي. كانوا يحسّون بالمهانة وهم تحت إمرة ضباط تكوّنوا على يد البريطانيين. وممّا عمق إحساسهم هذا، عنجهيّة أولئك الضباط في تعاملهم مع مرؤوسيهم، مقابل تصاغرهم وتذللهم لأعضاء البعثة العسكرية الإنجليزية.

وقد نشر السادات في جريدة الجمهورية (التي أسسها سنة ١٩٥٦) ذكريات حول هذه المرحلة: «كنا ضباطاً لم تزد رتبة أحدنا عن الملازم ثاني... وكان قوّادنا المصريون لا عمل لهم إلا إذلالنا... والانحناء أمام الإنجليز. وكنّا نرى هذا الوضع الكريه فنحترق... ونسخط... ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلّم».

وكان أسوأهم جميعاً لواء يدعى أحمد سيف، وكان يعدّ نفسه كالسلطان عبد الحميد، فلقبه جمال ورفاقه «السلطان الأحمر». في هذه المرحلة أسرّ جمال للمحيطين به: «إنّهم الإنجليز أصل بلائنا كله»، علق السادات على هذا القول: «كنا نعلم جميعاً أنّ الإنجليز هم أصل بلائنا كلّه... ولكن هذه الكلمة قالها جمال، وكأنّه يحدّد لنا رسالة كبرى، لا ينبغي أن يتخلّى عنها أحد».

بدأ كل شيء في الواقع مساء يوم من أيام يناير/تشرين الثاني ١٩٣٨. اليوم الخامس عشر منه. قرّر السادات وزكريا محيي الدين وعامر الاحتفال بعيد ميلاد جمال. أحضروا فولاً وقليلاً من العدس والكستناء وقصب السكر على سبيل التحلية، وهيأوا الوليمة. كانت الأمسية مرحة، وتوالت النكت. وفجأة طلب جمال من الحاضرين الصمت، وأعلن بصوت رزين: «لنغتنم هذه الفرصة يا إخواني لنضع أسس مشروع كبير. ليكن هذا اليوم يوماً تاريخياً. ولنُقسم بأن نظل مخلصين للصداقة التي تجمعنا. بفضل هذا الاتحاد، سنتغلب على كل العوائق».

في هذا المكان النائي سيؤدي الأصدقاء قسم منقباد، وهناك سيتغير قدر مصر.

وما كادت تمضي بضعة أسابيع حتّى طلب عبد الناصر نقله إلى السودان الذي كانت مصر تقتسم حكمه مع بريطانيا، من دون أن

تكفّ عن المطالبة بأنّها الوحيدة ذات السيادة عليه. وهناك التقى من جديد بصديقه عامر الملقب بروبنسن. واستوثقت العلاقة بينها، وممّا زادها توثّقاً غباء الضباط الذين كانوا يسهرون على تكوينهما. وقد كلّفهما طبعهما المتمرّد أن نقلا لمدّة ثلاثة أشهر إلى جبل الأولياء، وهو مركز صناعي مخصص لبناء منشأة للتحكم في مياه النيل.

والظاهر أنّ هذه العقوبة لم تؤثر على مسيرة جمال العسكرية، إذ رقي إلى رتبة ملازم أول، غير أن ذلك لم يدخل أيّ بهجة على قلبه. كتب إلى صديقه الحميم حسن النشار، معبّراً عن يأسه وضجره: «أما زلت تذكر أحلامنا؟ مشاريع الإصلاح التي كنا نأمل تحقيقها في ظرف عشر سنوات؟ أظن أنه يلزمنا الآن ألف سنة...»

أمّا السادات فعاد إلى القاهرة، وانخرط بكلّ جوارحه في العمل السرّي. كان مفعما بالحماس والشغف. ولد سنة ١٩١٨، صباح عيد ميلاد المسيح بقرية ميت أبو الكوم بمحافظة المنوفية، وهي نفس القرية التي سيرى فيها النور خليفته حسني مبارك. وهو ينتمي إلى عائلة من الفلاحين البسطاء. وقد كان رجلاً تقيا، تشهد سيماء الصلاة في جبينه على مواظبته على هذه الفريضة، وهو ما لم يكن يمنعه، شأنه شأن عامر، من تعاطي الحشيش من وقت لآخر.

وكان، على غرار جمال عبد الناصر، مهووسا بفكرة تحرير البلاد، واسترجاع كرامة الأمة المهدورة. لكنّ الرجلين كانا مختلفين حول كيفية بلوغ هذا الهدف. ففي الوقت الذي كان عبد الناصر يميل إلى الاعتماد على الجيش وعلى رفاقه في السلاح فقط، وينفر من إراقة الدماء، كان السادات مستعدّا للتحالف مع الشيطان. ولا ضير في أن يتّخذ هذا الشيطان لبوس الإخوان المسلمين أو الفاشيين. كان يرى أنّ كلّ أشكال الكفاح مشروعة: الاغتيالات والتفجيرات... بما أنّ الأمر يتعلّق بالدفاع عن قضية عادلة.

نحن في سنة ١٩٤١، وروميل يتقدّم نحو ليبيا، وهي الخطوة الأولى التي ستقود فرقته العسكرية إلى مصر. وقد رأى السادات، على غرار شخصيات مصرية عديدة ـ من بينها فاروق ـ في روميل منقذاً قاده القدر ليخلّص أرض الكنانة من الاحتلال. وكان التهديد الألماني في غاية الخطورة لدرجة جعلت السلطات البريطانية تسارع إلى إحراق أرشيفها، وتستعدّ لإخلاء سفارات الدول الحليفة. واعتقد كثير من المراقبين أنّ روميل لم تعد تفصله عن بلوغ القاهرة إلا بضعة أيام.

وشرع السادات يتّصل بكلّ من كانوا يشاطرونه هذا الموقف، ومن بينهم المشير عزيز المصري، الذي اشتهر بمشايعة الألمان. كمّا اتصل كذلك بمنظمة الإخوان المسلمين التي كان يتزعمها مؤسسها حسن البنا[1]. وقد كان ينادي بـ«الجهاد سبيلنا والموت أسمى أمانينا»، وهو نداء كان يبدو كنبوءة. تحدد اللقاء بالداعية الذي اقترح اندماج حركة الضباط الشباب في جماعته، لكن السادات تردد. كان يعي الفروق بينه وبين هؤلاء السلفيين، ويدرك أيضاً رؤيتهم الدينية البحتة للحكم. ذلك أن البنا لم يكن يطمح إلا إلى إيقاظ الجماهير عبر إلهاب حماسها الديني، وإقامة نظام قائم على مبادئ الشريعة، مقابل السادات ورفاقه الذين كانوا يقصدون هدفاً أكثر تواضعاً، ألا وهو تحرير الشعب وتحسين ظروف حياته. قال للبنا: «لقد صارحتك

---

(١) ولد بالقاهرة يوم ١٤ أكتوبر تشرين الأول ١٩٠٦. ينحدر من أسرة متدينة، وتلقى تعليمه الأول بقريته بين ١٩١٤/١٩١٨، ثمّ بمركز دمنهور، وكان أثناء ذلك يتعلّم مهنة الساعاتي وتسفير الكتب. وبعد أن درس بدار المعلمين العليا بالقاهرة، وتخرج منها بتفوّق، أسس يوم ١١ أبريل/نيسان سنة ١٩٢٩ جماعة الإخوان المسلمين، وهو مقتنع بأن السبيل الوحيد لتحرير البلاد من الاستعمار هو الاعتماد على الجانب الاجتماعي من الإسلام. (المؤلف).

بكل شيء... وأحب أن أقول لك بنفس الصراحة نحن تنظيم لا يخضع ولا يعمل لحساب أي حزب أو هيئة وإنما لمصلحة مصر ككل».

رغم تحفّظ السادات، إلى أنه لم يتردّد في نسج علاقات طيّبة مع الجماعة ومع مرشدها.

وضعت الراقصة الفاتنة حكمت فهمي رهن إشارة الضباط عوامتها على النيل. وفي هذا الفضاء نظّم السادات اجتماعات تتوخّى جمع معلومات عن أنشطة البريطانيين العسكرية لبعثها إلى مركز قيادة رومل. ولم يكن من النادر سماع أصوات تهتف: «يحيا رومل! يحيا موسوليني!» أهي سخرية أم ميل مرَضي لدى الشعب المصري للّعب بالكلمات؟ فقد أطلقوا على الدوتشي لقب موسى النيلي.

(٤)

صار الشغل الشاغل للسادات منذئذ هو التخريب. أخذ يجوب الأسواق لجمع الزجاجات الفارغة ليصنع منها الكوكتيل مولوتوف. وكان الهدف الذي يسعى إليه بتصيمم يتلّخص في بضع كلمات: دفع الجيش المصري إلى التمرّد على الإنجليز بدعم من قوى المحور، لكن مشروعه أخفق.

وانتهى به الأمر شهر أكتوبر من سنة ١٩٤٢ معتقلاً. طرد من الجيش وأودع السجن. حبسوه في السجن المسمّى «سجن الأجانب»، وهو سجن كان مخصّصاً للمعتقلين السياسيين. مكث فيه بعض الوقت قبل أن ينقل إلى المينا، بمعتقل ماقوسة. وكم كانت دهشته كبيرة لمّا اكتشف أنّ هذا المعتقل كان أقرب إلى قصر منه إلى سجن عادي. كانت به شبابيك من زجاج ملون وأخشاب فاخرة وحمامات رائعة. كانت تملكُه شخصيّة سياسية ساءت أحوالها المالية، فأجّرته للحكومة.

وفي نهاية سنة ١٩٤٣ صدرت الأوامر بنقله من جديد. أودع سجن الزيتون، غير بعيد من القاهرة، وهو سجن ليس فيه شيء من سحر ماقوسة. ثمّ أُخِذ إثر ذلك إلى قرّه ميدان، حيث قضى ثمانية عشر شهرا في الزنزانة ٥٤، محروماً من كل شيء. ولن يستعيد هذا المقاوم الغاضب حريّته إلا بعد صدور مرسوم سنة ١٩٥٠.

في أثناء ذلك، عاد عبد الناصر من السودان برتبة نقيب، وكان في أنسب موقع ليكونَ شاهداً على إهانة الملك، إهانة ستظل منقوشة إلى الأبد في أذهان جميع من شهدوها.

سعت الحكومة التي كان يرأسها حينئذ سري باشا بكلّ ما أوتيت للتعاون مع البريطانيين تحسّباً لمواجهة قوات رومل. لكن إنجلترا ظلّت في عيون الجيش والشعب «قوّة محتلة» ينبغي التخلّص منها مهما كلّف الثمن. ومَن غير الألمان يستطيع أن ينجز هذه المهمة؟ وهذا سرّ مساندة السادات، وكذا العديد من الضباط المصريين، لقوات المحور.

يتحدّث المشير البريطاني ميتلاند ويلسون في مذكّراته عن مدى دهشته عندما عثروا ضمن وثائق مركز القيادة الإيطالي غداة معركة العلمين، على خطط دفاعية كان السادات قد هيّأها، وبعثها إلى اللواء عزيز المصري قبل سنتين من ذلك.

بعد مضي شهر على عودة عبد الناصر إلى القاهرة، دخلت قوات رومل يوم الفاتح من فبراير/شباط ١٩٤٢ إلى بنغازي. واستُقبل الخبر بالزغاريد والهتافات. ولم يلبث المئات من طلبة جامعة الأزهر أن خرجوا إلى شوارع القاهرة، وانضمّت إليهم الجماهير. طالبوا باستقالة سري وتعويضه برجل معروف بتعاطفه مع قوات المحور هو علي ماهر باشا. كان ماهر باشا في السابعة والخمسين من عمره، وكان رجل قانون شهيراً، سبق لوالد فاروق أن عيّنه سنة ١٩٢٣ ناظراً لمدرسة الحقوق. كما تولى وزارة المعارف ثمّ وزارة المالية، وآلت إليه في نهاية ١٩٣٥ رئاسة الوزراء، وهو المنصب الذي ظلّ يشغله إلى سنة ١٩٣٧. وقد كان رجلاً مستقلاً، مشهوراً بالاستقامة.

تردّد الملك، ولكن تردّده لم يطل. لعلها الفرصة المواتية لكي يضع حدًّا ما شاع عنه منذ توليه الحكم: الملك فاروق «يسود ولا يحكم». ولعلّه استشعر أيضاً أنّ الشعب ضرب له موعداً مع التاريخ.

وفي الثالث من فبراير/شباط، أعفى حكومة سري، وتأهّب لتعيين الرجل الذي يطالب به الشعب: علي ماهر.

أهي شجاعة؟ أم سوء تقدير؟ أم هي رغبة في تحمّل مسؤولية مصيره هو شخصيًّا ومصير مصر؟

كان ممثل بريطانيا السير مايلز لامبسون يتناول وجبة الداء بعد جولة قنص بالفيوم لمّا علم بخبر إقالة سري.

قام من المائدة ورتّب بنادقه، ثمّ أعلن للحاضرين وهو يبتسم: «أنا آسف لأنّني مضطر لترككم، هناك ملك ينبغي أن أخلعه».

في المركبة التي عادت به إلى القاهرة حاول أن يعيد ترتيب الكلام الذي قاله سري عن شخصية فاروق: «الصبي مجرد جبان، ومن المهم إفزاعه بين الفينة والأخرى». كان السفير البريطاني يرى أنّه إذا لم يكن بدّ من تغيير سري، فلن يخلفه إلا مصطفى النحاس باشا، عدو فاروق اللدود. كان النحاس شخصية بارزة في الحياة السياسيّة المصريّة، وهو رجل في السادسة والستين من عمره، يمتهن المحاماة، وسبق أن عين قاضياً سنة ١٩٠٤. وقد آلت إليه منذ ١٩٢٧ رئاسة حزب الوفد ذي النزوع الوطني، بعد وفاة مؤسسه سعد زغلول. تقلّد منصب رئيس الوزراء سنة ١٩٢٨، لكن فؤاد طرده بعد ثلاثة أشهر، ثمّ عاد إلى هذا المنصب سنة ١٩٢٩، وما لبث أن استقال سنة ١٩٣٠، وعاد من جديد سنة ١٩٣٦، وترأس البعثة المصريّة التي توجّهت إلى لندن لتفاوض على توقيع معاهدة مصرية بريطانية أبرمت ردًّا على غزو إيطاليا لإثيوبيا. وبعد أن أقاله فاروق سنة ١٩٣٧، ها هم البريطانيون يطلبون عودته من جديد. وقد كان لامبسون يقدّر أنّ النحاس هو الوحيد القادر على إقناع الجماهير المصريّة بالمساهمة ـ إن تطلب الأمر ذلك ـ في الجهود الحربية الأنجلو ـ أمريكية.

رفع السفير سماعة الهاتف فور وصوله مقر السفارة، وطلب

الملك. تجاهل الشروحات التي قدمها فاروق، وقال له: «أدعوكم يا صاحب الجلالة إلى تعيين مصطفى النحاس باشا على رأس الحكومة. هو بالذات ولا أحد غيره. أمهلكم إلى الساعة السادسة من مساء غد. في حالة عدم استجابتكم، فعليكم أن تتحمّلوا تبعة ما سيحدث».

وأقفل الخط.

تقع السفارة الإنجليزية برقم ١٠ شارع طليمات بحي غاردن سيتي السكني. هناك استدعى لامبسون يوم ٤ فبراير/شباط قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط، كلود أوشنليك، وكذا السير ولتر مانكتون، ولم يكن قد مضى وقت طويل على تعيينه مسئولاً عن الدعاية والاستعلامات، لكنّ سبب استدعائه كان يتمثّل بالخصوص في أنّه هو من كُلف بتحرير وثيقة تنازل إدوارد الثامن عن العرش. إدوارد هذا سيفضّل السيدة سامبسون على التاج البريطاني، وسيصير لاحقاً دوق وينتزور.

أدرك أوشنليك ما كان يحاك، فقال معترضاً بنبرة متوتّرة:

- أتظنّ يا سير لامبسون أنّ إجبار الملك على التنازل عن العرش قرار حكيم؟ فالشعب المصري...

فقاطعه لامبسون بجفاء:

- لم تقض في هذا البلد إلا وقتا قصيراً. أنا أعرف منك بالشعب المصري. لن يحرك ساكناً!

- وبمن ستعوّض فاروق يا ترى؟

- بالأمير محمّد علي.

ليس الأمير هذا غير ذاك «العجوز الوسيم»، المعروف بمحاباته لبريطانيا، وبلحيته البيضاء، وجريه خلف النساء.

فقال أوشنليك ملحاً:

- هل لوزارة الخارجية علم بما ستُقدم عليه؟

- تمام العلم، فقد تلقيت الضوء الأخضر من وزيرنا السير أنطوني إيدن.

تقلّد أنطوني إيدن، كونت أفون، وزارة الخارجية في حكومة تشرشل قبل سنتين من ذلك.

عقارب الساعة تدور.

ينظر لامبسون إلى ساعته بين الفينة والأخرى. لم يتمكّن من إخفاء نفاد صبره، وعند السادسة والربع مساء حلّ رجل بمقر السفارة بشارع طليمات. إنّه محمد حسنين باشا، العريف الذي رافق فاروق خلال مقامه القصير بوولفيتش. كان يمسك بيده رسالة وقعتها حوالي خمسون شخصية. يقول نصها بالحرف: «إن في توجيه التبليغ البريطاني اعتداء على استقلال البلاد ومساساً بمعاهدة الصداقة، ولا يسع الملك أن يقبل أن يمسّ استقلال البلاد ويخلّ بأحكام المعاهدة».

ابتهج لامبسون، ها هو يجهز على فريسته! سيلتهم الصبيَّ لقمة سائغة.

أعاد الرسالة إلى حسنين بحركة متّزنة، واكتفى بالإعلان عن زيارته للملك على الساعة التاسعة ليلا.

وفي الساعة التاسعة تماماً من تلك الليلة، حاصرت كتيبة من الجيش البريطاني مؤلّفة من ٦٠٠ جندي وعدد من الدبابات قصر عابدين.

تبعهم لامبسون بسيارته الرولز رويس، مرفوقاً بالجنرال ستون،

قائد القوات البريطانية بمصر. ترجّل الرجلان وتبعهما ستّة جنود مدججين بالسلاح. كان باب القصر الحديدي مقفلاً. لا ضير في ذلك. أمر لامبسون بإطلاق النار على الأقفال، ثمّ مرقوا إلى ساحة القصر، ودلفوا إثر ذلك إلى مكتب فاروق غير آبهين بصراخ الحاجب دي الفقار باشا، وكان معه أحمد حسنين باشا. لم يستطع المندوب السامي الإنجليزي إخفاء نفاد صبره، فقد كانت فكرة عزل الملك تلحّ عليه إلحاحا. كان يتخيّل نفسه حاكماً على الهند، وهو حلم طالما راوده منذ فترة طويلة.

حاول ذو الفقار بحركة يائسة أن يخرج الجنرال ستون، فنهره لامبسون بحدّة.

رفع فاروق صوته المتهدّج قائلاً:

- في هذه الحالة، يمكن أن نستبقي حسنين معنا أثناء المقابلة؟

هز لامبسون كتفيه دلالة على عدم ممانعته، ثمّ راح يقرّع الملك على تجاوز المهلة التي حددها له. لقد تأخّر عن الموعد بربع ساعة! كما أنّه أقدم على خيانة بريطانيا وعبث بالاتفاقات المبرمة بينها وبين مصر، وتآمر مع العدو الألماني.

حاول الملك أن يجادل، لكن لامبسون قطع عليه الطريق قائلاً: «لعلّ جلالتكم تدرك بعد كلّ هذه الهفوات، أنّه لم يعد أمامكم من خيار سوى التنازل على العرش!»

قال وهو يضع على مكتب فاروق الوثيقة التي حرّرها صباح ذلك اليوم السير والتر مانكتون:

«نحن فاروق الأول ملك مصر تقديراً منا لمصالح بلدنا فإننا هنا نتنازل عن العرش ونتخلى عن أي حق فيه لأنفسنا ولذريتنا، ونتنازل

عن كل الحقوق والامتيازات والصلاحيات التي كانت عندنا بحكم الجلوس على العرش، ونحن هنا أيضًا نحلّ رعايانا من يمين الولاء لشخصنا.

صدر في قصر عابدين في هذا اليوم الرابع من فبراير ١٩٤٢».

ثمّ قال لامبسون بلهجة آمرة:

- وقّع!

ظلّ فاروق يحدق في الوثيقة. كانت مكتوبة بخطّ متسرّع على ورقة لا تحمل حتّى عنوان السفارة البريطانية.

تصنّع الملك ابتسامة وقال:

- كان بوسعكم على الأقل أن تكتبوها على ورق يليق بالمقام...

لزم لامبسون الصمت وقد شبك ذراعيه.

أمسك فاروق بالقلم وهمّ بالتوقيع، فكاد السفير يطير فرحاً. سيتخلص أخيراً من «الصبي»، صبي في الثانية والعشرين من عمره. وفي هذه اللحظة أسرع إليه حسنين باشا، وهمس بشيء في أذنه.

كتب لامبسون فيما بعد وهو يتذكّر هذه اللحظات في مذكّراته: «مرّت لحظات ثقيلة، بدا فيها فاروق مفزوعاً، وفي الأخير رفع عينيه نحوي وقال بنبرة تدعو للشفقة: هل يمكن أن تمنحني فرصة أخيرة؟» فقلت في نفسي: «اللعنة، لن يوقّع!»

أجابه السفير بنفاذ صبر:

- حسناً.

تنفّس فاروق الصعداء ووضع القلم.

- طيب، سأنفّذ ما طلبت.

من الراجح أنّ حسنين هو من همس له بهذا المخرج.

وأضاف فاروق حسب ما سجله لامبسون بأنّه وعد باستدعاء النحاس فوراً صوناً لشرفه وكرامة مصر.

لم يكن أمام لامبسون من خيار سوى القبول، وإن كان إخفاقه في خلع الملك حزّ في نفسه.

تنفّس فاروق الصعداء: لقد أنقذ عرشه، ولكن بأي ثمن؟!

لم يشكّ ممثل بريطانيا للحظة في وجود ثلاثة حراس ألبان مسلّحين مستخفين خلف الستارة، مستعدين لإطلاق الرصاص عليه وعلى الجنرال ستون في حال شعورهم بأنّ حياة سيّدهم مهدّدة.

بهذا النحو أخطأ فاروق موعده مع التاريخ ومع الشعب المصري في ذلك اليوم الرابع من فبراير/شباط ١٩٤٢.

لو أنّه رفض الانصياع لإملاءات السفير البريطاني، لكانت الصورة التي خلّفها للأجيال اللاحقة مختلفة ولا شكّ. كيف كان سيتصرّف لامبسون لو أنّ فاروقاً عاكسه؟ هل كان سيغامر بقتله؟ أو يأخذه قسراً؟ لا ريب في أنّه كان سيصنع من «الصبي» بطلاً وطنياً يعبده شعبه.

هناك رواية أخرى لهذا المشهد أوردها أحد أبناء عمومة الملك وهو عادل ثابت الذي يقول إن الملك قدر بأنّه لا مجال لمقاومة ذلك الاستعراض الرهيب للقوة، وهتف: «إذا كنت تريد النحاس، فهو لك!». وأسرّ فاروق فيما بعد: «كنت أدرك أنّ لامبسون لم يكن يبحث في قرارة نفسه إلا عن ذريعة لعزلي. لو أنّني عاكسته لكنت جاريته فيما يريد».

ومهما تعدّدت الروايات، تظلّ النتيجة واحدة: استسلم فاروق صاغراً. قد يلتمس له العذر بصغر سنّه، وانعدام كفاءته، وطبعه المراهق دائم التقلب. لم يهيّأ البتة لتدبير موقف كهذا. لو كان رجل دولة حقيقياً لرفض الاستكانة، لكنّه لم يكن رجل دولة حقيقياً. من المؤسف أن ينسى هذا المقامر المدمن في ذلك اليوم أن الملك في لعبة الورق أقوى دائماً من الخادم...

إن تبعات هذا اليوم لن يحصرها العدّ.

كتب اللواء محمد نجيب ـ وكان ما يزال نكرة آنذاك، لكن سيكون له شأن لاحقاً ـ إلى الملك: «حيث أنّي لم أستطع أن أحمي ملكي وقت الخطر فإنّي لأخجل من ارتداء بذلتي العسكرية والسير بها بين المواطنين، ولذا أقدّم استقالتي».

إلا أنّها رُفضت.

أما عن ردّ فعل عبد الناصر، فقد اكتفى بأن علق: «إنّي أشعر بخزي وعار شديدين لأنّ جيشنا سكت على هذا الاعتداء. والحقيقة أنّي أعتقد أنّ الإنجليز كانوا يلعبون بورقة واحدة في يدهم بغرض التهديد فقط، ولكن لو كانوا أحسّوا أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوّة بالقوة لانسحبوا كأيّ امرأة من العاهرات.

أمّا نحن، أمّا الجيش فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الوضع والإحساس فيه، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن النساء واللهو، أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة. لقد كان هذا درساً، ولكنّه درس قاس».

وفي التاسع من سبتمبر/أيلول، قُبل عبد الناصر مكوّنا بكليّة

الأركان العامة حيث تلقّى تكوينه. وفي هذه المرحلة قدم له عبد الحكيم عامر الملقب بروبنسن أخت أحد أصدقائه، وكان تاجر سجاد بالقاهرة. إنّها شابة من أصول إيرانية تدعى تحيّة كاظم. تعلّق بها عبد الناصر وتزوّجها، وأنجب منها خمسة أطفال.

الحادية عشرة ليلاً، ماي/أيار ١٩٤٨

وصل الموكب العسكري من توّه إلى العريش. نزل الرجال على الرصيف المُقفر. انطلق جمال ورفاقه يبحثون عن مقرّ القيادة، فلم يعثروا فيه إلا على ضابط أركان واحد كان يبحث عن عشاء لنفسه، فدعاه جمال إلى أن يشاركهم ما كان معهم من بقايا طعام. كتب متذكّراً هذه الليلة: «كانت أصوات ضحكاتنا وأحاديثنا تجلجل في البيت المهجور، وكانت لأصدائها في نفسي مشاعر غريبة».

(٥)

رجال يرتدون السموكنغ من غير أناقة، يتزاحمون حول موائد القمار بنادي «الإسكارابيه» (الخنفساء)، وهو أرقى ناد خاص بالقاهرة. يوجد بطابقه الأول مطعم مجهّز بحلبة رقص، وفي الطابق الثاني توجد قاعة قمار تعزف فيها فرقة إيطالية أنغاماً موسيقية خافتة مناسبة لرقصة السلو.

كانت القاعة تضمّ باشوات وبهوات وضباطاً بريطانيين وملاك أراض أثرياء ويونانيين وأتراكا وألبانا وإيطاليين ولبنانيين وصاغة من الأرمن وتجاراً يهوداً وأقباطاً ويونانيين كاثوليكيين وأرثذكس. وهم يشكلون مصر *الأخرى*.

يجاور الطربوش هنا القبعة، وينافس سيغار تشرشل حامل سيجارة دانهيل. الهواء مشبع بعطور الشانيل وشليمار، والنساء في غاية الجمال، تظهر عليهنّ علامات اللامبالاة. يتنقّل السفرجية والخدم، ومعظمهم من النوبة، بمهابة، ملفوفين في قفاطينهم البيضاء، متمنطقين بأحزمة حمراء. أما رؤساء الخدم، فيرتدون سترات بيضا وسراويل سودا، ويضعون ربطات عنق فراشية، يراقبون الموائد ويلتقطون أبسط إشارة.

موريس حاضر هناك. إنّه أبي، وهو سيد المكان. يستقبل زواره ككل مساء بحركات أنيقة، وابتسامة مشرقة. فهو متماه مع نادي الإسكارابيه، لأنه صنيع يديه. لم أكن في شهر ماي/أيار هذا من

سنة ١٩٤٨ قد أكملت سنتي الأولى، ورغم صغر سنّي، أظنّ أنّني كنت أبجّل أبي.

حصل الإسكارابيه على الترخيص الذي كان من أعزّ ما يطلب في أرض الإسلام: الترخيص بالقمار وبيع الخمور. وقد حصل عليه بمرسوم ملكي تبعاً لإرادة الملك. ولم يعط جلالته هذا الامتياز لموريس لسواد عينيه، بل لأنّ فاروقاً كان في الثامنة والعشرين من عمره، وكان مدمناً على القمار.

كيف حصل ذلك؟ ما الملابسات التي تعرّف فيها الملك على ذلك المواطن النكرة؟ تعرّف عليه بكلّ بساطة حول إحدى موائد القمار، في مكان ما بين دوفيل ومونتي كارلو، لأنّ الملك ومرعيّه كانا يشتركان في نفس الشغف.

كان المدير بمونتي كارلو يدعى، فيما يبدو، م. لوبلان (الأبيض)، وهو بالتأكيد ما جعل أبي يقول قولته المأثورة التي كان يردّدها من حين لآخر: «سواء ألعِب المرء الأسود أو الأحمر، فلا يعزُبنّ عن ذهنه أن لوبلان (الأبيض) هو الرابح».

أما الآن، فلوبلان (الأبيض) داخل الإسكارابيه هو أبي، لكن مع فارق بسيط: يمنع القانون على صاحب الكازينو أن يلعب في مؤسسته. وقد اهتدى موريس إلى حيلة يلتفّ بها على هذا المانع. ذلك أن سحر مائدة القمار عليه لا يعادله إلا إغراء الكأس المقدّسة على فرسان المائدة المستديرة. كيف له أن يقاوم؟! كان يدس في يد أحد أصدقائه ـ ويختاره من الأوفياء ـ قبضة من الأقراص، ويحثّه على أن يلعب بدله، وهي حيلة غريبة تبرز سلطان القمار على المقامر. ففي هذه الحالة بالذات، ما الفائدة في أن يعرف المرء ما إذا كان قد ربح أو خسر، بما أن الخسائر تعود في نهاية المطاف

إلى الخاسر، بينما كان الربح شبه منعدم. والواقع أن أبي والملك كانا من أبناء لـ«أليكسي إيفانوفتش» البررة. لا ريب في أنّهما كانا، على غرار بطل دوستويفسكي، يقامران بحثاً عن الدهشة، من أجل المخاطرة لبلوغ الحضيض، ومن يدري؟ لعل ذلك يشعرهما بالرحمة الإلهية. كلّ المقامرين الحقيقيون سيؤكدون لك هذا الأمر: لا يشعرهم الربح بشيء، لا يحرّك مشاعرهم، لا يبعث فيهم أيّ فرحة عارمة، بينما الخسارة... الخسارة أمرها مختلف تماما.

يجري تداول أموال طائلة على الموائد، أموال لو عرفها الفلاح البسيط الحافي الذي لا يملك قوت يومه، لأصابه الدوار. يبدّد هنا من الأموال ما يكفي لإعالة قرية بكاملها لنصف قرن.

ويستمرّ اللعب.

سبعة في البنك! تلهب الموائد لعبة الباكارا، وهي صيغة إيطالية للعبة ورق فرنسية تدعى سكّة الحديد.

ويتسمّر الحاضرون من جديد في أماكنهم.

لقد دخل ملك آخر إلى النادي. يتعلّق الأمر بـ«زوغ» الأول، ملك ألبانيا. وبخلاف أمبرتو، لم يفاجئ حضوره أحداً. فقد طردته هو الآخر جيوش موسوليني سنة ١٩٣٩، وأجبرته على التنازل عن عرشه لفيكتور إيمانويل الثالث. صارت حياته منذئذ حياة رجل تائه يخشى السقوط بين أيدي قوات المحور. وقد حاول اللجوء إلى اليونان ثمّ إلى تركيا فرومانيا وبولونيا وإيستونيا والسويد والنرويج، ثمّ أخيراً بفرنسا. وفي ماي ١٩٤٠، احتُلت فرنسا، فجمع حقائبه ورحل إلى لندن. وفي سنة ١٩٤٤، تحرّرت ألبانيا، وسقطت في يد الشيوعيين، وبذلك تبدّد حلمه بالعودة إلى تيرانا. وانتهى به المطاف أخيراً إلى أن حطّ الرحال بأرض الفراعنة، يحدوه أمل خفيّ في أن يحظى بدعم الملوك العرب، وهو أمل سرعان ما تبخّر.

انتاب أبي الذعر، ماذا يقتضي البروتوكول؟ من عليه أن يجلس في أقرب مكان من حلبة الرقص؟ من عليه أن يخدم أوّلاً؟ ملكان في ليلة واحدة؟! إنّه أمر أصعب من أن يتحمله قلبه المتعب أصلاً.

على بعد مئات الكيلومترات من هناك، كان عبد الناصر يجوب العريش بحثاً عن مقرّ قيادة وهمي.

تبادل الملكان المنفيان الابتسامة.

كان ثمّة بعض الأزواج متعانقين يرقصون في الحلبة، وكان المغني يشدو بأغنية لاقت نجاحاً في ذلك الوقت لـ«لامبروز وارلو»، وهو يوناني من الإسكندرية، رحل إلى فرنسا من أجل الشهرة، ولقيها فعلا، واتّخذ لقباً... جورج غيتاري. وقد اقتدى به آخرون أمثال: يولاندا جيغليوتي، المشهورة بداليدا، والراعي اليوناني الذي يسمى غيسيبي موسطاشي، وكلود فرانسوا وديميس فانتوريس الملقب بديميس روسوس، وغي بيشار الذي سيشتهر بلقب بيبر، وريشار أنطوني ـ الذي بالكاد أكمل التاسعة عشرة من عمره سنة ١٩٤٨ ـ وأليكساندر ليغويا، عازف الغيتارة البارع الذي تسري في عروقه دماء يونانية وإيطالية، وكذلك أندري شدّاد، الشاعرة ذات القلب العظيم، و... رودلف هيس، سيء السمعة.

وضع ستيفانوس موظّف نادي القمار يده على الصندوق، ماذا تُراه ينتظر لكي يوزع أوراق اللعب؟ انحنى أحدهم عليه وهمس شيئاً في أذنه. ماذا جرى؟ أعلن بصوت خافت أنّ ملكاً آخر حل بالمكان. إنّه بيير الثاني، ملك يوغوسلافيا الذي نفي هو الآخر من بلده منذ ثلاثة أعوام.

شعر موريس بالضيق، وكاد يسقط مغمى عليه. وما كاد يسترجع أنفاسه حتّى تعالت الأصوات معلنة:

ـ الملك! الملك! مولانا!

وضع موريس رأسه بين راحتيه. أربعة ملوك!

وهرع إلى فاروق. كان يقف إلى جواره أنطوان بوللي. منذ أن عاد الملك من إنجلترا، رقّى صديق طفولته الإيطالي الكهربائي إلى مرتبة بيه، وصار رجل ثقته الذي لا غنى عنه. كانت نظرة واحدة كافية، إذ وشوش في أذن الملك بضع كلمات، فهزّ فاروق رأسه موافقاً، وتوجّه إلى المائدة المستديرة الكبيرة المحجوزة له على مدار السنة.

أومأ بوللي لأبي مطمئناً، وتوجّه نحو زوغ، أكبر الملوك الحاضرين سنًّا. حياه، فابتسم زوغ ثمّ قام والتحق بمائدة فاروق. ثمّ دعي إثر ذلك أمبرتو وبيير الثاني. كانت الساعة تشارف على الثانية عشرة ليلاً. وها هم الملوك الأربعة ومرافقوهم مجتمعون حول نفس المائدة.

وقد أسرّ لي أبي بعد سنوات عديدة من ذلك وعيناه اللتان يمتزج فيهما اللون الرمادي بالأزرق ساهمتان: «تذكّر يا بني، أربعة ملوك في ليلة واحدة، مشهد لم أعاين مثله قط. لقاء لم يحضّر له ولم يخطّط، في مكان عام، لم يحصل مثل هذا في أيّ مكان آخر من العالم. كان زمناً مجنوناً ولامعقولاً. منذئذ، ما عاد الملوك يلتقون إلا في مراسيم دفن أقربائهم».

وينبغي أن نضيف لهذه النبوءة التعليق الذي تفوّه به فاروق ذات ليلة وهو في قمّة انهياره: «في المستقبل القريب، لن يفضل على وجه البسيطة سوى أربعة ملوك: ملك السباتي والبستوني والقلب والديناري». (ملمّحاً بهذا إلى ملوك لعبة الورق).

- هيا يا موريس! هات شامبانيا!

رغم أنّ الملك لم يكن يشرب الخمر كما تقضي بذلك ملّته، فقد

كان يحتفي بضيوفه. أما هو فسيحتسي مشروبه المفضل: شراب البرتقال الذي كان يشرب منه كميات كبيرة.

أما القيصر أليكساندر الثاني، فيُسقى من خمرة «لوكريسطال رويدرر» التي ابتكرت سنة ١٨٧٦.

ثمّ يدعو الملكُ أبي ويهمس له:

- قل لي، هل غنّت قبل أن أصل؟

- كلا يا صاحب الجلالة.

- فلتغنّ إذن...

وما هي إلا دقائق حتّى تغرق القاعة في الظلام، ثمّ يوقد كشاف ضوء، ويعلن صوت: «أصحاب الجلالة، أيّتها السيدات والسادة، ها هي آني بيربي جاءتكم تُوًّا من باريس!» فتدوّي التصفيقات.

ثمّ تتسلل إلى حلبة الرقص امرأة بالكاد تبلغ العشرين من عمرها، ترتدي فستاناً حريرياً ضيقاً يظهر مفاتنها، فتنحني انحناءة إجلال رشيقة أمام الملوك الأربعة، وتتناول ميكروفونا وتهمس: «أشعر أني بحال جيد... جيد... جيد»

يشعر فاروق بدوره أنه في أحسن حال. فهو على وشك تطليق زوجته الأولى فريدة بعد عشرة أعوام دامت عشرة أعوام بالتمام والكمال، مع أن من شهدوا زواجهما في العشرين من يناير/كانون الثاني من سنة ١٩٣٨، توهّموا أنه قران أبدي.

ولدت فريدة، واسمها الحقيقي صافيناز ذو الفقار المعروفة بلقب: «فافيت»، من أب يشغل منصباً سامياً في القضاء وأمّ كانت من وصيفات الملكة نازلي. كان يشعّ منها ذلك التهذيب في الحركة والفكر الذي يصنع سحر المرأة الشرقية. فقد تربّت تربية رفيعة يظهر

فيها أثر راهبات نوتردام سيون. وقد كان حفل زفافها شبيهاً بحفلات الحكايات الخرافية.

كان الملك في الثامنة عشرة من عمره بينما كانت صافيناز في الخامسة عشرة. كيف لفتاة في سنّها ألا تنشده لفكرة الزواج من هذا الأمير الذي ساقته لها السماء، والذي رضي بأن يجعل منها إحدى أصغر وأغنى ملكات العالم؟

قدّم فاروق للآنسة صافيناز على سبيل الصداق شيكاً بمبلغ خمسين ألف دولار وخاتم ألماس بنفس القيمة تقريباً. وفي غضون ذلك أطلق على عروسه اسم فريدة. ولم يكن اختيار هذا الاسم بالصدفة. ذلك أن أب فاروق لمّا شعر بدنو أجله، عبّر عن رغبته في أن يرى وريث عرشه يسير على نهجه، ويكرّس فكرة خرافية غريبة: ينبغي أن تشرع أسماء أطفاله، ذكوراً وإناثاً، بحرف الفاء. فقد كان فؤاد يعتقد ولا شكّ أن هذا الحرف قد يكون مفيداً لمملكته. ولمّا تزوّج أحمد فؤاد، نجل فاروق، بدوره سنة ١٩٧٦، حافظ على هذا التقليد، إذ أطلق على زوجته دومينيك فرانس لويب بيكار اسم فضيلة.

هكذا صدر سنة ١٩٣٨ مرسوم جعل من يوم العشرين من يناير/ كانون الثاني عيداً وطنياً، وجرى تخفيض ثمن النقل العمومي بسبعين في المائة، حتّى يتمكن الناس من التوافد على العاصمة. أضيئت شوارع وأزقة القاهرة، بينما انطلقت مئات الزوارق على النيل مزدانة بالشموع. ومما ضاعف نشوة الجماهير أنّ فريدة، التي لم تكن تجري في عروقها الدماء الملكية، إذ عدّت رمزاً للمرأة الشعبية البسيطة التي اتخذها الملك زوجة له.

وفي حوالي الساعة الحادثة عشرة، توقّفت سيارة من سيارات

القصر أمام مبنى هليوبوليس حيث تقطن العروس. ركبت هي وأبوها، فيمّمت السيارة وجهها صوب قصر القبّة. وما هي إلا ساعة حتّى تجاوزت أبواب القصر الحديدية.

كان الملك ينتظر بصالون القصر الفاخر وقد لبس الزي العسكري، وتزين بالنياشين والميداليات.

اقتيدت العروس الشابة التي ستصير ملكة مصر إلى غرفة مجاورة تبعاً للتقاليد الإسلامية، ولم يذهب للقاء الملك إلا أبوها يوسف.

انحنى ذو الفقار وهو يقول:

- هل ترضى جلالتكم بقبول ابنتي فريدة زوجة؟

فأجاب جلالته:

- أرضى.

قُدِّم العقد للملك، ثمّ لأب العروس ولشاهدين اثنين، فوقعوه جميعهم. عندئذ فقط ظهرت العروس الشابة. كانت فاتنة، ترتدي فستاناً ذا ذيل بطول خمسة أمتار من ثوب التول. وفي جيدها كان يتلألأ عقد من الياقوت الأحمر واللؤلؤ، وكان يحيط بوجهها خمار ذو تخاريم، وهو هدية قدمتها الإمبراطورة أوجيني سنة ١٨٦٩، خلال تدشين قناة السويس، إلى إحدى بنات إسماعيل.

ولما انتهت المراسيم، امتطى الملك والملكة سيارة قرمزية مفتوحة، وعبرا المدينة. كانت الجماهير هائجة، وكانا جميلين وشابين. بدت الطرابيش الحمراء الزاهية كأزهار شقائق النعمان وهي تزين مرجاً من المروج، تحت سماء زرقاء صافية. وكانت تتردّد هنا وهناك هذه العبارة التي يختصّ بها أهل مصر، والتي يتأبّى معناها العميق عن كل تأويل: «قمر!». مرَّ الموكب الملكي تحت أقواس

النصر المكللة بالزهور والمنصوبة على طول المسافة. نسيت مصر في هذا اليوم كل بؤسها، كما نسيت نكد الإنجليز ويأسها الأبدي.

واستمرت الاحتفالات ثلاثة أيام بلياليها، تخلّلتها فرجات شبيهة بقصص ألف ليلة وليلة. وتناوبت على منصات نصبت بالمناسبة في قلب القاهرة بديعة العظيمة وسيدة الطرب العربي أم كلثوم وراقصة شابة كانت ما تزال مبتدئة تسمّى تحيّة كريوكا.

أما في القصر، فترأس الملك ثلاث مآدب نظّمت على شرف الحكومة والهيئات الدبلوماسية وكبار موظفي الدولة. وتكدّست على مكتبه برقيات وافدة من العالم بأسره، تحمل إحداها اسم أدولف هتلر.

لكن ستنتهي هذه القصة الرائعة للأسف نهاية سيئة. فالملك الذي لم ينجب ولداً يخلفه، في العرف الشرقي، لا يعد ملكاً كاملاً. والملكة فريدة لم تلد سوى البنات: فريال وفوزية وفادية. وبذلك كان الطلاق أمراً محتوماً. وقد وقع يوم التاسع عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني من سنة ١٩٤٨. جاء في وثيقة الطلاق:

«إن حكمة الله وإرادته اقتضت وقوع الانفصال بين الزوجين الكريمين».

لم يشع الملك أبداً، تبعاً لقواعد اللياقة، أنه طلق زوجته لأنّها لم تنجب وليًّا للعهد، بل نزولاً عند رغبتها بما أنّها لم تعد تتفاهم معه.

صرّحت سنة ١٩٧٧ وهي تستعيد ذكرياتها أنّها سعت في لحظة من اللحظات إلى إنكار ماضيها، وقالت إنّها كانت غلطة، لأنّ حياة المرء هي مجموع اللحظات التي عاشها، الحلو منها والمرّ، وإنكارها يعني إنكار نفسه.

لم تكن الذرر بالنسبة إليها غير مظاهر، ولم يكن يشعرها التاج، رغم سحره، إلا بالصداع. وكانت الفساتين الثقيلة المرصعة بالأحجار الكريمة تدمي كتفيها. لقد كانت امرأة قبل أن تكون ملكة، ولم يكن ذلك أمراً يسيراً. كانت تقول: «ليس من حقّ الملكات إلاّ أن يكنّ ملكات. إن الملوك والملكات لهم واجبات قبل أن تكون لهم حقوق». لم يكن في نظرها التاج هو الشيء الأهمّ. فقد كانت تحبّ رجلاً، ولم تكن تطمح إلا لأن تكون زوجته. لماّ طلب فاروق يدها، وكان ما يزال شاباً بالغ الوسامة، توجّست من فكرة العيش خلف «قضبان القصر». لكنّه طمأنها، فاستسلمت. إلا أنّ الملك سرعان ما أصبح للأسف ضحيّة حاشيته. ووجدت فريدة نفسها شاهدة على التحوّل، من دون أن تقوى على التدخل، فشعرت بعزلة كانت تتعمّق يوماً بعد يوم. تغاضت في بادئ الأمر عن طيش الملك، لكنها حين علمت ذات يوم بأنّه متعلّق بامرأة أخرى، رفضت الانصياع للأمر الواقع، ليس بدافع الغيرة، بل لشعورها بأنّ أولئك النساء كائدات، وهو أمر كان يؤلمها. لم تتعلّق يوماً بحياة عوالم ألف ليلة وليلة. كانت تحبّ رجلاً لا ملكاً، وهو رجل ضاع منها...

وقع اختيار الملك تلك الليلة على المغنّية الفرنسية الشابة، وهي ليست صيده الأول ولا الأخير. فقبل آني بيريي (التي تركته لتعيش تجربة عاطفية ملتهبة مع الممثل جان بيير أومان)، عاش زير النساء ـ وهو أمر يتعذر تصديقه ـ مغامرة غرامية عفيفة. كانت تلك المرأة أجمل امرأة في مصر، وكانت تدعى إيرين غينل، وهي تنحدر من أسرة يهودية من أصل فيتنامي، استقرّت بالإسكندرية قبل ذلك بقرنين. والواقع أنّ لا شيء يكذّب شغف فاروق بالنساء اليهوديات. ويمكن افتراض أنّ جذور هذا الشغف تعود إلى نصائح أبيه الذي كان يردّد: «لا يمكن أن تكون المرأة اليهودية إلا استثنائية».

بعد ذلك ارتبط بنساء كثيرات من بينهنّ ليليان كوهين، المغنية الشهيرة بفندق الأهرام الذي كان من أماكن اللهو المأثورة لديه. كان اسم هذه المغنية الفني هو كاميليا. وقد لقيت حتفها في الصحراء المصريّة وهي في الواحدة والعشرين من عمرها إثر تحطم الطائرة التي كانت تقلّها بصحبة أربعة وعشرين راكباً آخرين. ثمّ هناك إيرين النجار التي تخلّت عنه لتتزوج ضابطاً إنجليزيا، فتوّعدها بأن ينتقم منها «بإعلان الحرب على اليهود».

وفي صيف ١٩٤٢، حاول الإيقاع بليليان أديس، وهي فتاة تنحدر من أسرة يهودية كبيرة كانت تملك أحد أكبر محلات العاصمة وأشهرها. لم تكن قد جاوزت السادسة عشرة. لكن محاولته خلال حفل موسيقي هادئ باءت بالفشل، ولم يرها منذئذ.

أما هيلين موسوري، فكانت تلعب دور «خاطبة» (حتّى لا نستعمل لفظة أقلّ احتشاماً) صاحب الجلالة. على كلّ حال، كلفه بهؤلاء النساء جعل القاهرة بالغة الشبه بقرطبة أيام الخلفاء: لا ميز فيها بين العقائد والأعراق.

سيسقط لاحقاً في غرام باربرا سكيلطون، «المرأة المشؤومة» التي كانت موظّفة بوزارة الخارجية البريطانية آنذاك. لكنّ علاقتهما كانت خالية تماماً من مثالية أفلاطون. لم تكن حرباً خاسرة، لكنها لم تكن أيضاً فتحاً مبيناً. فحسب رواية باربارا، كان الملك عاشقاً تافها، سريع القذف، علاوة على أن عضوه بالغ الصغر.

مرّت سبع سنوات على تخلّي إيرين غينل عن الملك. وفي هذا المساء حزمت باربارا سكيلتون أمتعتها بينما عين فاروق في قاعة الإسكارابيه لا تفارق آني بيريي. ولم يظهر عليه في أيّ لحظة أنه تذكر الحرب التي تنهش بلده.

في هذه الأثناء كان جمال ورفاقه يدخلون غزّة...

(٦)

غزّة

كانت المدينة الشاطئية غاصة بالجرحى الذين رحّلوا من دير السنيد، وهي مستوطنة يهودية هاجمتها المدفعية المصريّة في عزّ النهار، من دون دعم من المدرعات. صحيح أنّهم استولوا على موقع دير سنيد، ولكن بأي ثمّن! قال عبد الناصر: «وكانت ليلة مايو من أتعس ليالي حياتي. قضيتها في مستشفى غزة العسكري، والأسرّة حولي كلّها مليئة بجرحى معركة دير سنيد التي لا تزال مستمرة. هل كنا نسوق جنودنا إلى معركة، أم كنا ندفع بهم في غير رحمة إلى مجزرة».

على أن هناك ما هو أدهى. فمنذ بداية المناوشات، تنبّه الجنود إلى أن العتاد الذي زُوّدوا به لا يتناسب مع عيار أسلحتهم. شرعت المدافع تنفجر من دون سبب في وجه جنود المدفعية، فتمزقهم إرباً. أضف إلى ذلك غياب التموين، وتدنّي الخدمات الصحيّة. ينطلق عبد الناصر إلى إسدود مع الكتيبة السادسة، ومن جديد يتملّكه الحنق.

التقى جمال بجندي وهو يهدّ خيمته للمرة الثانية في ذلك اليوم إثر تلقيه أمراً ثمّ أمراً آخر ينسخ الأوّل. فقال الرجل متأوّهاً وهو يهمس: «يا للعار! يا للعار!»

وفي الحادي عشر من يونيو/حزيران انتزع مجلس الأمن هدنة من

طرفي النزاع. وحلّ الكونت بيرنادوت بفلسطين، مرفوقاً بما يقارب مئة مراقب من أمريكا وبلجيكا وفرنسا والسويد. وفي الأيّام الموالية بعث بتقرير منذر إلى مقرّ الأمم المتّحدة: «إنّني مقتنع، بوصفي وسيطاً، بأنّ مجهوداتنا لا يمكن أن تؤتي أكلها إلا إذا سُوّيت المشكلة الأكثر إلحاحاً، وهي الكارثة الإنسانية المتعلّقة بثلاثمائة وثلاثين ألف لاجئ فلسطيني الذين جرّدوا من كل شيء. إنّ وضعية هؤلاء اللاجئين تدعو لليأس، إذ إنّ ثلاثين في المئة منهم أطفال تقلّ أعمارهم عن خمس سنوات، يعيشون من دون طعام تقريباً، عدا قليل من الطحين».

وفي السابع عشر من سبتمبر/أيلول، اغتال أحد أفراد جماعة شتيرن برنادوت بالقدس، بعد اتّهامه بمعاداة السامية.

وقد كانت للهدنة التي قرّرتها الأمم المتّحدة آثار وخيمة على الجيوش العربيّة. كانت القوات الأردنية تحاصر القدس تماماً، وكانت الخزانات ومضخات لاترون التي تزودها معطلة، والمدينة على وشك أن تسقط، وبذلك سمح وقف القتال للإسرائيليين بأن يتزوّدوا بالمؤونة والسلاح، هذا في الوقت الذي اكتفت فيه الجيوش العربيّة بالخلود إلى الراحة والتقاط الأنفاس إلى أن انتهت الهدنة.

لم يكن أحد يمنّي نفسه بالأوهام، ولاسيّما جمال عبد الناصر: فالعرب سيخسرون الحرب لا محالة. ففي الجانب الإسرائيلي هناك رجال ونساء وأطفال نزحوا إلى فلسطين لأنّهم احتُقروا لقرون، ولقوا الإهانة في مناطق عدّة من العالم. وبذلك فلا قوّة كانت ستثنيهم عن حماية مستوطناتهم الناشئة، أو عن احتلال القرى العربيّة. لم يكونوا يدافعون في قرارة أنفسهم عن أرض فلسطينية، بل عن أرض يهودية. ولم يكونوا يخوضون حرباً من أجل الاحتلال، بل من أجل التحرير.

أما من الجانب المصري، فلم يكن هناك إلا جنود تائهون محطّمون، بعيدون عن قراهم، لا يميزون بين الحرب والمناورات. لما كان عبد الناصر في إسدود، سأل جندياً: «إحنا هنا بنعمل إيه يا عسكري» فأجابه الجندي: «إحنا هنا بنناور يا أفندي..» تظاهر عبد الناصر بعدم سماع جوابه، فقال له: «نناور.. نناور فين يا عسكري». فأجاب الجندي: «في الربيكي» (هي المنطقة الواقعة على طريق السويس، والتي اعتاد الجيش المصري أن يقوم فيها بمناوراته كل عام..). صعق جمال عبد الناصر لهذا الجواب، وراعه هذا الجهل المطبق. من الراجح أن روح الجنود المصريين القتالية كانت ستكون مختلفة لو أنهم كانوا مضطرّين للدفاع عن أرضهم.

وفي الثاني عشر من يونيو/حزيران، أصيب عبد الناصر برصاصة في الصدر. يقول: «وأخرجت منديلي من جيبي أحاول أن أوقف النزيف، وروحي كلّها يملؤها شعور غريب. لم أكن خائفاً، ولم أكن نادماً، ولم أكن حزيناً». ونقل إلى أقرب مستشفى بالمجدل (أشكيلون)، حيث خضع لعملية جراحية على الفور. يصف ما كان يحيط به قائلاً: «كانت الملابس من حولي مصبوغة بلون الدم. وكانت هناك تأوّهات... وأحسست من قلبي أنّي أكره الحرب... ليست هذه الحرب التي كنّا نخوضها بالذات، ولكن فكرة الحرب نفسها وقلت في نفسي، لو قيض لي أن أصير مسئولاً، سأفكر مليّاً قبل أن أبعث بجنودي إلى الحرب».

لكن الظاهر أنّه نسي هذه الفكرة لما بعث الجيش المصري إلى حتفه في يونيو/حزيران من سنة ١٩٦٧.

وفرضت الأمم المتّحدة هدنة ثانية استمرت إلى بداية شهر أكتوبر/تشرين الأوّل ١٩٤٨. وفي الرابع منه بدأت حرب النقب.

وبعد قضاء إجازة نقاهة بالقاهرة في شهر أغسطس، عاد جمال إلى الجبهة. وعُهد لكتيبته بحماية منطقة بيت جبرين وعراق المنشية، وهي منطقة ذات أهمية بالغة في الاتصال بين منطقة بيت لحم والخليل من جانب ثمّ شريط غزة الساحلي من جانب آخر، وهما الدعامتان الأساسيتان بالنسبة إلى الجيش المصري.

وفي العشرين من أكتوبر قُطعت طريق الخليل، فوجدت الكتيبتان الرابعة والخامسة نفسيهما مفصولتين عن قواعدهما، ومطوّقتين تقريباً في مدينة الفالوجا. ولم تعد أمامهما إلا طريق سالكة واحدة، فاضطرتا إلى التراجع. وفي الجهة المقابلة، كان يوجد الجنرال إيغال آلون قائد القوات الإسرائيلية.

خلال هدنة يونيو/حزيران، كُلِّف عبد الناصر بالاتصال بممثّل عن جيش العدو لكي يهيّئ لقاء بين آلون والعقيد سيّد طه، الملقّب بـ«نمر الفالوجا»، وهو أحد القادة العسكريين الموهوبين القلائل المسئولين عن العمليات. وكان الضابط الذي انتدبه آلون يدعى يردهان كوهين، وهو برتبة نقيب. وقد التقى به عبد الناصر مرات عديدة، وهما معاً يحكيان ما دار بينهما. حتّى إنّ جمال عبد الناصر حيًّا في مقطع من مقاطع «فلسفة الثورة» غريمه، مشيراً إلى أنه لم يكن يرى فيه بالمقام الأول سوى أحد أولئك المحاربين الصهاينة الذين انتزعوا استقلالهم من إنجلترا قبل أن يطردوا العرب من أرضهم. ويضيف أن المصريين أقحموا في حرب ليست حربهم بسبب السياسة الإنجليزية في المنطقة، وبسبب القادة العرب الذين كان يتواطؤون مع العدو، ويخونون شعوبهم.

أما يردهان، فأسر لجريدة هآريتز يوم الثلاثين من يناير/كانون الثاني من سنة ١٩٥٧: «لمست في عبد الناصر جاذبية خاصة،

وصراحة ووطنية صادقة. كان مهتمًّا بمشاكل بلده الاجتماعية. كان واضحاً أنّه يتفهم ويدرك مسوغات معركتنا مع البريطانيين. وكان على علم بمقاومة الهاغانا، وحاول أن يفهم، انطلاقاً من كفاحنا، الإمكانيات التي يتيحها حشد الجماهير في حركة مقاومة موحّدة. لا شك في أنه كان يغبطنا».

لم يكن عبد الناصر يعلم أنّ اسمه سيأخذ، انطلاقاً من هذا المكان النائي، في الشيوع بين عامة الشعب.

وفي الواحد والعشرين من أكتوبر، سيتلقّى العقيد سيّد طه الأمر لتحضير رجاله للتراجع عبر الطريق الثانوي الذي بقي سالكاً، وهو ما استحسنه عبد الناصر. فالتراجع سيمكّن الكتائب المصريّة من أن تظلّ على اتصال ببقيّة القوات المرابطة في الخليل. وفي تلك الأثناء، بلغ أمر ينقض الأمر السابق، فعمّ الارتباك والغضب. وفي يوم الثالث والعشرين جاء أمر جديد بـ«أن يعودوا أدراجهم»، لكن هيهات! صارت العودة مستحيلة لأنّ الإسرائيليين استغلوا مماطلة القيادة المصريّة العليا ليغلقوا المنفذ الأخير، وطوّقوهم تماماً.

وفي الليل أمطرتهم الطائرات الإسرائيلية بمنشورات كتب عليها أنهم محاصرون ومعزولون، بحيث يستحيل عليهم التواصل مع بقيّة الجيش المصري، وأنّ الموت سيكون مآلهم إن لم يستسلموا. فقادتُهم كذبوا عليهم وغرّروا بهم، ولن يبعثوا لهم بالتعزيزات والمؤن. لكنّهم إن استسلموا سيلقون المعاملة الحسنة، وسيعودون سالمين إلى بيوتهم وأهلهم...

رفض العقيد سيّد طه الاستسلام، واستمر حصار الفالوجا إلى فاتح يناير/كانون الثاني، وخلال هذه الأسابيع الرهيبة، أبدى عبد الناصر روح مبادرة لفتت إليه الأنظار. فبينما كانت طليعة القوات

الإسرائيلية تحاول التسلل لجيب عراق المنشية، اتّصل هاتفياً بصديقه زكريا محيي الدين الذي رقي قائداً للفيلق المجاور، وطلب منه أن يقصف بالقنابل المنطقة التي هم موجودون فيها، مُخاطراً بذلك بحياته. ونجحت العملية، بحيث نجحت الكتيبة في هجومها المضاد، وتمكّنت من الاتصال من جديد بالكتيبة الأخرى التي كانت محاصرة.

وحلّ وقف إطلاق النار في السابع من يناير/كانون الثاني ١٩٤٩، وصار بإمكان مقاومي الفالوجا مغادرة مواقعهم. وقد حيّاهم الجنود الإسرائيليون تحيّة إكبار. ووجدوا في ذلك بعض العزاء.

لمّا عاد عبد الناصر إلى القاهرة وكان قد رقي قائداً، لكنّه كان قد تخلص من كل الأوهام. لا بدّ من إعادة بناء كل شيء. في سنة ١٩٤٤، أيّ قبل ذلك بخمس سنوات، تخلّص الملك أخيراً من النحاس باشا الذي فرضه عليه لامبسون، وعوّضه بأحمد ماهر، أخي علي ماهر، وكان رئيس وزراء لامعاً وفصيحاً ووطنياً غيوراً. وقد توهّم أنّه من القوة بحيث يلعب ورقة الحلفاء على أمل أن يحصل من تشرشل على جلاء الإنجليز عن مصر. لكن هيهات! ففي اليوم الذي أعلن فيه الحرب على قوى المحور يوم الخامس عشر من فبراير/شباط ١٩٤٥، اغتيل وهو يشارك في جلسة برلمانية.

مضى عبد الناصر يتأمّل هذا البلد الممزّق رغم ثرائه. خلال سنوات الحرب هذه، ولاسيما بين ١٩٤٠ و١٩٤٣، انتقلت الودائع البنكية من ٤٥ إلى ١٢٠ مليون جنيه، وانتقل عدد المليونيرات من خمسين إلى أربعمئة مليونير. وقد نشّط غياب الاستيراد من أوروبا الصناعة المحليّة. فشركة مصر للغزل والنسيج، التي كانت تدفع للمساهمين فيها ١١% من أرباحها قبل الحرب، صارت تدفع لهم ضعف ذلك بعد أربع سنوات. وحقّقت معامل السكر في سنة ١٩٤٣

وحدها أرباحاً تفوق مليون جنيه، أيّ ما يعادل مليوني أورو تقريباً، وهو مبلغ مذهل آنذاك.

لكن لم يكن يستفيد من هذه الثروات سوى أقلية من الشعب. أما السواد الأعظم، فكان يعيش على القليل التافه الذي يقيه الموت جوعاً. يضاف إلى هذا معاناته مع التضخم المتزايد الذي تجاوز مؤشره حاجز ٤٠٠٪. وممّا زاد الطين بلّة تسريح من كانوا يسمون «عمال الحرب». وقد بلغ عددهم ثلاثمّائة ألف عامل. لم يسبق أن تلازم الفقر المدقع والازدهار بهذا النحو أبداً.

أما الجيش الذي عاد إلى قواعده، فلم يكن أحسن حالاً. كان الشعور بالاستياء والمرارة متفشّياً في صفوفه. لم ينس الجنود أنهم اضطروا لخوض حرب بأسلحة مغشوشة، وهم يحملون فاروقاً مسئولية هزيمتهم. والواقع أنّ مسؤولية الملك فيما وقع لم تكن إلا مسؤولية جزئية. كان قد أكمل سنة ١٩٤٨ الثامنة والعشرين من العمر، لكنّه لم يتغيّر: ظل ذلك الصبي الغرير. من يتحمّل خزي الهزيمة في الحقيقة هم بطانته. ذلك أنّ شهادات عبد الناصر والسادات وغيرهما تؤكّد بوضوح حالة البؤس التي كان عليها الجيش المصري قبل الحرب بكثير. لنتذكّر ما قاله عزيز المصري: «ماذا تنتظر من جيش أنشأه لنا الإنجليز؟ لم يكن من مصلحتهم أن يكون قويًّا!» أمّا عن تهمة تجارة الأسلحة الفاسدة، فينبغي البحث عن المجرم أيضاً في حاشية فاروق المقرّبة. وكان من حاشية الملك حقًّا. كان يتظاهر من الناحية الرسمية بأنّه مورد أفلام أمريكية، لكنّه كان في الكواليس تاجر سلاح. ومن غرائب الاتفاقات أنّه كدّس ثروة ضخمة خلال حرب فلسطين بالتحديد. وقد أتيحت لي فرصة التعرّف عليه في سنوات السبعينيات بفضل أنطوان بوللي، ورأيت كيف كان يعيش حياة باذخة في مونتي كارلو...

كان عدد أفراد الجيش المصري يقدرون حينئذ بمئتي ألف رجل، هذا في الوقت الذي لم يكن يتجاوز عددهم في الواقع ٣٥٠٠٠ رجل. فمن بين ١٨٠٠٠٠ الذين يجري تجنيدهم إجبارياً كل عام، يعفى ٣٥٠٠٠ منهم من التجنيد الإجباري بذرائع متنوّعة، و٦٠٠٠٠ يصرح بأنهم غير صالحين للخدمة، يضاف إليهم حوالي ٥٠٠٠٠ من الفارّين.

وفي الوقت الذي كان فيه الجميع يعلم حالة العجز والضعف التي كان عليها الجنود الذين يبعثون إلى المجزرة، لم يرفع أحد صوته لإخطار الملك. والحقيقة أنّ ما وقع سنة ١٩٤٨ سيتكرّر سنة ١٩٦٧ لمّا احتلت إسرائيل في ستّة أيام سيناء والجولان والضفة الغربية وغزّة والقدس الشرقية، مع فارق أنّ المخدوع هذه المرّة هو عبد الناصر ذاته. هو أيضاً ضلله ضباطه، ولاسيّما من كان محطّ كلّ ثقته: صديقه وأخوه عبد الحكيم عامر.

لكن لنعد إلى سنة ١٩٤٩ تلك. كانت مصر حينئذ قنبلة موقوتة على وشك الانفجار.

لم يعد السير مايلز حاكما، فقد نقل من منصبه، وعوّضه السير رولاند كامبل، وهو مبعث ارتياح لـ«الصبي». فقد جثّم لامبسون على صدر القصر لعشر سنين، فارضا عليها قانونه، ومزريا بذلك بمصر كلّها. هو من كان يحلم بأن يصير نائب الملك على الهند، انتهى به الأمر، وهو في السادسة والستين من العمر، موظفاً عادياً... بسنغافورة، مكلّفاً بشؤون جنوب شرق آسيا، مع أنّه كان واثقاً، ولفترة طويلة، من حلمه. ألم يكتب له تشرشل: «ألا تمانع في أن أسجّل اسمك في لائحة المرشّحين لمنصب نائب الملك بالهند؟ ما شعورك بخصوص هذا الموضوع؟ بالنظر إلى سنك، وإلى لياقتك

البدنية؟ أودّ أن ألفت انتباهك إلى أنّ الأمر لا يتعلّق هنا باقتراح، بل بمجرّد سؤال».

وسارع لامبسون إلى الجواب: «إنّه لمن دواعي الغبطة أن استحضرتم اسمي من بين الأسماء المرشحة. ففي ما يخصّ شعوري، اعلموا أنّ تلك هي أغلى أمنيات حياتي. أمّا عن سني ولياقتي البدنية، فيمكن أن أؤكّد لكم إنّني في أتمّ الصحة والعافية، وقادر على تقلّد منصب كهذا. وأنا أدرك تمام الإدراك أنّ سؤالكم لا يلابسه أي اقتراح ضمني».

أهو قصاص خفي؟!

حسنين باشا الذي كان وصياً على الملك، والذي صار فيما بعد عشيق الملكة نازلي، سيلقى حتفه هو أيضاً في حادثة سير مميتة بين القاهرة والإسكندرية. قبل ذلك ببضع سنوات، كاد فاروق يفقد حياته بنفس الطريقة المأسوية، وفي نفس الطريق. تجاوزته شاحنة عسكرية، وهو يسوق سيارة الكادياك وإلى جواره أنطوان بوللي، فانحرفت بهما السيارة وارتطمت بشجرة. سارع سائق الشاحنة وهو جندي إنجليزي إلى السيارة، فوجد بوللي مغمى عليه بينما كان صاحب الجلالة مصاباً، فغمغم للجندي: «اطلب الإسعاف، أنا صاحب الجلالة الملك فاروق». فردّ الجندي على الفور وهو يظنّ أن فاروق يهذي: «وأنا إمبراطور أفغانستان» مع أن لون السيارة الملكية الأحمر كان كافياً لإخطاره بالحقيقة. ذلك أن مرسوماً كان قد صدر يمنع هذا اللون في السيارات إلا على الملك. ولم تكن هذه هي الإهانة الوحيدة التي تعرّض لها، بل تعرض لإهانة أخرى هي أنه حمل في نقّالة، بعد وصول الإسعاف، وعند رفعه، تكسرت تحت ثقل وزنه، فهوى جلالته على ظهره. وتلزم الإشارة إلى أنّ الملك

كان يزن حينئذ ما يقارب تسعين كيلوغراماً وهو لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره. وسيزداد وزنه بخمسة وأربعين كيلوغراماً في السنين اللاحقة.

توالت الشهور، وفي الرابع والعشرين من مارس/آذار من سنة ١٩٤٩ سيقع حادث لم ينتبه له أحد، وهو استيلاء عقيد سوري على السلطة في دمشق...

فالبشوات والبهوات وعلية القوم كانوا منغمسين في ملذاتهم وشهواتهم، غير آبهين بما يقع خارج حدود مصر، بينما كان الفلاح البسيط منشغلاً بإعالة أطفاله الخمسة أو السبعة.

وحده جمال عبد الناصر تنبّه لهذا الأمر.

(٧)

تطفو على ذاكرتي روائح وصور واضحة وضوح الفيضان الذي يغمر الضفتين بطميه الإلهي، وملتبسة التباس ارتطام أمواج البحر بأسفل قلعة قايتباي بالإسكندرية، حيث كانت تنتصب، قبل ما يزيد عن سبعة قرون، إحدى عجائب الدنيا السبع: إنه البرج. ذلك الطود المنتصب بين السماء والبحر، المشع كشمس أنشأها الإنسان لتهتدي بها السفن.

على بعد مئتي كيلومتر من هناك، يتطاير الغبار في غرف الفيلا الهندية التي شيدت لتدخل البهجة على قلب رجل أعمال بلجيكي حالم وغريب الأطوار: إنه البارون إدوارد إمبان.

«أرغب في بناء مدينة ها هنا، ستسمى مصر الجديدة أو مدينة الشمس (هليوبوليس)». أبدأ رجل الصناعة رغبته في إنشاء مدينة مختلفة تماماً عمّا كان يبنيه الناس آنذاك في القاهرة وضواحيها، وهو ما قام به فعلاً. هناك في الشمال الشرقي، على بعد خمسة عشر كيلومتراً من وسط القاهرة، سيتحقّق هذا الحلم في قلب الصحراء. غير أنّ الأبراج البشعة والمراكز التجارية ذات الألوان المبهرجة ابتلعت اليوم المتنزّهات والحدائق والقصور والعمارات ذات الأروقة المصمّمة على الطراز العربي.

ما يزال شارع البارون يقود إلى الكاتدرائية، لكن هليوبوليس بالاس لم يعد يأوي العجائز الإنجليزيات، وإن كان بعضهم يقسم

أنّ شبح أغاثا كريستي تراءى له في بعض الأمسيات المشبعة بالحنين.

القاهرة تختنق، والنافورة لم تعد ترقرق في فناء البيت رقم ١٤ من شارع عماد الدين. فقد دمّرته أياد آثمة لتبني مكانه «بيتاً للصلاة». ما زال صوت جدّي يوسف يتردّد في مسامعي. يوسف بيه، وهو اللقب الذي منحه إياه الملك لأسباب أجهلها. كان فارع الطول، بيدين تشبهان يدي ملاكم، يفطر عند استيقاظه بستّ بيضات وطبق من الفول مع البصل الأخضر. أما المقبّل، فعبارة عن جبن مقلي. كان يجتاز الفناء والطربوش على رأسه، بهيئته الجليلة المخيفة. يغادر البواب مقعده المتآكل ليحيّيه خافضاً رأسه كما تقتضي تحيّة البشوات. والبوابون مؤسسة قائمة بذاتها. حباهم الله، شيباً وشباباً، بذاكرة مذهلة أشبه بذاكرة مراقبي الكازينوهات. يكفيهم أن يروا وجهاً مرّة واحدة لتنقش صورته في حافظتهم. يأتي معظمهم من الصعيد، أيّ من نفس الأرض التي ينحدر منها جمال عبد الناصر. يسمّون أيضاً بـ«البرابرة»، لأنّهم ينحدرون في معظمهم من أصل نوبي، من شمال السودان، وهي المنطقة التي اعتبرت لفترة طويلة مأوى البرابرة، أي «الهمج»، مع أن هؤلاء النوبيين، شأنهم شأن الأقباط، احتفظوا، بخلاف المصريين الذين تعرّبوا، على شَبَه مدهش بقدماء المصريين.

يعبر جدي الشارع، ويتنحى له الناس احتراماً. وبعد أن يقطع خمسمئة متر يجلس في رصيف مقهاه المفضّلة، لتنطلق الأحاديث وتتعالى الضحكات على خلفية نداءات نادلي المقهى. وتغرق أنغام أغنية سيّدة الطرب العربي أم كلثوم المنبعثة من المذياع في قرقرة النرجيلة.

يسارع نادل المقهى ستافروس اليوناني ممسكاً بيده صندوق لعبة

الطاولة التي تسمّى في الغرب الجاكي أو الباكغاون، فيضعه على المائدة ويفتحه، ثمّ ينتظر الطلبيات: يقول جوزيف آمراً «قهوة مضبوط»، والمقصود بها قهوة تركية معتدلة الحلاوة. أما قهوة على الريحة فتعني قهوة بالكاد محلاة، بينما تعني سكر زيادة قهوة بالغة الحلاوة. كانت للقهوة طقوسها. واليوم سيقول لك اليونانيون باستياء: «قهوة يونانية».

على بعد خطوات، يسحب بائع متجول عربته المحمّلة بالأسمال منادياً بملء صوته: «raba vecchia! raba vecchia!». الغريب في الأمر هو أنّ هذا المصري يبيع خردته بالإيطالية.

يزحف حنطور نحو دوّار سليمان باشا حيث ينتصب تمثال محارب متغطرس، اسمه الحقيقي جوزيف أنتيلم سيف. عاش حياة غريبة، إذ ولد بمدينة ليون، واشتغل سنة ١٧٨٨ مدفعياً بالقوات البحرية، ثمّ خيالا بجيش الإمبراطورية، ليصير قائداً عامًّا للجيش في عهد محمد علي. تزوّج بالستّ مريّة، مريّة هانم الملقّبة بـ«اليونانية»، لأنّها اختطفت من بين يدي تاجر بالبلوبونيز. وقد أنجبت له ثلاثة أطفال: بنتين، تدعى أكبرهما نازلي، والثانية أسماء، وولد، يسمى المهدي. ستتزوج نازلي عبد الرحيم صبري باشا، وستنجب بنتاً تسمى بدورها نازلي، وهي التي سيتزوجها الملك... فؤاد، وتلد له... فاروق. هكذا سيمتزج الدم الفرنسي بكيفية عجيبة بدم السلالة التركية بمصر.

توقف الحنطور أمام غروبي، فترجّلت منه امرأتان، واجتازتا المدخل المزخرف. وغروبي هذا قاعة شاي متميّزة، حلواني النخبة، مزوّد الملك وبشواته وكلّ الهيئة الدبلوماسية المقيمة بالعاصمة بالشوكولاتة. باختصار هو مزود الصفوة الشرق ـ أوسطية.

حلّ جياكومو غروبي، وهو سويسري من لوغانو، بمصر في نهاية

القرن التاسع عشر. وقد شرع حياته هناك كمستخدم بسيط بدار جيانولا، وهي قاعة شاي كان الناس يتهافتون عليها. وما كادت تمضي عشر سنوات حتّى أصبح مالك فرع جيانولا بالإسكندرية، الواقع بشارع فرنسا. وكانت تلك بداية ارتقاء مذهل. فقد أنشأ شركته الخاصة الأولى، وأدخل لأوّل مرّة إلى مصر القشدة الطرية التي ابتكرت أوّل ما ابتكرت، حسب الأسطورة، في القرن السابع عشر على إثر حادث مطبخي عارض. إذ يحكى أنّ القشدة الطرية نفذت خلال مأدبة بقصر شانتلي، فتبادرت إلى ذهن مساعد الطباخ المذعور فكرة أن يخفق ما تبقى له من قشدة عساه يزيد من كميتها، فتمكن بذلك من أن يلبّي طلب كل الضيوف.

لكن جيوكومو كان أكثر ابتكاراً لما شغّل النساء لأوّل مرّة في مصر بمؤسسته. وقد قرّر سنة ١٩٠٦، وكان قد جمع ثروة ضخمة، أن ينسحب من عالم الأعمال، فباع شركته لفرنسي يدعى أوغست بودرو.

لكن انسحابه لم يدم طويلاً، إذ عاد إلى مصر بعد عام لمّا أصابه الإفلاس بسبب أزمة ١٩٠٧ الاقتصادية. واستطاع أن يلاقي المجد من جديد. وفي سنة ١٩٢٤، خلفه ابنه آشيل، وأنشأ قاعة الشاي الموجودة بدوار سليمان باشا. وبعد تدشينها بشكل باذخ يوم الخميس الثاني عشر من مارس/آذار من سنة ١٩٢٥، سيرتادها كلّ من ساهموا في صنع تاريخ مصر. وبعد بضعة شهور، سيطلق الابن الذي لم يكن يقلّ ذكاء عن أبيه ـ وهي فكرة استعارها من الولايات المتّحدة الأمريكيّة ـ أصناف الآيس كريم الأولى، وسماها بأسماء ظلّت عالقة بأذهان سكان القاهرة: سفوغلاتيلا، موروكو، مو مو، ماروشكا، الكونتيسة ماري، مفاجأة نابولي.

وفي أثناء ذلك، أنشأ جيوكومو مزرعة تمتدّ على أكثر من خمسين

هكتاراً، تبعد بضعة كيلومترات عن القاهرة، سماها جزيرة الذهب. وكانت تضمّ معمل ألبان، وحظائر دواجن ومزارع أشجار مجلوبة من المناطق المدارية والاستوائية. كما حوت مختبراً مجهّزاً بأحدث تكنولوجيات مراقبة جودة المنتجات. وكانت هذه التجهيزات تُفتح لعموم الناس كل اثنين بين العاشرة والثانية عشرة ظهراً، فيرتادها من الزوار نظير ما كان يرتاد متحف القاهرة.

وقد انتهى هذا الحلم في سنوات الستينيات... تحت الحكم الناصري. ورغم أنّ المكان ما يزال موجوداً إلى اليوم، إلا أنّه غارق تحت بحر من الغبار كسفينة متحللة تكسوها قناديل بحر مقنّعة.

يلحق بجدي رجل تغطّي وجهه لحية بيضاء، يرتدي بذلة من ثلاث قطع، مقدودة من ثوب الدورموي. ستنطلق المعركة، وستأخذ الأقراص في الفرقعة، فإن هي لم تفرقع، فأين هو سحر اللعبة؟!

٦ ـ ١... شيهي ياك! ٥ ـ ١... بين غياك! ٦ ـ ٦... دوتش!

مغرّبة أخرى من مغرّبات هؤلاء اللاعبين المصريين، فهم يحسبون النقاط باللغة... الفارسية.

تمرّ جماعة من الاسكتلنديين يرتدون الكليتات وهم يقهقهون. ومن يلاحظ حركاتهم الفاجرة، يفهم أنهم متوجهون لا محالة إلى شارع كلوت بيه، حيث المواخير.

متى ستعود إلى البيت يا جدي؟ سأنام بعد حين، وقد وعدتني بأن تقرأ لي تتمة مغامرات دون كيشوت وصديقه سانشو. كانت قراءات المساء تلك موعداً يومياً مع السعادة. كنت أحشر نفسي في سرير يوسف، فيقرأ لي القصص. لست أدري أهو تلف يصيب الذكريات، أم هي لعبة مرايا الزمن، ذلك أنّ الذاكرة لما تعود بي

إلى هذه اللحظات، تنصهر مع قصيدة بودلير، فأسمع: «عندما كانت الطبيعة في ذروة إخصابها تتمخّض كلّ يوم عن أطفال عمالقة، كنت أحبّ أن أعيش بالقرب من عملاقة شابة كما تعيش قطة شهوانية عند قدميْ ملكة...»

إنّها استعارة غير واضحة وغير متوقعة...

(٨)

مارس/آذار ١٩٤٩

حلّ عبد الناصر بثكنة مدينة الإسماعيلية الواقعة بقناة السويس.

وفي الخامس والعشرين من ماي/أيّار حل بالقاهرة في إجازة. حوالي الواحدة زوالاً طرق بابه ضابط، وأخبره بأنّ الوزير الأوّل إبراهيم عبد الهادي يرغب في مقابلته على الفور، فتفاجأ. فيم تريده شخصية مرموقة كهذه؟ وسرعان ما حلّ التوجّس محلّ المفاجأة، وهو توجّس تضاعف لمّا دخل إلى مكتب الوزير ووجد عنده رئيس الاستعلامات، اللواء أحمد طلعت.

ما كاد يجلس حتّى بادره إبراهيم عبد الهادي وهو يشير إليه بسبابته متّهماً إياه بإنشاء منظمة سريّة تخطّط لإثارة القلاقل في البلد. حافظ جمال على رباطة جأشه، ولم يبد أيّ انفعال. ردّ بأنّ الاتهام لا أساس له. فقد أمضى الأشهر الأخيرة بالجبهة في فلسطين. كيف له أن يجد الوقت لإنشاء أيّ شيء كان؟

لكنّ الوزير الأول أصرّ على اتهامه:

ـ لكن أنا عندي أكثر من تقرير بيقول إنك كنت بتدرب المنظمات السرية دي. أنا على كلّ حال موش عاوز منّك حاجة كبيرة قوي، أنا عاوزك ترشدنا للضباط اللي لهم علاقة بالإخوان المسلمين!

وشعر عبد الناصر بقليل من الارتياح. هم يستهدفون إذن جماعة الإخوان ورئيسها حسن البنا.

استأنف عبد الهادي قائلاً:

- أنت تعرف محمود لبيب؟

- طبعاً.. كانت حرب فلسطين هي العلاقة الوحيدة اللي تربطني به، وكنا بنجتمع لتنظيم الدفاع عن فلسطين.

- مين عرّفك به؟

- اليوزباشى أنور الصيحي.

علت الابتسامة محيّا عبد الهادي لهذه الإجابة، واعتقد أنه نجح في استدراج عبد الناصر للوشاية بزملائه.

- أنور الصيحي عنوانه إيه بقى؟

- عند الله.. لقد استشهد في فلسطين.

وصرخ الباشا رئيس الوزراء:

- أنت بتسخر مني؟.. أنت فاكرني إيه؟.. أنا حاوديك في داهية.

واستأنف الاستنطاق ودام ما يقارب ساعتين، حاول عبد الهادي أن ينتزع معلومات من مخاطبه، لكن عبثاً. وفي الأخير تملّكه الغضب، فأمر بتفتيش بيت عبد الناصر. لكن التفتيش لم يسفر عن شيء، ولم يعثروا على أيّ دليل يدينه.

أخلوا سبيله، إلا أنّه خرج من هذه الحادثة باقتناع راسخ: لقد حان الوقت لهيكلة حركته وتنظيمها. سيطلق عليها اسم الضباط الأحرار.

لما عاد إلى بيته، تريث حتّى زالت العاصفة، ولم يستدع رفاقه للاجتماع إلا أواخر صيف ١٩٤٩ في بيته بمنشية البكري.

تشكّلت خلال اللقاء «لجنة استثنائية» تتألّف من تسعة أعضاء، من بينهم عبد الحكيم عامر، الملقب بروبنسن، وأنور السادات، والذي عاد إلى الجيش بعد خروجه من السجن، كما انضمت إليها شخصية جديدة: اللواء محمد نجيب، وهو الذي كتب غداة إهانة مايلز لامبسون للملك: «حيث أني لم أستطع أن أحمي ملكي وقت الخطر فإني لأخجل من ارتداء بذلتي العسكرية والسير بها بين المواطنين، ولذا أقدم استقالتي».

ولد سنة ١٩٠١ بالسودان، وكان أكبر أفراد المجوعة سنًّا. وقد انتبه إليه عبد الناصر ورفاقه منذ أن وجّه الرسالة إلى فاروق سنة ١٩٤٢. جرح ثلاث مرّات أثناء حرب فلسطين (ولم يكن ضابط أركانه آنذاك غير عبد الحكيم عامر)، وبذلك كان يجسّد صورة البطل المثالي.

فاتحه عامر لأوّل مرّة في موضوع الحركة لمّا كان يرقد في المستشفى إثر إصابته. وقد شرح له عامر الخطوط العريضة لمخطّط الضباط الأحرار الطموح. بعد فترة قصيرة، وكان يدرّس حينئذ بالمدرسة الحربية، اتّصلوا به من جديد. كان عامر هو من اتّصل به، لكنّه كان مرفوقاً هذه المرّة بجمال عبد الناصر. ومضى الرجلان أبعد في البوح، وحدّثاه بالتفصيل عن طموحات المجموعة، فما كان من نجيب إلاّ أن اقتنع بكلامهما.

كان المشروع الذي صاغته الحركة يقوم على ستّة بنود:

١ ـ التخلّص من الاستعمار البريطاني

٢ ـ القضاء على الإقطاعية

٣ ـ وضع حدّ لهيمنة الرأسمال على السلطة

٤ ـ تحقيق العدالة الاجتماعية،

٥ ـ تكوين جيش وطني قوي

٦ ـ إيجاد حكم نيابي سليم.

وبالموازاة مع ذلك، انطلقت حملة دعائية استعملت المنشورات والمقالات. وتقرّرت أيضاً الاستعانة بجرائد المعارضة: يومية المصري الوفدية وأسبوعية روز اليوسف. هكذا سيتجاسر أحمد أبو الفتوح، رئيس تحرير جريدة المصري، على شجب تردّي الجيش والنظام الملكي، وقد مضت به الرغبة في الاستفزاز إلى حّد نشر مقال يفضح ـ عن حق أو عن باطل ـ اغتيال ضابط كان الملك يطمع في زوجته. الأخطر من ذلك أنّه كشف اسم القاتل المزعوم: اللواء حسين سري، خادم فاروق، وعدو المتآمرين عليه اللدود.

لن يكون نجيب في الواقع أكثر من بوق أو بيدق. ذلك أنّ عبد الناصر ورفاقه إنّما استعانوا به لحاجتهم إلى شخصية ذات مصداقية، شهيرة ومحترمة. شخصية تحظى بثقة الشعب. وبذلك لن يكون اللواء العجوز سوى دمية.

كانت الأسابيع تمرّ، والاجتماعات تعقد بشكل منتظم، تارة في بيت عبد الناصر، وأخرى في بيوت مختلف الشخصيات العسكرية. ولدرء الشبهات وشكوك المخابرات، كانوا يختلقون ذرائع تخفي نواياهم: جلسات دينية، أعياد الميلاد، دوريات لعبة الطاولة... ورغم أنّ خبر وجود حركة ثورية بدأ يشيع بين أفراد الجيش، إلا أنّ الإمساك بها لم يكن سهلاً. ذلك أنّ التنظيم الذي أقامه عبد الناصر كان مؤلّفاً من خلايا مستقلّة، لا يعرف بعضها بعضاً.

أما الملك، فكأن لاهٍ عن كل ذلك، مشغولاً بالتحضير لزواجه الثاني.

نحن الآن في فبراير/شباط ١٩٥٠. كان الملك قد تعرّف من توّه على الفتاة التي ستصير ملكة مصر الجديدة. يؤكد الكثيرون بأنّ لقاءه بها لم يكن بمحض الصدفة، بل رتّبه شخص يدعى أحمد نجيب (لا قرابة له باللواء)، وهو جواهري القصر. ومن سخريّة القدر أنّ متجره كان يوجد بشارع الملكة فريدة. تدعى العروس الجديدة ناريمان صادق. كانت كستنائية الشعر، شركسية البشرة، آسرة الثغر، وكانت تبلغ السادسة من عمرها لما رآها فاروق لأوّل مرة. وهي ابنة حسين صادق، وكيل وزارة المواصلات.

كانت ناريمان مخطوبة حينئذ لشاب يدعى زكي هاشم، متخرّج من شعبة الاقتصاد من جامعة هارفرد. كان الزوج المثالي، لكنّ الفتاة المراهقة، إن صدقنا ما أسرّت به، ما كادت تبصر فاروق، حتّى رمت بزكي هاشم في غياهب النسيان.

أسرّت لمجلة «لايديز هوم» البريطانية: «وجدت نفسي أتجاذب أطراف الحديث مع الملك كما لو أنّني كنت أعرفه منذ مدّة طويلة. كان يتمتّع بقدرة خارقة على الإنصات، ويشعرك على نحو مدهش بأنّك شخص مهم. شجعني على التعبير، وجعلني أحسّ بأن كلّ ما كنت أقوله ينمّ عن ذكاء لامع».

وحسب ما أسرّت به كذلك، فأنّها افتتنت بهيئته، وبالزغب الذي يكسو ذراعيه ويديه، وبشعر رأسه الفاحم. كانت ناريمان تعتقد أنّ الزوج ينبغي أن يكون سيّداً، فكان من اللازم إذن أن تتناسب هيئته مع هذا الدور.

في نهاية المحادثة التي دارت بينهما، استُدعي فاروق إلى بيت الفتاة. وضُرب الموعد في اليوم الموالي. يمكن أن نتخيّل الفرحة التي غمرت أسرة صادق. هرعوا إلى محلّ «غروبي» لشراء كيلوات

من الحلويات، وزينوا الشقة بالأزهار، وأهدت الأم لابنتها ناريمان فستاناً بالمناسبة، بل سمحت لها بأن تضع قليلاً من أحمر الشفاه. كان من المقرّر أن يصل الملك على الساعة الثالثة بعد الزوال، لكنّه لم يظهر إلا في العاشرة ليلاً. وما كاد يجلس، حتّى قرّر أن يختبر معرفة عروسه بـ«أشغال البيت»، فبعثها إلى المطبخ لتعدّ له القهوة.

غادر بعد ثلاثين دقيقة، فخيّم الصمت، وهو صمت دام بضعة أسابيع، ذاقت خلالها الفتاة الأمرين. كان التفسير الوحيد لانصراف الملك عنها هو أنّها لم تعجبه. شعرت بالإحباط وأصابها الوهن، وراحت تمضي أيامها تتأمل بعشق المرمدة التي احتفظت فيها برماد سيجارة فاروق.

عاد جلالته إلى الظهور أخيراً، وهو ما كان مبعث ارتياح أسرة صادق. فكّر وقرّر أن تكون ناريمان ملكته. ورقّى أب العروس فوراً إلى رتبة بيه، وتقرّر إرسال ناريمان إلى روما لكي تتابع دراستها، وتنال حظاً من الثقافة الغربية التي كانت تعوزها.

أقامت بعد وصولها إلى روما في سفارة مصر بفيلا سافوي. صُرِّح من الناحية الرسمية بأنّها ابنة أخ السفير عزيز بدر. وكُلّفت الكونتيسة ليلي مارتيليني، وهي «امرأة من أكثر نساء أوروبا ثقافة»، بتعليمها الإتيكيت واللباقة. ووضعوا رهن إشارتها أستاذ رياضة بدنية من أصول روسية لكي يلقّنها الانضباط الذاتي واللياقة البدنية، ومغنية أوبرا محالة على المعاش لكي تعرّفها ببعض أسرار هذا الفن. وطلب فاروق أيضاً أن تتقن عروسه أربع لغات على الأقل: الإيطالية لتتذوق الموسيقى، والألمانية لتطّلع على الفلسفة، والإنجليزية للحلم والخيال، والفرنسية لتحدّثه عن الحبّ.

وعنّ له بعد استقرار عروسه أنّ زيارة أوروبا قد تعود عليه بنفع كبير. ولم تكن الوجهة غير دوفيل، دوفيل وملهاه المفضّل طبعاً.

وفي أواسط شهر يوليو/تموز من سنة ١٩٥٠ امتطى فاروق مركب فخر البحار، تحرسه سفينة حربية تابعة للبحرية المصريّة. وبعد وقفة قصيرة بمرسيليا، انطلق باتجاه النورماندي. وقد كان يرافقه أنطوان بوللي، وكذلك مستشاره الصحفي كريم ثابت، الذي كان قد عيّنه حديثاً. ثابت هذا الذي ذكر له صحفي خلال شهر يوليو/تموز ١٩٥٢ انتفاضة شعبية وشيكة، فردّ ضاحكاً: «تأكّد يا عزيزي بأنّنا نحن من نصنع الثورات لما نقدّر أنّها مفيدة! حتّى لو كلّفتنا مئة ألف جنيه ونيّف».

كان أبي ضمن موكب الملك، وهو ما أثار حنق والدتي. جاب موكب سيارات الكادياك والدراجات النارية طرقات فرنسا.

كانت ريتا هايوورث تعبر ردهة فندق الخليج (الغولف) ممسكة بذراع زوجها أغا خان، كما كانت ساشا غيتري، التي خضعت لعملية جراحية بسبب قرحة في المعدة، مسترخية في الشرفة. بالكاد لمحهم الملك. انطلق مسرعاً إلى موائد القمار، لكنّه لم ينس إخبار طباخ الفندق الفاخر بأطباقه المفضلة: سمك موسى والإسكالوب النورماندية، والفطر بالقشدة، وتوت العليق بقشدة الشانتلي.

لم يكن انحدار مصر إلى الهاوية فأل نحس عليه. كان الربح حليفه كلّ ليلة تقريباً، لكنه سرعان ما شعر بالملل، فقرّر التوجه إلى كازينو بياريتز، ومنه إلى سان سيباستيان، ثمّ مدينة كان والكارلتون حيث سيتخلّى عنه الحظ. خسر في بضع ليال مبلغاً ضخماً يقدّر، حسبما ذكر بعضهم، بمئتي ألف دولار. ولكن ماذا تمثل مئتا ألف دولار بالنسبة إلى رجل يملك ثروة بحوالي مئة وأربعين مليون دولار؟

انتهت الإقامة بالكوت دازور، وقرّر الرجوع إلى مصر. وفي طريق

العودة، رأى أبي أنطوان بوللي يمدّ له قصاصة ورق تضمّ حساب المبالغ التي صرفها في الرحلة.

قرأها فاروق، فصرخ بانزعاج:

- ما هذا؟ أهي مصاريف الفندق؟

- كلا يا صاحب الجلالة، إنّها النفقات التي لم تكن متوقّعة.

قطّب فاروق حاجبيه:

- لم أفهم قصدك!

تنحنح بوللي:

- لقد آليت على نفسي أداء ثمّن «التذكارات» التي رغبت جلالتكم...

وتردّد في النطق ببقيّة الجملة:

- ... في جلبها خلال إقامتكم بأوروبا...

فهتف الملك:

- الماغنوم؟! هل جننت؟!

ورمى بالورقة من النافذة.

بعد سنين طويلة من ذلك شرح لي أبي أنّ الملك الذي كان مهووساً بالسرقة، لم يكن يتردّد في اختلاس أبسط شيء يلفت انتباهه، حيثما كان، في فندق أو مطعم أو حتّى لو كان ضيفاً عند الناس. وقد كانت مسروقاته تمتدّ من منفضة سجائر عادية إلى كأس كريسطال، مروراً بلوازم المائدة والصحون وولاعات السجائر وأثواب الاستحمام ومصابيح السرير. لقد كان هذا الرجل، الذي بإمكانه أن يشتري كل ما يشتهي، يتهلّل فرحاً لفكرة الاختلاس.

لما كان يغادر مكانا من الأمكنة، كان يتباهى مبتهجاً كطفل صغير بغنائمه، مقتنعاً بأنّه هزأ بمضيفه. وهنا كان يتدخل بوللي بدقة متناهية، إذ كان يسجّل المسروقات في مذكرة، ثمّ يبالغ في الاعتذار لأصحابها، ويدفع لهم تعويضاً عنها. وقد كانت استقامته هي التي تدفعه إلى ضبط هذه المصاريف غير المتوقعة، لأنّ الملك لم يطالبه يوماً بذلك. والواقع أنّ هذا الكهربائي الإيطالي البسيط تعامل مع أبي، ولسنوات عديدة، في مختلف صفقات الإطعام، وأثبت في أكثر من مناسبة نزاهته. وهي نزاهة تكاد تكون مرَضِيَّة.

عاد فاروق إلى بلده في الخامس عشر من مارس/آذار ١٩٥١، وكانت ناريمان على أتمّ الاستعداد لتصير ملكته. وتقرّر أن يكون الزفاف في السادس من ماي/أيار. وبما أنّ أب العروس مات بسكتة قلبية ـ بسبب الانفعال بلا شكّ، إن لم يكن من الخوف ـ فقد وقّع على عقد الزواج عمّها علي صادق. وهكذا جُلب فستان الزواج من محلّ جيرمين لوكونت، أحد أرقى مصممي الأزياء في الخمسينيات، وكان محلّه يحتل ثلاثة طوابق من بناية توجد بالشارع الملكي، وطبّقت شهرته الآفاق مجاوزة المحيط الأطلسي. وإذا كان الملك لم يستبدل اسم ناريمان باسم يشرع بحرف الفاء كما جرت العادة، فمن الواضح أنّ التخلي عن هذا العرف لن يكون فأل خير على العرش.

وما كادت تمضي بضعة أيام على حفل الزفاف، حتّى سافرت الملكة الجديدة وملكها على متن فخر البحار إلى كابري. وقدّر بعض الملاحظين مصاريف الزوجين بحوالي ثمّانمئة ألف فرنك يومياً. وهذا ما جعل أحد أرباب الفنادق الإيطاليين يقول معلّقاً: «زبناء يصرفون هذه المبالغ الطائلة لا يمكن أن يعمّروا طويلا».

سيقرّر الملك في نهاية سبتمبر/أيلول، مدعوماً برئيس المجلس

النحاس باشا، فيما يشبه انتفاضة وطنية مفاجئة، وبأمل استرجاع شرعيته المفقودة، إدانة المعاهدة التي وقعتها مصر وإنجلترا سنة ١٩٣٦، والتي جعلت من القوات البريطانية المرابطة بمنطقة القناة «محتلاً» شرعياً. وقد اعتبر المصريون هذه المعاهدة التي أبرمت في السادس والعشرين من أغسطس إهانة لمصر. ذلك أنّ بنودها تعطي الحقّ لإنجلترا في الاحتفاظ على ضفتي القناة بفرقة عسكرية تقدّر بعشرة آلاف رجل وأربعمئة طيار من القوات الجوية الملكية، «طالما أن المصريين غير قادرين على الدفاع عن المنطقة».

وفي السادس من أكتوبر ١٩٥١، اعتلى النحاس باشا منبر البرلمان، واستعرض مختلف المراحل التي قادت إلى توقيع الاتفاقية. وبعد الفراغ من عرضه، صمت هنيهة تعبيراً عن جلال الموقف، وأعلن: «من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦، ومن أجل مصر أطالبكم بإلغائها». وختم على نحو قاطع، ضارباً بالبروتوكول عرض الحائط: والآن، انتهى كل ذلك، وعلى الإنجليز أن يغوروا في ستين داهية فوراً!

ودوّت التصفيقات في قاعة البرلمان، ورحّبت الجماهير بالمبادرة، لكنّها لن تبلغ غايتها. فبعد شهور من حوار الصمّ، راح يدافع فيها كل طرف عن مصالحه دون النجاح في إقناع غريمه، فبدأ التوتر يشتدّ. وتعالت مطالب الجماهير صاخبة بجلاء القوات الإنجليزية، لاسيما وأن إنجلترا لم تحترم بنود المعاهدة التي تحصر حضورها العسكري في عشرة آلاف رجل، في حين بلغ عددهم سنة ١٩٥١ ستين ألفاً.

واجه الإنجليز مظاهرات المصريين بفتورهم المعهود. لا مجال للتنازل مهما كان ضئيلاً. وقد انضافت لهذا التعنت فضيحة مالية

مرتبطة ببورصة القطن. ذلك أنّ مجموعة من المضاربين احتكرت معظم محاصيل القطن، وحقّقت أرباحاً طائلة.

كان المعلمون والأساتذة والأئمة في المدارس والجامعات والمساجد يدعون إلى الكفاح. وكان الشبّان المتحمّسون يستجيبون لهم بالخروج إلى الشوارع، ممّا كان يتسبب في أحداث دامية.

ووجّهت الحكومة المصريّة لرعاياها العاملين في المعسكرات البريطانية نداء لكي يخلوا أماكن عملهم، فواجه الإنجليز هذه الحركة المتأججة باستخفاف لا مثيل له.

اختار الضباط الأحرار هذه اللحظة لتحدّي الملك. فقد اعتادوا في هذا الوقت من كلّ سنة انتخاب رئيس ناديهم. وقد أبدى جمال وأصدقاؤه بوضوح مساندتهم لترشيح اللواء نجيب. أمّا الملك فكان يميل لترشيح اللواء سري عامر، وهو شخصية منبوذة من الجميع. وانتخب نجيب بأغلبية ساحقة: ٢٧٦ صوتاً مقابل ٥٨، مما أغاظ فاروق وأثار حفيظته، فألغى الانتخاب، وعيّن رسمياً سري عامر رئيساً للنادي. كان ذلك إعلان حرب صريحاً بالنسبة إلى ضباط الأحرار، وهي حرب ستنتهي نهاية مأسوية، إذ سيتعرض سري عامر لمحاولة اغتيال دبّرها عبد الناصر، كادت تودي بحياته. يقول عبد الناصر عن تفاصيل هذه العملية في «فلسفة الثورة»: «وانطلق نحوه الرصاص... وفجأة دوّت في سمعي أصوات صريخ و- عويل، ولوعة امرأة ورعب طفل... ولم أنم طوال الليل... بقيت مستلقياً على فراشي في الظلام... ووجدت نفسي أقول فجأة: - ليته لا يموت! وكان غريباً أن يطلع علي الفجر وأنا أتمنّى الحياة للواحد الذي تمنّيت له الموت في المساء! وهرعت في لهفة إلى إحدى صحف الصباح. . . وأسعدني أنّ الرجل الذي دبرت اغتياله قد كتبت له النجاة».

وفي مواجهة التهديدات المتصاعدة في الشارع، قرّرت إنجلترا أن تزيد من ضغطها، فرفعت أعداد جنودها من ستين إلى ثمانين ألف رجل.

ما العمل؟ إنه صراع غير متكافئ. وتعدّدت الوقائع وكثرت. أطلقت سيارات مصفحة النار ذات صباح على جماعة كانت تسير بالقرب من معسكر للجيش، فقتلت خمسة عشر شخصاً، وجرحت تسعة وعشرين. كان خطأ جسيماً، ذلك أنّ الجماعة التي أطلقوا عليها النار لم تكن غير جنازة متوجهة إلى المقبرة. وفي يوم آخر، كان رجال شرطة مصريون مارّين على متن شاحنة غير بعيد عن الجنود البريطانيين، وانحرفت المركبة قليلاً، فأطلق عليها الجنود النار عن قرب معتقدين أنّها تستهدفهم.

لم يكن فاروق المتحصّن بقصوره يرى شيئاً من كلّ ذلك، أو لعلّه كان يتعامى عنه. كان الطفل أحمد فؤاد الذي ولد يوم السادس عشر من يناير/كانون الثاني من سنة ١٩٥٢، شهراً قبل الأوان، يشغل عليه قلبه وفكره. هتف وهو ينادي ناريمان باسمها مرخماً: «هنيئا يا ناني، لقد أحسنت صنعاً!» ها قد وهبته وريث العرش الذي طال انتظاره! وريث يزن ثلاث كيلوات وربع، ما كاد يرى النور حتّى رشّ ببوله الملكي وجوه الأطباء.

شكّل هذا الميلاد مناسبة أنست الشعب مآسيه لبضعة أيّام. تجمّعت الحشود مبتهجة تحت نوافذ قصر عابدين، وراحت تهتف بحياة «أمير أعالي النيل». فهذا الوليد سيضمن استمرار هذه السلالة المالكة. رفرفت الأعلام عالياً، وأُغرقت شوارع القاهرة بالزهور. وصدحت الأغاني على امتداد وادي النيل. إنّه عهد جديد مفعم بالأمل! كان فاروق مفتتناً بمولوده، متفانياً في رعايته. وقد بلغ به

الأمر أن وضع فراشاً عند أسفل سرير ناريمان، وصار يبيت فيه حتّى يستمتع بكل لحظة قرب ولده فؤاد. لكن هذه السعادة لم تدم طويلاً للأسف.

ذلك أن الجنرال جورج إرسكين، الملقب بـ«جورج القوي»، قائد القوات البريطانية صرّح في أحد الحوارات التي أجريت معه بأنّ: «الصحافة المصريّة أعلنت بأنّ متطوعين شباب يستعدون لمغادرة القاهرة بمباركة من الحكومة فيما يظهر، لكي يهاجموا القوات التي تحت إمرتي بمنطقة القناة. إذا تأكدت هذه التقارير، ووقع الهجوم، سأكون مضطرًّا لسحق هؤلاء المتمرّدين بما توفر لدي من وسائل، وهي وسائل لم أستعملها حتّى الساعة. آمل أن يعرف المسئولون في هذا البلد، ولاسيما آباء هؤلاء الأولاد المشاغبين، كيف يكبحون حماسهم الإجرامي. من الأفضل لهؤلاء الشباب أن يحضّروا أنفسهم ليكونوا مواطنين نافعين لبلدهم مصر».

كان من الطبيعي أن تكون نتيجة تحذيره بعكس ما كان يأمل. ففي اليوم الموالي، هاجم كوماندو معسكر التل الكبير، وهو معسكر كان يحوي أكبر مخزن للمعدات والمؤن في الشرق الأوسط.

في فجر الخامس والعشرين من يناير/كانون الثاني، تحرّكت مدرعات إرسكين باتجاه مدينة الإسماعيلية، وحاصرت الثكنتين اللتين تأويان قوات البوليس المركزي (بلوك النظام). فقد قدّر إرسكين أنّ هذه الشرطة هي السبب المسئول الحقيقي عن تلك الاستفزازات بما أنّها لم تتحرّك لمنع الكومندو.

تناول النقيب رفعت، قائد قوات البلوك، السماعة مذعوراً وهاتف وزير الداخلية فؤاد سراج الدين. لم تكن الجماعة القليلة التي معه من أفراد الشرطة ضعيفة التجهيز فحسب، بل لم يكن لها التدريب اللازم لمواجهة صفوة جنود القوات البريطانية.

هل عليه أن يستسلم أم يصمد؟

كان جواب سراج الدين قاطعاً: «قاتل حتّى آخر رصاصة!» الاستسلام سيكون مخزياً للحكومة، وسيحقّرها في أعين الشعب، وسيضع حدًّا لما يسميه المصريون «حرب القناة».

خاطب إرسكين النقيب رفعت:

- استسلموا وسنحسن معاملتكم.

تقدم رفعت، الذي كان قبل ستة أشهر ما يزال يتدرب في سكوتلاند يارد، إلى مدخل الثكنة وأجاب:

- لقد نلت جزءاً من تربيتي بإنجلترا، وأنا أعتبر الإنجليز ذوي شهامة. لكنّكم أنتم الإنجليز الذين تحاربوننا هنا، لستم من الشهامة في شيء. لقد حشدتم الدبابات لمواجهة مصريين عزّلاً تقريباً.

ردّ جورج القوي:

- أتفهّم موقفكم الصعب، لكن قرارنا محسوم. سنمهلكم ربع ساعة لتفكّروا.

رفض رفعت المهلة، فأمر إرسكين بالهجوم. شرعت دبابات سانتوريون ترشق البناية بقنابلها الثقيلة، بينما يرد أفراد الشرطة ببنادق خفيفة. وحصلت المذبحة.

بعد ساعتين من القتال، جدّد إرسكين نداءه.

ظهر النقيب رفعت من البناية وقد لطخ الدم يديه وملابسه.

- أترون هذا الدم في يدي، إنه دم ضحاياك. أنتم لستم جنوداً، بل قتلة!

فردّ جورج القوي بجسارة:

- سنوفر لكم سيارات الإسعاف تنقلكم للمستشفى، وسنؤدي لكم التحيّة العسكرية لبسالتكم. نحن أناس نقدّر الشجاعة!

هزّ رفعت كتفيه وأطلق النار، ثمّ استأنف القتال:

- ستأتون بعد قليل لجمع أشلائنا!

وبدأ إطلاق النار من جديد.

عند الزوال، أطلقت المدافع الإنجليزية وابلاً من القنابل. وبعد ربع ساعة، لم يعد أمام رفعت إلا التلويح بالعلم الأبيض. وكانت النتيجة أربعة وستين قتيلاً وتسعة وسبعين جريحا في صفوف المصريين، وثلاثة قتلى وثلاثة عشر جريحاً في صفوف الإنجليز.

علّق إرسكين: «يا لها من حماقة!»

أثار خبر المذبحة في القاهرة مشاعر الغضب والسخط. وقرّر مجلس الوزراء الذي اجتمع ليلاً أن يقطع العلاقات الدبلوماسية مع إنجلترا، وأن يلجأ إلى مجلس الأمن. وأوقف ثمانون شخصية من الجالية البريطانية بالقاهرة. وقرّرت النقابات العمالية مقاطعة الشركات الإنجليزية. وفي نفس المساء، أضرب موظفو مطار القاهرة، ونفّذوا وقفة أمام مكاتب شركة بواك للطيران.

أمّا الإخوان المسلون، فدعوا من جانبهم إلى الجهاد. إنّنا في فجر يوم سيظلّ منقوشاً في ذاكرة المصريين إلى الأبد.

في اليوم الموالي، وصادف يوم السبت ٢٦ يناير/كانون الثاني، خرج آلاف المتظاهرين، ولحق بهم حشد من طلبة الأزهر. هتفوا مطالبين بالسلاح، ومعبّرين عن كرههم للمحتل. ورغم حضور رجال الشرطة، لم يتدخّلوا، وبذلك انطلقت دوامة رهيبة.

وجّهت الإذاعة نداء رنّاناً للجيش: «أيّها الجنود، إنّكم تمثلون مصر المناضلة، مصر التي لا تركع!»

وتحرّك حشد باتجاه قصر عابدين حيث كان فاروق يلزم الصمت منذ بداية الاضطرابات. ثمّ تغيّرت وجهته صوب أوبرا القاهرة. أمام ملهى بادية، وهو ملهى معروف بالرقص الشرقي، كان يجلس ضابط إلى طاولة يرتشف قهوته، غير عابئ بالجلبة المحيطة به. وبغتة هاجمه أعضاءُ من حركة اليمين المتطرّف، المسماة القمصان الخضر، وكذا بعض الإخوان المسلمين، صائحين به: «يا للعار! أتجلس هنا تشرب القهوة بينما يموت إخوانك في القناة؟» ردّ الشرطي بهزّ كتفيه. نفذ صبرهم، فاقتحموا المقهى وكدّسوا الكراسي والطاولات، ورشوا عليها البنزين، ثمّ أوقدوا فيها النار. وما هي إلا دقائق حتّى تعالت ألسنة اللهب في السماء.

بعد ذلك بنصف ساعة، شبّت النيران بسينما مترو ثمّ سينما ريفولي. وعند الزوال جاء دور تورف كلوب، حيث كان يجتمع أعضاء نافذون من الجالية البريطانية. نجح بعضهم في الفرار، لكن ثمّانية منهم ألقي بهم في النار. وعند الواحدة زوالاً، أضرمت النار في غروبي وفندق شيبهيردس الشهير، الذي يعدّ رمز الوجود الإنجليزي. وتحوّل شكوريل وآديس وبن زيون وشملا إلى رماد.

كانت القاهرة كلّها تحترق.

- ليسقط فاروق ولواءاته!

أين الجيش؟ ماذا يصنع الملك؟ كان جلالته يترأس مأدبة أقامها بمناسبة ميلاد ابنه. ومن عجائب الصدف أنّه استدعى لها كل ضباط الجيش والشرطة، حوالي ستمائة شخص.

كانت النيران تلتهم القاهرة ـ روما الشرق ـ من كلّ جانب، بينما كان الإمبراطور متحصّناً بقصره لاهياً عن كل ما يحدث. أهو غياب مقصود ومتعمّد؟ أم هو غياب تقصير؟ ما زال الدور الذي لعبه الملك في هذا اليوم المأسوي لغزاً.

(٩)

كان الليل ما يزال مخيّماً لما اندفعت ماما إلى غرفتي. لم أكن قد جاوزت الخامسة من عمري، ومع ذلك ما زلت أذكر كلّ شيء. ما تزال تفغم أنفي الرائحة النفاذة المنبعثة من وكيل إطارات السيارات ميشلان المحاذي للبناية التي كنّا نقطن بها. وما يزال يتراءى لي البيبندوم الثخين وهو ينهار وقد تحول لونه إلى سواد قاتم، وأخذ يذوب بفعل الحرارة.

- استيقظ بسرعة! هيّا! سنرحل...

تمتمت وأنا ما أزال نصف نائم:

- إلى أين؟ ولماذا؟

- لا تسأل، هيّا، أسرع، أسرع!

لمحت من خلال النافذة بريقاً متوهّجاً.

رفعني أبي وهو يقول:

- هيّا بسرعة، لا وقت لدينا!

وحملوني.

كان الصياح يتصاعد من الشارع ومن الفناء، حيث الماء ما زال يجري في النافورة غير عابئ بالجلبة. وكان البواب يجري في كلّ الاتجاهات مرعوباً.

جلس أبي إلى مقود سيارة الأوبل البيضاء، وانطلق بسرعة فائقة باتّجاه القاهرة الجديدة حيث كانت تسكن خالتي وزوجها الطبيب. عبرنا شارع عماد الدين حيث كانت تسمع ضجة تحطيم زجاج واجهات المحلات، وتعمّ مشاهد النهب.

ما زلت أسمع الصراخ، وكنت ألمح، وأنا ملتصق بوالدتي من خلال زجاج السيارة ومضات أرجوانية. لم أفهم شيئاً من تلك الضجّة الصاخبة، لكنّني أحسست بأنّ أمراً خطيراً يقع. حين بلغنا الميدان المحاذي لمحطة قطار باب الحديد، وجدنا حاجزاً بالشارع الرئيسي يقيمه أشخاص واجمون. اضطرّ أبي للتوقف، فأحاطت بنا وجوه كالحة، وسمعنا صوت ارتطام يصمّ الآذان، ذلك أنّ أحدهم ضرب بقبضته هيكل السيارة. تشبّثت بوالدتي وقد ركبني الفزع. ماذا يريد منّا هؤلاء الناس؟ ولماذا يوقفوننا؟

سمعت أبي يتحدّث إلى المتظاهرين، وأومأ إليّ. لعلّه كان يحاول إقناعهم. حدّق في زعيمهم، وكان وجهه مطليًّا بالسخام، والعرق يتصبّب من جبينه. لن أنسى أبداً سحنته. وصف أبي بالخواجة، وهي كلمة مزدوجة المعنى: فدلالتها المباشرة هي «سيدي»، لكنها تحمل أيضاً معنى قدحياً. فالخواجة شخص لا ينتمي إلى عامة الشعب، شخص بورجوازي أجنبي. أتُراه ينعت أبي بالأجنبي؟

من نحن، يا إلهي؟ أنحن مصريون؟ أم فرنسيون؟ إيطاليون؟ أم يونانيون؟ كلا، فالأمر أعقد من ذلك. نحن عرق هجين. نحن مسيحيون، مشارقة، يهود، يونانيون، إيطاليون، فرنسيون، عرب، أتراك. لقد عشنا على هذه الأرض منذ أجيال، وبذلك فنحن أبناء مصر، وجزء لا يتجزّأ منها.

كم من الوقت ظلّ المتظاهر يفكّر قبل أن يشير لأصحابه بأن

يتركونا نمضي؟ ألف ساعة بالنسبة إليّ، لكنّه في الواقع لم يمكث سوى ثوان. وانطلقنا من جديد، وبمقدار ما كنّا نبتعد من وسط المدينة، كانت الحركة تخفّ. ولمّا دخلنا أخيراً إلى مصر الجديدة، ساد الهدوء. كنّا هناك في أمان.

علمت لاحقاً، بعد مضي وقت طويل، أن ذلك اليوم سمّي بـ«السبت الأسود».

تعرّض وضع مصر الدولي لرجّة من الناحية السياسيّة والمعنوية، هذا في الوقت الذي كان فيه البلد بحاجة إلى تقدير الأمم الأخرى. وقد كانت الخسائر فادحة، قدّرت بخمسين مليون جنيه إسترليني. وفي اليوم الموالي، كان السؤال الذي يتردّد على كل لسان هو: «من المسئول؟»

ردّ وزير الداخلية آنذاك، فؤاد سراج الدين، في مقالة نشرتها جريدة «المصري» الوفدية في العاشر من فبراير ١٩٥٢ على من اتّهموه بأنّه هو من سمح بإحراق القاهرة عمداً، واستعرض فيها مجريات الأحداث لحظة بلحظة.

لمّا أخبره مدير الأمن على الساعة الثانية عشرة والنصف زوالاً بأولى الوقائع، أمره بإطلاق الرصاص على مشعلي الحرائق، لكنّ مخاطبه أجابه باستحالة ذلك، لأن رجال الشرطة يساندون المتظاهرين. تلفن سراج الدين إذن إلى حيدر باشا، القائد الأعلى للقوات المسلحة، وطلب منه تدخل الجيش، لكن حيدر رفض، مقدّراً أن التدخل غير مناسب، وأنه سيؤدي إلى مواجهة بين الشعب والجيش. وأضاف أن المجندين شباب تنقصهم الخبرة، وقد ينضمون لصفوف المتظاهرين. وختم القائد كلامه قائلاً: «على كل حال، الملك وحده من يستطيع أن يأمر بتدخل عسكري، سأقترح عليه ذلك، وسأردّ عليك».

لكنّ حيدر لم يردّ قط.

ولما سُدّت جميع الأبواب في وجه سراج الدين، لجأ إلى القصر. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف بعد الزوال. وأوحى الملك بأنّه يوافق على تدخّل القوات. وعند الثالثة والنصف، لم يكن قد ظهر للجيش أثر بعد. حلّت الساعة الرابعة النصف، ولا أثر. لم تشرع وحدات الجيش الأولى في الانتشار إلا حوالي الخامسة والنصف بحي العباسية، في شكل فرق صغيرة. اكتفت بالانتشار، لكنّها لم تتدخل.

ما تفسير هذا المماطلة؟ بالنسبة إلى سراج الدين، فهو مقتنع بأنّ المسألة كانت مدبّرة. والسؤال الذي يبقى معلّقاً هو: من استفاد من هذه الجريمة؟

وجدت مصر نفسها غداة يوم السادس والعشرين من يناير/كانون الثاني هذا، منشطرة إلى معسكرين: الخاسرون من جهة، والرابحون من جهة ثانية. بدا على الفور أنّ أوّل من فقد مصداقيته هم الوفديون، ثمّ بعدهم كلّ أعضاء الحكومة الذين برهنوا على عدم كفاءتهم. وفي الساعة الرابعة بعد الزوال من نفس اليوم، حاول رئيس الوزراء النحاس باشا، الذي علم من زميله وزير الداخلية بأنّ الأمر يتعلّق بعمل مدبّر، أن يقدّم استقالته للملك، لكنّ الملك رفضها، وذلك لسبب وجيه هو أنّه وجد من صالحه تحميل الحكومة نتائج الشغب، وتحميلها مسؤولية التدابير غير الشعبية التي ينبغي اتّخاذها: الأحكام العرفية وحظر التجوال. وبذلك لم يُعف النحاس من منصبه إلا يوم السابع والعشرين من نفس الشهر، بعدما عيّن الملك رئيس وزراء جديداً هو علي ماهر. وكان التعليل هو أنّ «جهد الوزارة التي ترأسونها قد قصر عن حفظ الأمن والنظام».

لم يكن بوسع الملك إلاّ أن يبتهج بهذا الوضع الجديد، أيّ

تنحية حزب وطني كان يهدّد عرشه، ويتأهّب لإجلاء حُماته الإنجليز. بل إنّ احتجاز فاروق قوات التدخل ذلك اليوم بقصره، جعل الشكوك تحوم حوله. اللهم إلا إذا كان ذلك دليلاً آخر، وهو أمر لا غرابة فيه، على غفلته المتأصلة. كيف لنا ألا نفترض تواطؤاً بين الملك ومصالح المخابرات البريطانية؟ ذلك أن الفوائد التي سيجنيها الإنجليز من هذه القلاقل لا يستهان بها: لا عودة للقطيعة مع لندن، ولا لجوء لمجلس الأمن. أما جلاء قواتهم من القناة، فسيطويه النسيان.

ويظلّ مع ذلك سؤال «من يتحمّل مسؤولية إحراق القاهرة؟» مطروحاً.

أوّل من يتبادر للذهن هم الإخوان المسلمون. ألا يكون استهدافهم لأماكن «الفسق» من حانات وملاهٍ شاهداً على تورّطهم؟ نشرت أسبوعية مقربة من منظمة الإخوان قبل ذلك بأسبوع ـ أهي صدفة؟ ـ مقالاً يدين بشدة وجود قاعات سينما تعرض «صوراً خليعة» بالقاهرة.

وفي نفس الوقت، أطرى مقال آخر على جماعة أحرقت قاعة سينما بطانطا. ويختم المقال بقوله إنّهم بإحراق هذه القاعة قد تخلصوا من إحدى المفاسد!

يأتي بعدهم الشيوعيون. انتشرت حينئذ إشاعة حول الدور الذي قد يكون لعبه دبلوماسي بولوني في تلك الأحداث، وكان قد اشتهر بأنه «خبير في الحركات الثورية». لكن من غير الواضح كيف تستطيع تمثيلية دبلوماسية تراقبها السلطات ليل نهار أن تمدّ حزباً محليًّا بالقنابل ووسائل إشعال الحرائق من دون اكتشاف أمرها. لكن تنبغي الإشارة مع ذلك إلى أنّ عبد الناصر في حوار له مع جريدة

«الأوبسرفر» في مارس/آذار ١٩٥٦، اتّهم الشيوعيين صراحة بأنّهم أثاروا القلاقل وأحرقوا مصر.

هناك أيضاً القمصان الخضر، المتأثّرون بالقومية الاشتراكية. كانت سمعة هذه الجماعة بغيضة بحيث فضّل مؤسسها أن يخفي سياستها الاستئصالية خلف تسمية مصر *الفتاة*، هذا في الوقت الذي كانت فيه جريدته *الاشتراكية* تروّج صراحة لنفس أفكار الرايخ الثالث، جاعلة من اليهود بالطبع هدفها الأوّل. كان شعارهم هو: «شعب واحد، حزب واحد وقائد واحد»، وهو شعار مستوحى حرفياً من شعار النازية: Ein Reich, ein Volk, ein Fuhrer.

صبّ هذا الزعيم التافه جامّ غضبه على سينما ريفولي التي تملكها شركة رانك الإنجليزية، علماً بأنّ هذه السينما كانت أوّل هدف قصده مضرمو النيران بعد نهب ملهى البادية. وبمجرّد ما يتساءل المرء عن المسئولين عن الحريق، حتّى يطالعه اسم المحرض النازي. ومما يثير الاستغراب هو عدم القبض عليه إلا بعد ثلاثة أشهر، وأنّ محاكمته أمام محكمة عسكرية توقّفت بسبب انقلاب الثالث والعشرين من يوليو/تموز.

وفي الختام، كيف يمكن أن نغفل عامة الشعب؟ فهم إن لم يكونوا دبّروا حريق العاصمة، فقد شاركوا فيه بحماس كبير. كانوا ساخطين ومتعبين ومحرومين، فكان طبيعيًّا من ثمّة أن يغتنموا الفرصة لتفريغ حقدهم المكبوت.

بعد سنوات من ذلك قدم حسنين هيكل (وكان حينئذ رئيس تحرير جريدة الأهرام، والموجه الخفي لعبد الناصر، والناطق باسمه غير الرسمي) تأويلاً لما حدث ذلك اليوم يؤكد هذه الرؤية. فهو يذهب إلى أنّ بعضهم قد يكونون أضرموا النار في القاهرة عمداً وبنيّة سيّئة.

لكن ما إن قدحت الشرارة الأولى حتّى سارعت الحشود إلى التعبير عن تذمرها بتأجيج النيران، وبالسرقة والنهب. وهو يرى أنّ حريق القاهرة لم يكن مجرّد حادث جنائي، بل هو ثورة أولئك الذين لم يكونوا يملكون شيئاً على من كانوا يملكون الحقّ في الحياة. ومن ثمّة لا غرابة إذا انصبّ غضب الجماهير على قاعات السينما والفنادق الفاخرة ومحلات وسط المدينة الأنيقة. إنّه شكل من تعبير الحشود عن حرمانها بالغضب.

وتنبغي الإشارة إلى أن هيكل، الذي كان مستشار عبد الناصر، ثمّ السادات من بعده، يعد من أبرز الشهود على هذه المرحلة من تاريخ مصر الحديث، وأكثرهم إثارة للجدل. فقد ولد في الثالث والعشرين من سبتمبر/ أيلول من سنة ١٩٢٣ ودرس التجارة بجامعة القاهرة الأمريكيّة، ثمّ بدأ مشواره كصحفي سنة ١٩٤٢ بجريدة إجيبسيان غازيت الإنجليزية، وقد تركها سنة ١٩٤٤ ليلتحق بصحيفة *آخر ساعة*، لسان الحزب الوطني. بعد سنتين، سينتقل إلى *أخبار اليوم*، حيث مكث إلى سنة ١٩٥٧. وبمجرّد ما وصل عبد الناصر إلى الحكم، لم يتردّد في مساندة الثورة وزعيمها.

خلال اليومين الذين أعقبا الحريق، منعت الرقابة الصحف من التعليق على المأساة. وما كادت الرقابة ترفع حتّى كتب أحد الكتاب: «على المسئولين أن يعترفوا علانية بأنّ يوم السبت ٢٦ يناير كان يوماً مخزياً، يوماً سيظل وصمة عار في جبين مصر، وصفحة سوداء في تاريخ النهضة المصريّة وكفاح البلد».

شهد هذا اليوم بالفعل تشكّل حكومة الشارع إلى جانب الحكومة الرسمية، وهي حكومة مؤلفة من عناصر استبدّ بها الحقد والسخط.

والواقع أن كثيراً من الأشخاص والمنظمات كانت تنتظر ليلة

السادس والعشرين من يناير/كانون الثاني ١٩٥٢ أن يُقدم أحد المهووسين على إضرام النار في فتيل برميل البارود. أهو الملك إذن؟ أم المحتل البريطاني؟ الإخوان المسلمون أم الدعاة إلى الحرية؟ الشيوعيون أم القمصان الخضر؟ كانت لهم جميعاً مصلحة في احتراق مصر. وكلهم جنوا منفعة من ذلك.

السابع والعشرون من يناير/كانون الثاني سنة ١٩٥٢، في إحدى الشقق بمكان ما بالقاهرة.

مرّت لحظات على وصول عبد الناصر إلى بيت صديقه أبو الفتح، رئيس تحرير صحيفة *المصري*. لم يكن جمال ضيفه الوحيد، بل كان حاضراً أيضاً القائد ثروت عكاشة، صهر أبي الفتح.

تفاجأ أبو الفتح بحضور عبد الناصر، ذلك أنهما تعارفا منذ خمس سنوات، لكنهما لم يلتقيا أبداً خارج مكاتب التحرير.

أعلن عبد الناصر:

ـ لقد أعددنا خطة للاستيلاء على القاهرة. إنها جاهزة.

ذهل أبو الفتح. فهو لم يتصوّر أبداً أنّ حركة الضباط الأحرار تسعى للإطاحة بفاروق وقلب النظام، رغم علمه ـ من صهره ـ بأنّها تعزّزت بشكل ملحوظ خلال الشهور الماضية بانضمام جنود شباب إليها، ينتمون لمختلف أجنحة الجيش.

استرسل عبد الناصر يقول:

ـ لقد فُرض ـ كما تعلمان ـ حظر التجوال بالقاهرة منذ مساء أمس، من السابعة مساء إلى الفجر، والجيش هو من يسهر على تنفيذه. فنحن لا نستطيع احتلال مختلف النقاط الإستراتيجية بالعاصمة فحسب، بل نستطيع أيضاً اعتقال رئيس مجلس والوزراء وفاروق نفسه.

والتقط عبد الناصر أنفاسه قبل أن يواصل:

- لقد جئت لزيارتكما لأعرف رأيكما في التداعيات السياسيّة لهذه العملية. أقول لكما مسبقاً: إن لم يكن رأيكما إيجابياً، سنتخلّى عن المشروع، ونرجئه إلى وقت لاحق.

فكّر أبو الفتح للحظة، ثمّ قال:

- قد أخيّب ظنك إن قلت لك إنّني أخشى أن نفقد السيطرة على الوضع إن حدث الانقلاب الآن، فتغتنم القوات البريطانية الفرصة لتحتلّ العاصمة. قد يحاول الجيش منعهم من ذلك، لكن لا حظّ له في النجاح بالنظر إلى موازين القوى. فماذا ستكون العواقب؟ سيفشل الانقلاب، وسيُنكّل بجنودنا، وسيعود الإنجليز للقاهرة، وعندها لن يكون علينا إجلاء المحتل من القناة، بل ومن العاصمة أيضاً. لهذا أعتقد أن الوقت ليس مناسباً.

حرّك عبد الناصر رأسه والتفت إلى ثروت عكاشة:

- ما رأيك؟

- أظن أنّه محقّ فيما يقول.

خيّم الصمت، ثمّ قال عبد الناصر بهدوء مدهش:

- حسناً، في هذه الحالة نؤجّل مشروعنا إلى وقت لاحق.

نهض عبد الناصر، وقد بدا عليه الوجوم، وأومأ لمرافقه بأن يتبعه، ورافقهما أبو الفتح إلى باب الشقة.

كانت رائحة الحريق في الخارج ما تزال تزكم الأنوف.

في مارس/آذار ١٩٥٢، كنت أتألم، أتألم من أجل أرضي.

توقف عازف الأرغن اليدوي العجوز تحت شرفتنا، ومضى يعزف

أنغاماً شجيّة. عزف بالأمس أنغاماً راقصة. كان يتبعه بائع فواكه متجوّل وهو يجرّ عربته.

ما اسم هذا اليوم؟ يا إلهي، غداً *شمّ النسيم! وهو حفل يعود لآلاف السنين، لعهد الفراعنة. هو أيضاً أربعاء الفصح بالنسبة للأقباط...*

قليل من الناس يعلمون أنّ المسيحية كانت هي الديانة السائدة بمصر قبل مجيء الإسلام، وأنّ هذا البلد كان من البلدان الأولى التي اعتنقت هذه العقيدة الجديدة. ويذكر الأقباط بفخر واعتزاز، وهم محقّون في ذلك، بأنهم أحفاد الفراعنة. وكلمة قبط كلمة يونانية تعني «سكان مصر»، وهي ذاتها مشتقة من اسم معبد منفيس المشيّد لتمجيد الإله بتاح، وهذا الاسم هو «هت كابتاح»، ومعناه: بيت روح الإله بتاح. هكذا أطلق الفاتحون العرب سنة ٦٤٢م هذا الاسم على كل سكان وادي النيل، الذين كانوا كلّهم نصارى. وهم اليوم يشكلون أقليّة دينية (تقدّر بحوالي ثمّانية ملايين مسيحي قبطي) يترأسها بابا مستقلّ عن روما (شنودة الثالث)؛ ولا أحد يأبه بمعاناتهم.

حرموا من لغتهم الأم شيئاً فشيئاً بسبب تعريب البلد، وفرضت عليهم ضريبة خاصة تسمّى الجزية، كما كان الشأن بالنسبة ليهود شبه الجزيرة الأيبيرية. جردوا كذلك من حق حمل السلاح وركوب الخيل. ولعلّ قمة العبث هي منعهم من تدريس العربيّة، «لغة الإسلام المقدسة». وقد تحسّنت حالهم قليلاً في منتصف القرن التاسع عشر، في عهد محمد علي، إذ فتح لهم أبواب الثكنات، وألغى ضريبة الجزية المهينة، وشغّل عدداً منهم في حكومته، لكنّ فترة الاستراحة هذه لم تدم طويلاً. فهم اليوم يعيشون محاصرين ومعرضين للاعتداءات والاغتيالات والتحرشات، في غفلة تامة من العالم.

استيقظت عند مطلع الفجر. كان من المستحيل أن أنام إلى ساعة متأخّرة، إذ كان يصلني من الشارع صوت مدوّ صادر عن المفرقعات التي كان يلقيها الصبيان. لم تكن تلك المفرقعات من النوع المعتاد، بل كانت عبارة عن كريات من الورق بقطر خمسة عشر مليمتراً تقريباً، محشوّة بالبارود، وملفوفة في ورق بنّي، ومشدودة بسلك حديدي متشابك. لم يكن لها فتيل، وكنّا نسميها بمباهاة «قنابل». كان يكفي إلقاؤها على سطح صلب لكي تنفجر، مصدرة ما يشبه النجوم.

كنّا نجوب الطرق إلى البوادي بالسيارات مع الأخوال والخالات والأعمام والعمّات، وأبنائهم وبناتهم، وهي أرياف تختلف اختلافا كلياً عن ريف كينت أو سوسيكس.

لن يسقط المطر على كوخ السيد سميث في قلب غلوسيستيرشاير، ولن تروا هنا نسوة ببشرة شفافة وهيئة متصلبة، متدثرات بمعاطفهن الفاخرة. النساء هنا لا يحملن كلاباً كبيرة ولا صغيرة. ولن تصادف رجالاً يرتدون سراويل القطيفة وبذلات تويدية. كلا، هنا تتجوّل الجواميس الموحلة المكسوّة بالذباب، تدور لكي تحرّك النواعير. للنساء هنا بشرة قاتمة، ووجوه ملثّمة. تتقدّمن في الفجر بثيابهن السوداء وعيونهن الكحيلة، وتضفي الجرّة الموضوعة بتوازن فوق رؤوسهن على مشيتهن جلالاً ملكياً. أما الرجال، فذوو بشرة لوحتها الشمس، تفوح من جلابيبهم رائحة النحاس والطين. والأطفال لا يلعبون الهوكي، بل يلعبون بالمعلبات والأوراق الراحية. أما الأكواخ هنا فبيوت من طين.

توقفت سيارة الأوبل القديمة بجانب الطريق. فرشنا مفرش المائدة على العشب مباشرة، ووضعنا عليه الخبز المدور الساخن والبصل

الأخضر والبيض المسلوق الملوّن، رمز التجدّد، والفول المسحوق والزيت، ولاسيما الفسيخ (السمك المملّح).

تحلّقنا حول الطعام، وهبّ علينا نسيم عليل. كان الهواء صافياً كالبلور.

لا شيء ينقصنا. وشملتنا سعادة عنيدة كالأهرام، مبهمة كأبي الهول.

(١٠)

يونيو/حزيران ١٩٥٢.

مرّت خمسة أشهر على حريق القاهرة.

قدّم علي ماهر استقالته، ورفض تشكيل حكومة جديدة رغم إلحاح الملك، فعوّضه أحد المنشقّين عن الوفد، وهو نجيب هلالي باشا. وشكل فريقاً لم يكن يربط بين أعضائه إلا خيط رفيع.

أنشأ فاروق، كما لو كان مدفوعاً بغريزة حبّ البقاء، «مربعاً أخيراً» مؤلّفاً من شخصيات غير متجانسة وعديمة التأثير، من بينها صحفي سابق يدعى كريم ثابت، خلع عليه لقب «مستشار صحفي»، بينما كان في الواقع «وسيطاً» يستعين به لعقد الصفقات السياسيّة، والمتاجرة في الرتب والنياشين. ولم تعد الإرادة الملكية تعبّر عن نفسها في الغالب بالقنوات الرسمية، بل صارت تعتمد على جماعة صغيرة من الخدّام أطلق عليهم «مجلس وزراء المطبخ». هناك أيضاً شمارجي الملك محمّد حسن، وساقيه عبد العزيز، وسائقه ومصلح سياراته الذي عيّنه «مدير المركبات الملكية»، وأدمون جهلان، الشخص المشتبه فيه الذي ذكرناه عند حديثنا عن الأسلحة الفاسدة سنة ١٩٤٨، والذي كان يصرف مبالغ باهظة لإرشاء زمرة من الانتهازيين. هناك أيضاً إلياس أندراوس الذي أصبح بين عشيّة وضحاها رجل ثقة فاروق، لمجرّد أنّه قبل أن يخسر في القمار مبالغ مهمّة. وقد كان يخدم الملك ويسلّيه. ومن هؤلاء الشخصيات طبيب

الملك الشخصي، الدكتور يوسف رشاد (الذي انتزع منه السادات معلومات ثمينة)، إضافة طبعاً إلى أنطوان بوللي الذي كان يدرك ويلمس بأنّ القصر لم يعد قصراً بل سفينة آيلة للغرق. وقد أسرّ لي بأنّه حاول مراراً أن يدقّ ناقوس الخطر، لكن بلا جدوى. كان الملك يردّ على تحذيراته المتكرّرة بقوله: «تقول كلاماً لا معنى له! الجيش يساندني، والشعب يحبّني!»

حاول أبي أيضاً، في النصف الثاني من يونيو/حزيران، أن ينبّه الملك. كانت ألسنة رواد النادي الذي يديره تنطلق بعد أن تلعب الخمرة بالرؤوس، وكان يكفيه أن يرهف السمع. لم يعد الأمر يتعلّق بإشاعات: فكلمة «انقلاب» تتردّد بين طاولات القمار، لكنّ الملك كان يصرّ على أن يصمّ أذنيه.

وسرعان ما تبيّن أنّ حكومة الهلالي عاجزة عن القضاء على الفوضى المنتشرة في البلد، فقدّم استقالته ليلة الثاني والعشرين من يونيو/حزيران، وبذلك سقطت الحكومة الثالثة في غضون ستّة أشهر.

ووجدت مصر نفسها من جديد متروكة لقدرها.

هكذا قرّر الملك أن يعيّن شخصية مستقلّة لترأس المجلس: حسين سري باشا. وطلب منه فور تعيينه أن يحلّ نادي الضباط، وأن يعتقل العسكريين (ولم يكن يعرف هويّاتهم حتّى ذلك الحين) الذين يتآمرون عليه، وهو قرار يوحي بأنّ فاروق شعر بأن بقاءه لم يعد إلا مسألة أيّام.

استدعى حسين سري حالاً قائد الجيش، اللواء حيدر باشا، واستفسره عن الأمر، لكن حيدر نفى علمه بأيّ مؤامرة، وقال إنّه كلّف أحد معاونيه، وهو الرائد سالم، بالتجسس على الأشخاص المشتبه بهم. وقد كانت خلاصة التقرير الذي توصل به واضحة: لا يتعلّق الأمر بثوار بل بوطنيين.

هزّ حسين سري رأسه مرتاباً، وألحّ عليه بحلّ نادي الضباط ومواصلة التحقيقات. كان عليه أن ينزع فتيل القنبلة الموقوتة، سواء أكانت مؤامرة أم غيرها. لقد كان مقتنعاً بأنّ السبيل الوحيد لتهدئة النفوس وكسب ولاء الضباط هو تعيين اللواء نجيب وزيراً للحربية.

عبّر عن أمنيته لفاروق في التاسع عشر من يوليو/تموز ١٩٥٢، وحذّره من خطورة الوضع. فالجيش متذمّر من حلّ نادي الضباط، ومنظمة الضباط الأحرار السريّة التي لنجيب صلات بها (والهلالي مقتنع بذلك) ويُجهل أعضاؤها تتآمر على النظام. لذلك يلزم إسناد وزارة الحربية لنجيب، حتّى يعيد تنظيم الجيش، وإلا ينبغي توقيفه مع أصحابه لدرء الفتنة.

ردّ الملك بعبارة موجزة نقلها الشمرجي: «تعيين نجيب مرفوض. عين اللواء سري عامر وزيراً للحربيّة». سري عامر؟ عدو الضباط الأحرار اللدود؟ سيكون ذلك استفزازاً! وسيعجّل بالسقوط!

استقال حسين سري، فخلفه فوراً... سلفه الهلالي باشا. كان الأمر أشبه بلعبة الكراسي الموسيقية التي يلعبها الأطفال. لمّا شعر الملك بأنّه محاصر فكّر في اللجوء لشخص أقاله قبل بضعة أسابيع. كان يعلم بأنّه لن يعود إلا لكي ينفّذ برنامجه، ويعترض على تعيين سري عامر.

فلا غرابة إذن في أن يبادر الهلالي بمجرّد تعيينه إلى المرافعة من أجل تعيين اللواء نجيب، لكنّ الملك ثبت على عناده. «لن أقبل بذلك أبداً! سأعيّن في هذا المنصب سري ولا أحد غيره!»

في يوم العشرين من يوليو/تموز، تناهى خبر احتمال تعيين سري إلى مسامع أحمد أبو الفتح. رفع سماعة هاتفه توًّا، وطلب صهره ثروت عكاشة.

ـ حذار! ثمّة بوادر أزمة بين الملك ورئيس المجلس! يعتزم الملك تعيين حسين سرّي عامر وزيراً للحربية، بوصفه الوحيد القادر على السيطرة على الوضع في نظره. أفهمت ما أعني يا ثروت؟ الملك يريد سري عامر.

وضع ثروت السماعة. الخبر في غاية الخطورة. هناك رجل واحد، ولا أحد غيره، يستطيع أن يكسّر حركة الضباط الأحرار هو سري عامر. وأخطر عكاشة عبد الناصر بالأمر فوراً.

عمّ الارتباك. التقى قادة الضباط الأحرار بعد ساعة من ذلك بفيلا اللواء نجيب، الواقعة بحي القبة غير بعيد من ملهى حلمية بالاص. كان قرب هذا المكان العام يسمح للمتآمرين بإخفاء سياراتهم بين سيارات الزبائن من دون أن يلفتوا نظر البوليس.

لم ينفضّ الاجتماع حتّى كانوا قد حسموا أمرهم: الانقلاب الذي كان مقرّراً يوم عشرين أغسطس، سيقدّم بسبب الظروف المواتية. الحكومة لا وجود لها. معظم الساسة والدبلوماسيين الأجانب يقضون عطلتهم بأوروبا أو في منتجع الإسكندرية. ينبغي مباغتة الملك. سيرجعون إلى نجيب لمّا يفرغون من تسوية كلّ الأمور.

الثانية عشرة ليلاً من يوم ٢٠ يوليو/تموز ١٩٥٢.

اجتمع القادة العشرة بمنزل ثروت عكاشة.

تقرّر أوّلاً وقبل كل شيء إخبار الأعضاء الغائبين عن القاهرة، ومن بينهم أنور السادات الذي كان مقيماً بقاعدة العريش الجوية في قلب سيناء. ثمّ عرض عبد الناصر خطّته: تتجمّع مختلف وحدات الجيش على الساعة الثانية عشرة ليلاً بميدان الفرسان. فإذا ما تجمّعت الوحدات، سيطرت المدرعات على النقط المحورية

بالعاصمة، بينما تستولي وحدات أخرى على مركز قيادة الجيش بحي العباسية. ولتفادي تسرّب الخبر، نصح المشاركين بعدم إخبار زملائهم أو الاجتماع بهم إلا عند العاشرة ليلاً. كما أمرهم بألا ينقلوا لهم التعليمات إلا ساعة قبل بدء العملية.

يوم ٢١ يونيو/تموز بقصر المنتزه في الإسكندرية. فاروق ممدّد على شاطئ إقامته الصيفية يجول ببصره بين البحر الهادئ وضباب الحرارة المتراقص فوق مدينة الإسكندرية...

أتقدّم على طريق الكورنيش وقد غشيه ضباب من الغبار والرذاذ. أين اختفت المدينة؟ أدفع باب البرازيليان كوفي الواقع بـ٢٠، شارع صلاح سالم. إنّه لأمر غريب، أهو الزمن تجمّد؟ نفس أوراق شجرة البن المنقوشة على الجدران، نفس الكونتوار، نفس المراوح.

كلا، لم يتوقّف الزمن. إنّها مجرد تهيّؤات. كلّ هذه المخلوقات تبدو لي غريبة، لم تعد لهجتها مزيجاً من اللغات. غادرت المكان وعيناي تدمعان. على بعد خطوات من هناك، يوجد باعة متجوّلون يعرضون ولاعات صينية تصدر الأنغام الأولى من *رسالة إلى إليز*. باعة آخرون يطاردونني لأشتري منهم أقلاماً أو ساعات مزوّرة.

«الفقر يقصي، والثروة تعزل». من أين تبادرت هذه الجملة إلى ذهني؟ زال البشوات، لكن الثروة انتقلت من يد إلى يد. تعبر سيارات فارهة الكورنيش تحت أنظار الأطفال المرعوبين. أطلق الشعب على هذه المركبات الباذخة ألقاباً خاصة بكلّ نوع. أطلقوا على أروعها لقب «البودرة»، وهو لقب «فصيح»، يلمّح بالطبع إلى المخدرات. ففي نظر هؤلاء البؤساء، لن يستطيع شراء سيارة باهظة الثمّن كتلك إلا متورط في تجارة مشبوهة.

الأمريكان واليهود واللبنانيون والمالطيون والفرنسيون والإيطاليون

والإنجليز والمصريون، كل هذه الدماء الممتزجة اختزلت اليوم في فصيلة دموية واحدة.

كل شيء يحتضر تحت الغبار وتحت الفنار الذي نصب قديماً فوق جزيرة فاروس. صارت اليوم مدينة قاتمة، كصورة فوتغرافية باهتة. صارت كحديقة ذابلة. علا الصدأ المباني العثمّانية العتيقة، والترام ما زال يجوب المدينة، لكن عرباته تبدو كما لو تفكّكت. أما الحناطير، فأخلت ساحة محمد علي. وعلى الرملة، يتفتّت شاطئ سبورتينغ ويتلاشى في الحصى، في حين انقضّ فندق كارلتون بستاند بأي من أساسه. وامّحت معالم الساحة التي يطلق عليها اسم ساحة القناصل، ولم تعد الفرق تمثّل على خشبة مسرح زيزينيا.

تلوح على نحو غير واضح من خلال الظلال الشاردة خلف جدران مأوى مدرسة مير دي ديو المتعبة، شوارع القصر الثلاثة. كانت اللغة الفرنسية ها هنا سلطانة، حتّى وإن كانت تمتزج بعبارات فريدة مستوحاة من الرغبة اللاشعورية في تلقيح الفرنسية بكلمات عربيّة. هكذا، كان بإمكان المرء أن يسمع جُملاً غريبة من قبيل: «d'où par où?»، والتي تعني: كيف تعرف هذا الشخص؟ أو: «C'est un fiche-nez» لنعت شخص يحشر أنفه في كل شيء. أما كلمة bacaborte فتطلق على فتحة مجاري المياه، وهي كلمة دخيلة من الإيطالية: .bocca operta ولوصف شيء بالعتاقة، يُنعت بكلمة: .antika

لم تكن هذه الابتكارات الأسلوبية شائعة إلا بين صفوف البرجوازية، وكان الأمراء أنفسهم يساهمون فيها. فقد هتف الخديوي إسماعيل يوماً وهو يتحدّث عن أحد المزوّدين المخادعين: «C'est une crépule!» فردّ عليه أحد أفراد حاشيته: «أنت على حقّ يا

مولاي، فكلمة «crapule» [وغد] لا تفي بالغرض لنعت شخص من هذه الطينة!»

وقد عُوّضت ألفاظ بألفاظ أخرى لأسباب عجيبة يحتاج تفسيرها لتدخّل باحثين في السيميائيات. هكذا، فعوض أن يطلبوا من النادل في المقهى «une paille» [ماصّة]، يقولون له: «منفاخ» [chalumeau]؛ وعوض أن يقولوا «chasse d'eau» [طرّادة مياه]، يقولون «سيفون». وتطلق عبارة «حلاوة آوي» على شخص في منتهى اللطف. وكانت عبارة «الساعة الثانية ونصف وخمسة» مفضلة على الثانية وخمس وثلاثين دقيقة. ويشرب الناس «غازوزة» عوض «صودا»، ويقال: نشتري «طورطة» وليس حلوى عيد الميلاد. وكان التجار أيضاً يبذلون ما في وسعهم للتحدث بالفرنسية. هكذا كان بإمكان المرء أن يقرأ على محلّ للصباغة إعلانات تمزج بين الفرنسية والإنجليزية واللهجة المصريّة، وتُرسم فيها الكلمات حسب النطق المحلي، من دون مراعاة قواعد الإملاء، لكنها تبقى مع ذلك فرنسية. وما العيب في أن يعطي البلد الأولوية للغته؟ الواقع أنّ هذا ليس هو مبعث الأسى، بل مبعثه هو استئصال لغة موليير. صحيح أنّ موليير كان يجاور دانتي أو هوميروس، لكنّه كان يحتلّ وضعاً متميّزاً.

أما اليوم، فيرفرف علم الأمم المتّحدة فوق مقرّات البعثات الثقافية إلى جانب علم العم سام، وسي إن إن التهمت سغناريل، في حين ابتلعت البي بي سي بريطانيكوس. اضمحلّت اللغة الفرنسية على غرار اضمحلال الإسكندرية، ولم يعد يلهج بها إلا بعض الناجين من الزمن الغابر.

وفي مكان ما تتعالى أصوات محاكية كما لو أنّها استُلّت من همسات نسيم البحر الأبيض المتوسط، يردّدها باعة الكعك اليوناني

الشهي: كيرياك، كونكانتي بيستاشي! بينما مضى آخرون يستعرضون المثلجات الإيطالية «إيلاستيك» وصودا «سباتيس». ويمتزج بكلّ هذا جرس صوت بائع عصير عرق السوس، الشبيه بصوت الصنجة، وهو يسير على مهل حاملاً دمجانة زجاجية يشدّها إلى صدره بحزام جلدي.

انتهى كل ذلك... وحلّ الصمت.

تمرّ عربة صغيرة مصدرة صريراً وقد انثنت تحت ثقل حملها من حُزم قصب السكر. قادتني قدماي إلى العمارة رقم ٤ من شارع شرم الشيخ، وقد عُلّقت على بابها لوحة كتب عليها: To spiti to Cavafi. Cavafi's house. 2nt floor.

كفافي هذا هو من كان يُلقّب بـ«شاعر المدينة». ولد سنة ١٨٦٣، وتوفي سنة ١٩٣٣. لم يبع يوماً قصيدة. كان يكتفي بتوزيعها في المقاهي.

أدخل...

كانت الغرفة فقيرة رخيصة،

منزوية في الخفاء فوق الحانة المشبوهة

بإمكانك، من النافذة، أن ترى الحارة الضيقة القذرة

وتسمع أصوات العمال وهم يشربون بسعادة

ويلعبون الورق في الطابق الأرضي

هناك، على السرير العادي الرخيص

امتلكتُ جسد الحبيب،

وتلك الشفاه الشهوانية الحمراء.

والآن، وأنا أكتب بعد كلّ هذه السنين،

وحيداً في بيتي هذا، أشعر أنّني ثمل
بنبيذِ الرغبة مرة أخرى.

لوحات مرسومة بالقلم الفحمي تزين الجدران، أما الأثاث فمكتب من الخشب المخرّم وكراس وحاجز من المشربية وشمعدانان ومصباحان نفطيان، وسرير حديدي، وملصق كتب عليه: معهد أثينا الفرنسي واتحاد يونانيي مصر يقدمان لكم: تكريم ستراتيس تسيركا. ولد بالإسكندرية وتوفي سنة ١٩٨٠، مخلّفاً رواية بالغة الأهميّة: مدن جانحة، وبحث حول صديقه كفافي.

غادر كفافي... وغادر تسيركا... وغداً سأعود.

مشيت على طول الكورنيش، وأثقلت السماء الزرقاء خطواتي وذكرياتي. هناك يلوح الميناء حيث يظهر مركب أبيض راسياً وهو ينتظر. إنه المركب البخاري إسبيريا التابع لشركة الملاحة الإيطالية لويد تريستينو. على متن هذا السفينة سأسافر ـ كما سافرت على عدد كبير من السفن الأخرى ـ ذات صباح شاحب من صباحات نوفمبر/ تشرين الثاني من سنة ١٩٦٥.

ما يزال فاروق ممدّداً على شاطئ إقامته الصيفية.

لقد أذعن لكل ما طلبه وزيره الأوّل الجديد هلالي، لكنّه ينوي، في آخر اختلاجة كبرياء، أن يفرض عليه تعيين صهره العقيد إسماعيل شيرين، زوج أخته فوزية، وزيراً للحربية. لم يكن هذا الرجل يعوزه الاحترام داخل الجيش. وفكّر الملك بأنّ تلك ستكون تسوية مثالية رغم علمه بأنّ الهلالي سيعترض على هذا الاختيار، لأنّ اختياره كان قد وقع على شخص آخر هو مرتضى المراغي، الذي كان يشغل حينئذ منصب وزير الداخلية، وكان يؤيد إعادة بناء الجيش، هذا فضلاً على أنّه كان قريباً من اللواء نجيب.

ألقى فاروق نظرة على الساعة: لم تكن تفصله عن الثانية عشرة زوالا إلا لحظات. غداً سيلحق به الهلالي لكي يقدّم له أعضاء حكومته الجديدة. ما زال أمامه وقت للتفكير.

تمطّى وأغلق عينيه وراح يستمتع بصمت هذا المكان الساحر.

هذا القصر الذي شيّده عباس حلمي، آخر خديوي، على مكان مرتفع ومسطّح يشرف على البحر، ومحاط بحدائق رائعة، هو ثمرة خليط عمراني باهر بين الطراز التركي والطراز الفلورنسي. يلقي الصنوبر الإيطالي بظلاله على أسفل الواجهة، وتتسلّل أشعّة الشمس في يسر من خلال النوافذ ذات الأقواس.

إنّه شاهد على عظمة عهد غدت ساعاته محسوبة.

(١١)

يوم ٢٢ يوليو/تموز من سنة ١٩٥٢ على الساعة الرابعة والنصف بعد الزوال بالإسكندرية.

دخل أعضاء حكومة الهلالي إلى قصر رأس التين لكي يؤدوا القسم أمام جلالته. وإقامة رأس التين هي إقامة فاروق الصيفية الأخرى، وقد شيّدها سلفه الشهير محمد علي.

وما كاد أعضاء الحكومة يصطفون حتّى لاح طيف العقيد شيرين، فسأل الهلالي مندهشاً:

ـ ما سبب حضور الهلالي يا صاحب الجلالة؟

فردّ فاروق:

ـ إنه وزيرك الجديد في الحربية.

ذهل الهلالي، لكنّه لم يجد بداً من الامتثال.

وما كاد حفل التنصيب ينتهي حتّى صرف الملك ضيوفه. لعلّ هذا اليوم هو اليوم الذي خربش فيه رسالة إلى إحدى عشيقاته ووقعها بحرفي: «F. F» (المخبول فاروق)...

نظر إلى ساعته، كانت تشير إلى الخامسة والربع.

في نفس تلك اللحظة بالقاهرة، كان الضباط متحلقين حول طاولة في بيت جمال عبد الناصر بمنشية البكري. كانوا ثمّانية، وكانوا

يضعون اللمسات الأخيرة على خطّة انقلابهم. كان الجوّ متوتّراً، لكن الابتهاج، بل الاستعجال، كان بادياً على الوجوه.

قال عبد الناصر موضّحاً: «منتصف هذه الليلة».

وتفرّقت المجموعة قبيل السادسة مساء.

في تلك الأثناء وصل أنور السادات إلى محطة القطار بالقاهرة قادماً إليها من العريش. تفحّص حشد المسافرين بحثاً عن عبد الناصر الذي كان من المفروض أن يكون باستقباله بالمحطة، فلم يعثر له على أثر. آخر ما وصله من أخبار هو أن الانقلاب سيكون بين الثاني والعشرين من يوليو/تموز والخامس من أغسطس. فقال في نفسه لعلّه وصل قبل الأوان. انتظر بضع لحظات، ثمّ استوقف سيارة تاكسي وتوجه إلى بيته. لم يعثر فيه على أيّ رسالة، فقرّر أن يرافق زوجته جيهان إلى السينما.

في تمام الساعة السابعة مساء حلّ النقيب سعد توفيق ببيت عبد الناصر مذعوراً:

- نواجه مشكلة يا جمال! رئيس الأركان حسين فريد دعا لاجتماع استثنائي الساعة العاشرة ليلاً بمقرّ القيادة العامة. لقد وشى بنا أحدهم. حملة اعتقالات باتت وشيكة.

فردّ جمال:

- لا عليك، سنتصرف قبل حدوث ذلك.

امتطى عبد الناصر سيارته موريس، وانطلق ليخبر رفاقه واحداً واحداً بأنّ العمليّة سيجري تقديمها ساعة.

وصل إلى بيت السادات، ففتح له الخادم الباب وأخبره بأنّ سيده غير موجود، فخطّ له كلمة: «نلتقي عند عبد الحكيم عامر على الساعة الحادية عشرة ليلاً».

لمّا عاد السادات على الساعة الحادية عشرة والنصف، وجد الرسالة، فحمل مسدسه وتوجّه إلى بيت عامر. لم يجده في بيته، فتوجّه توًّا إلى ثكنة العباسية آملاً أن يجده هناك. لكنه لم يكن للأسف يعرف كلمة السر (النصر) التي تمكّنه من الولوج. حاول إقناع الحراس، إلا أنّهم لم يلينوا. جرّب القسم والحنق بلا جدوى، فراح يذرع المكان أمام البوابة جيئة وذهاباً.

كتب في مذكراته: «كدت أجنّ فكيف تقوم الثورة أمام عيني وأنا لا أشارك فيها؟ لقد كرست كلّ حياتي لهذه اللحظة بالذات... من أجلها كافحت وعانيت بل وكنت... في كل مرحلة من مراحل العمر... ففيم كان كفاحي وفيم كان كياني... وأنا أقف موقف المتفرّج ممّا أعطى لهذا الكيان مبرراً لوجوده؟»

رنّ هاتف بيت الصحفي محمد هيكل. إنّه فريد زعلوك، أحد مساعدي هلالي باشا المقرّبين:

- هل عرفت ما جرى؟

- كلا، ماذا جرى؟

- الضباط تركوا ثكناتهم ونزلوا إلى الشارع، والجيش في حالة عصيان.

لم يفاجئ ذلك هيكل، وقال:

- لاحظت فعلاً تحرّك مدرّعات في الشارع الذي أسكنه، لكنّني أتصوّر...

قاطعه زعلوك:

- هل رأيت اللواء نجيب بعد عودتك من الإسكندرية أو سمعت عنه؟

- كلا.

ما كاد هيكل يضع السماعة حتّى رنّ الهاتف من جديد. المتّصل هذه المرّة هو النقيب سعد توفيق. رجا هيكل بلا مقدمات أن يلتحق بمقرّ القيادة العامة بالعباسية على الساعة الثالثة صباحاً.

قال هيكل في نفسه: من المؤكّد أنّ شيئاً خطيراً يحدث. فإذا صحّ ما قاله سعيد زعلوك من أنّ الضباط نزلوا إلى الشارع، فإنّ اللواء نجيب سيكون مطّلعاً من دون شكّ على الأمر. امتطى الصحفي سيارته وتوجّه إلى بيت نجيب.

لمّا وصل، وجد اللواء نجيب مستغرقاً في مكالمة هاتفية، فأومأ له بالجلوس وهو يصيخ السمع لمحدّثه.

- أؤكّد لك أنّني لست على علم بشيء.

ثمّ أضاف:

- وحتّى عندي هنا الأستاذ هيكل من «أخبار اليوم». هل تريد أن تكلّمه؟

ومدّ السماعة للصحفي يدعوه إلى الكلام هامساً: «هذا مرتضى المراغي باشا يتكلّم من الإسكندرية».

سأله وزير الداخلية بلا مقدّمات:

- ماذا يجري عندكم في القاهرة؟

- لقد اتّصل بي فريد زعلوك قبل أكثر من ساعة وأبلغني بعض التفاصيل عمّا وصل إليهم في الإسكندرية عن خروج ضباط في الجيش من ثكناتهم إلى الشارع. وقد خطر لي أن أجيء إلى بيت اللواء نجيب بظنّ أنه قد يعرف شيئاً...

- هناك عيال مجانين... ضباط جيش تركوا ثكناتهم وخرجوا في

حالة عصيان سوف تودي بهم «في داهية» وهذا «الجنون» يجب أن ينتهي قبل أن يطلع الصباح.

ثمّ أضاف:

- وأنا كلّفت اللواء نجيب أن يتصرّف كما يرى مناسباً وأن يتوجّه إلى حيث يقابل «هؤلاء المجانين» ويقنعهم بفضّ اعتصامهم والعودة إلى بيوتهم. واللواء نجيب مخوَّل بإبلاغهم أنّه لن تجري ملاحقة أحد منهم بعقاب وسوف نعتبر الأمر طيش شباب دفعت إليه الحماسة الزائدة...

وأخيراً التحق عامر بالثكنة التي كان السادات يقف ضجِراً أمام بابها. فما كاد يراه حتّى هرع إليه وأمطره بوابل من الأسئلة. عرف منه أنّ مجموعة مسلحة نجحت تحت إمرته من اقتحام مكتب قائد الأركان. وبعد مشادَّة كلامية، جرّدوه من سلاحه. وأنّ الثوار هم من يسيطرون على مقرّ القيادة العامة.

وفي الواحدة والنصف ليلاً حاصرت مدرعات بقيادة الرائد خالد محيي الدين المنطقة العسكرية بالإسماعيلية ومنشيّة البكري، بينما سيطرت دبابات المقدّم حسين الشافعي على النقاط الاستراتيجية بالمدينة، بما فيها مبنى الإذاعة.

في تلك الأثناء كان أعضاء تنظيم الضباط الأحرار برئاسة عبد الناصر يقومون بجرد ما أنجز في الساعات المنصرمة: فقد نجحوا في توقيف عشر لواءات، لكنّ أهمهم، وهو عدوهم اللدود حسين سري، نجح في الفرار. عدا أنه لم يكد يمرّ يوم حتّى نجح حرس الحدود في توقيفه بينما كان يحاول اجتياز الحدود إلى ليبيا.

مضت ساعتان واللواء نجيب يحاول الاتصال بقوّاد الجيش الذين

يعرفهم، لكن عبثاً. فلا أحد منهم يردّ على الهاتف. ركّب إذن رقم هاتف الفريق عثمّان مهدي، لكن من أجابه هو عبد الحكيم عامر:

- سنبعث لك سيارة مصفحة تحملك. الحق بنا إلى مقرّ قيادة الجيش.

هناك كان عبد الناصر قد قرّر إخبار سفير الولايات المتّحدة بالمقام الأوّل. وقد كلّف علي صبري بالاتصال هاتفياً بدايفيد إيفانس، ملحق البحرية الأمريكيّة. أخبره صبري بإيجاز بمجريات الأحداث، وختم كلامه: «إذا حرصت القوى العظمى على عدم التدخّل في شؤوننا، سيظل النظام محفوظاً، ولن تسيل الدماء». أما المكالمة الثانية، فكانت للقائم بالأعمال البريطاني السيد هاميلتون.

لم يكن الترتيب الزمني لهاتين المكالمتين بلا دلالة: وضع الأمريكيين في الصدارة، وهي رتبة سيحافظون عليها لمرّات عديدة إلى أن قرّر عبد الناصر تغيير الوجهة بعدما تعب من تعنّتهم.

هرع هيكل إلى مقرّ القيادة العامة على الساعة الرابعة والنصف صباحاً. اقتيد إلى مكتب السكرتير حيث طلبوا منه الانتظار. كان يلوح من المكان الذي يجلس فيه باب مغلق يحرسه جنديان.

بعد بضع دقائق، خرج سعد توفيق وأعلن للصحفيين:

- كلّ أعضاء القيادة موجودون بالداخل مع محمد نجيب، وهم يحضّرون لبقيّة العمليّة.

مضى أكثر من ساعة، وعند السادسة، دعي سعد توفيق إلى المكتب الذي يجري فيه الاجتماع، وخرج منه في أقلّ من دقيقة حاملاً نسخة من أوّل بيان كان سيذاع على أمواج الإذاعة، وفي تلك

اللحظة بالذات رنّ الهاتف بالغرفة فرفع توفيق السماعة ثمّ مدّها إلى هيكل على الفور. تعرّف على صوت هلالي باشا الذي قال بلهجة مشحونة:

- محمد أريد أن أكلفك بمهمّة. اذهب إلى لواء نجيب وأبلغه على لساني أنّني توصّلت إلى نتيجة مرضية مع جلالة الملك. الوزارة سوف تستصدر مرسوماً ملكياً بتعيين اللواء محمد نجيب قائداً عاماً للجيش. من هذا المنصب يستطيع إجراء أية تغييرات بما يحقّق مطالب الضباط. وبذلك فإن المشكلة تصبح محلولة قبل أن تصحو الدنيا، وحلّها يكون في الإطار الدستوري السليم.

وافق هيكل، فساقه توفيق توًّا إلى القاعة التي كانت تجتمع بها قيادة الضباط الأحرار. وبعد تحيّتهم، نقل لهم هيكل رسالة رئيس الوزراء.

هزّ نجيب رأسه، والتفت إلى جمال عبد الناصر قائلاً:

- ما رأيك يا جمال بيه؟

سيقول هيكل لاحقاً إنّه كان واضحاً من نبرة صوت اللواء نجيب ومن تعابير وجهه بأنّه كان يميل إلى قبول عرض الهلالي.

لكنّ الأمر كان محسوماً بالنسبة إلى عبد الناصر:

- اطلب الوزير، قل له أن يفتح الراديو على إذاعة القاهرة الساعة السابعة وسوف يجد جواباً على أسئلته كلّها.

اعتذر نجيب ثمّ التفت إلى هيكل، ومدّ له السماعة:

- يرغب الوزير الأوّل أن يتحدّث إليك من جديد.

تناول هيكل السماعة وكانت المفاجأة التي لم يتوقعها هي سؤال الهلالي:

ـ هل تستطيع سؤالهم إذا كانوا يريدون من الوزارة أن تستقيل.

طرح هيكل السؤال على نجيب، ولكن جمال عبد الناصر تولّى الإجابة مرّة ثانية قائلاً:

ـ له حقّ، الأفضل أن تستقيل الوزارة.

وافق الهلالي، وأنهى المكالمة. وخيّم الصمت على الغرفة.

ثمّ علق أحدهم:

ـ إذا كان ظاهراً أنّ الهلالي سيستقيل، فمن يكون رئيس الوزراء في هذه الحالة؟

لم يجب أحد.

عندئذ التحق شخصان آخران بالقاعة. لم يكن الأول سوى أبو الفتح، رئيس تحرير صحيفة المصري، والثاني هو إحسان عبد القدوس، رئيس تحرير روز اليوسف. وقد أوجز لهما عبد الناصر الوضع في بضع كلمات، وأطلعهما على المشكل المطروح، وهو تعويض الهلالي. من هو الرجل الثقة الذي يمكن أن يخلفه؟ بعد لحظة تفكير، واستعراض مجموعة من الأسماء، اقترح عبد القدوس:

ـ لماذا لا يكون علي ماهر؟

ـ علي ماهر؟

لم يكن الاقتراح عديم الأهمية. صحيح أنّ الرجل مسن، في السبعين من العمر، لكن الجميع يعلم، ولاسيما عبد الناصر، بأنّه تقلد رئاسة الوزارة مرّتين، وشغل منصب رئيس الديوان الملكي، ولعلّه الوحيد الذي ما زال له تأثير على فاروق، والوحيد كذلك الذي يستطيع إقناعه بالتنازل عن العرش حبيًّا. لم يكن اختياره لهذه

الأسباب فحسب. فقد كان أوّل ما قام به السير لامبسون لما فرض على الملك تعيين النحاس باشا رئيساً للوزراء قسراً سنة ١٩٤٢، هو اعتقال علي ماهر لأكثر من سنتين. وقد بلغ الأمر بالضباط الأحرار آنذاك أن فكّروا في مساعدته على الفرار. هكذا بدا علي ماهر، الذي اضطهده الإنجليز، في أعين الضباط الأحرار في هذه الظرفية بالذات الرجل السياسي الذي يملك القوّة المعنوية اللازمة لنهج سياسة وطنية.

قال جمال موافقاً:

- طيّب، اذهب إلى ماهر!

ثمّ أضاف مخاطباً عبد القدوس:

- بما أنّك تعرف الباشا، هل يمكن أن تهيّئ لنا لقاء معه في أقرب وقت؟

وافق إحسان، واتّصل هاتفياً بماهر، وحدّد له موعداً في نفس اليوم.

كُلف السادات بالتفاوض باسم مجلس الثورة. لكن قبل ذلك كانت تنتظره مهمة أخرى هي إخبار الشعب المصري بما جرى. توجّه إلى مبنى الإذاعة، وتلا البيان الذي حرّره اللواء نجيب.

«لقد اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكلّ هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبّب المرتشون المغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين.

وأمّا فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولّى أمره إمّا جاهل أو خائن أو فاسد

حتّى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولّى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم، ولابدّ أنّ مصر كلّها ستتلقّى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب.

أمّا من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين، فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب.

وإنّي أؤكّد للشعب المصري أنّ الجيش اليوم كلّه أصبح يعمل لصالح المواطن في ظلّ الدستور مجرّداً من أي غاية، وأنتهز هذه الفرصة فاطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف، لأنّ هذا ليس في صالح مصر وأنّ أيّ عمل من هذا القبيل سيقابل بشدّة لم يسبق لها مثيل، وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس.

وإنّي أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم.

والله ولي التوفيق».

بعد قراءة البيان، توجّه السادات وعبد القدوس إلى بيت علي ماهر كما كان مقرّراً.

يقول السادات في مذكراته إن علي ماهر استقبلهما بالترحاب، ورافقهما إلى شرفة في الدور الثاني. ولمّا أبلغه السادات بتكليف مجلس قيادة الثورة له برئاسة الوزارة، بدا عليه الارتباك. شعر بالحرج لأنّ التكليف يأتي من الملك. ثمّ إنّه ليس واثقاً من أنّ الانقلاب سينجح. أكّد له السادات بأنّهم يسيطرون على الوضع. بعد

ذلك سأله ماهر عما ينوون فعله بالملك. فأجابه السادات: «إنه حرّ يتصرّف كما يشاء، وعلى ضوء تصرفاته سنعامله».

يحكي السادات أنّ الهاتف رنّ في تلك الأثناء في الحجرة المجاورة، فغاب علي ماهر لبضع دقائق ثمّ عاد ليقول: «إن الملك قد اتّصل بي وأنّه موافق على تعييني رئيس وزراء»، فهنّأه السادات. لكن هذا الخبر فيه شيء من الغرابة. كيف علم الملك بطلب الضباط الأحرار، مع أنّ أحداً لم يخبر القصر بذلك؟ وهناك رواية أخرى أقرب إلى المعقول تقول إن ماهراً هو من عبّر عن رغبته في الرجوع إلى القصر قبل أن يحسم قراره، وأنّ الملك لم يكن أمامه إلا الموافقة.

وفي الغد أعلنت الجرائد بالبنط العريض خبر الانقلاب العسكري، وتنصيب علي ماهر رئيساً للمجلس. لم تذكر شيئاً عن عبد الناصر ولا عن الأعضاء الآخرين الذين دبّروا الانقلاب، وكلّ ما ظهر بين الأعمدة صورتان: إحداهما لنجيب والأخرى للسادات.

كانت القاهرة تغلي، وخيّم على التمثيليات الدبلوماسية ارتباك شديد. لم يكن أحد ينتظر هذا الانقلاب، ووجد سفراء الدول أنّ الأحداث تتجاوزهم. أمّا الإنجليز فأصابهم الذهول. هم من كانوا يعتبرون أنفسهم مطّلعين على أبسط اهتزاز يعتري مصر، ها هم يُؤخذون على حين غرّة، ويوضعون أمام الأمر الواقع. وجد ممثّلو جلالة الملكة أنفسهم مجبرين على الإقرار بأنّهم لم يشعروا بشيء، وهو ما زاد حنقهم. بالمقابل لم يخف الأمريكان رضاهم بل ابتهاجهم. لقد مضى وقت طويل وهم يأملون خلع فاروق وصعود نظام إصلاحي يُحلّهم محلّ الإنجليز.

أمّا الصحافة الدولية، فأصابها ما أصاب السفارات من شدوه. فقد تهيّأ لهم أنّ الأمر يتعلق في الشرق بانقلاب دبّرته وكالة

المخابرات الأمريكيّة (التي أنشئت قبل سنة من ذلك). وتحدّث راديو بوخارست عن حركة توجّهها واشنطن عن بعد. وانبرى الخبراء يضعون الفرضيات، ويبحثون عن الإثباتات. وأكّدت التايمز أن «هذه الأحداث لا علاقة لها بالصراع الإنجليزي المصري، وأنّ الأمر يتعلّق بقضيّة داخلية بحتة». في حين ذهبت جريدة لوموند في عدد صادر في شهر يوليو/تموز ١٩٥٢ إلى أنّه «إذا كانت السلطة قد نُزعت من الملك، فإنّ حياته ليست في خطر».

اجتمع الانقلابيون من جديد في قاعة القيادة العامة بالعباسية لكي يقوّموا الوضع. كلّ شيء يجري على نحو يتجاوز ما كانوا يأملون، وكلّ الطلبات التي تقدّم بها مجلس الثورة وافق عليها الملك من دون شرط أو قيد، بما في ذلك تعيين محمد نجيب وزيراً للحربية عوض حيدر باشا.

كانت تتصاعد من الشارع أولى أصوات الحشود مرحّبة بالثورة، وهاتفة بحياة الجيش وبزعيم الثوار: محمّد نجيب.

ابتسم العقيد عبد الناصر.

سأله أحدهم:

ـ والآن؟

ردّ عبد الناصر:

ـ لقد نجحنا تماماً.

ـ ليس بعد!

ـ ما دام فاروق موجوداً بمصر، لن نستطيع السيطرة على الوضع. من الممكن أن يقوم انقلاب مضاد على الثورة، بل يمكن أن يتدخّل الإنجليز.

هتف جمال سالم، وهو أحد أكثر الضباط احتداداً:

- ينبغي إعدامه. الإعدام هو العقوبة المناسبة لجرائمه.

واعترض أنو السادات فوراً:

- مستحيل! لا يمكن أن نعدمه من دون محاكمة. سيستحيل علينا طيّ الصفحة وبداية فصل جديد من تاريخ مصر.

أيّد عبد الناصر رأي السادات، والتفت إلى اللواء عزيز المصري قائلاً:

- ما رأيك؟

ابتسم عزيز المصري ابتسامة مغتصبة وقال ساخراً:

- أنا لا أهتم برأس عدوي إلا إذا قطع.

فكّر عبد الناصر. لم يسقط في هذه الثورة سوى قتيلين: الحارسان اللذان كانا يحرسان مقرّ القيادة العامة، ولا توجد ثورة في تاريخ الثورات «أنظف» من هذه، فلم تلطيخها، وفيم سينفع قتل فاروق؟

أشعل عبد الناصر سيجارة كارافين أ، وهي سيجارته المفضلة، ثمّ التفت إلى السادات قائلاً:

- اسمع يا أنور، لنتخلّص من هذا الشخص في أقرب وقت ممكن. حدّد له مهلة، واطلب منه أن يغادر!

ثمّ التفت إلى اللواء نجيب وقال:

- سيكون من المستحبّ أيّها اللواء أن تساعد السادات في مهمته.

بينما كان الضباط يتناقشون حول مصير الملك، استدعى فاروق، وقد استوعب أخيراً خطورة الموقف، أنطوان بوللي إلى قصره،

وكلّفه بأن يتّصل بسفير الولايات المتّحدة، جيفيرسن كافري، وأن يطلب منه ما إذا كانت حاملة طائرات أميركية قريبة من الشواطئ المصريّة حتّى تدخل إلى ميناء الإسكندرية، وتحمل الملك على متنها إذا اقتضى الأمر ذلك. وفي حالة إذا لم توجد حاملة طائرات قريبة، كلّفه بأن يحصل من الحكومة الأمريكيّة على ضمان حمايته. وكان ردّ كافري هو عدم وجود أيّ حاملة طائرات أمريكية قريبة بإمكانها أن تتدخل في وقت قصير، لكن بالمقابل بإمكان الملك أن يطمئن، فالسفير الأمريكي يمكن أن يضمن سلامته. وفي الساعة الموالية، التحق السفير شخصياً بالقصر، وبقي بصحبة فاروق بينما كان يعدّ حقائبه.

يشهد الدور الذي لعبه الأمريكان في هذه القضية على خساسة عالم السياسة. فقد ضاعفوا من عدد أعضاء تمثيليتهم الدبلوماسية، وألحقوا بها كتيبة من مخبري وكالة المخابرات الأمريكيّة، وعبّروا للقادة المصريين الجدد صراحة عن نواياهم الحسنة اتجاههم. وأبدت الولايات المتّحدة استعدادها لمساعدة البلد على الخروج من شرنقته الوطنية. كما أعلن جيفيرسن لمن يهمّه الأمر أنّ هؤلاء الأولاد يستطيعون إنقاذ مصر من فتنة الشيوعية التي قد تظهر كرد فعل على تعسفات البشوات والملكية.

وفي يوم السادس والعشرين من يوليو/تموز، على الساعة الثامنة صباحاً، حاصر رتل من المدرعات قصر رأس التين. وفي الساعة التاسعة، دخل اللواء نجيب والسادات إلى مكتب علي ماهر، وسلّموه نصًّا يتضمّن المهلة التي حدّدها الضباط الأحرار للملك.

تسلّم الباشا العجوز الوثيقة وقرأ:

«إنّه نظراً لما لاقته البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمّت جميع المرافق نتيجة سوء تصرّفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم

لإرادة الشعب حتّى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته. ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك حتّى أصبح الخونة والمرتشون يجدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير.

ولقد تجلّت آية ذلك في حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من محاكمات تعرّضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة وساعد الخونة على ترسم هذا الخطأ فأثرى من أثرى وفجر من فجر وكيف لا والناس على دين ملوكهم.

لذلك قد فوّضني الجيش الممثل لقوّة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسموّ وليّ عهدكم الأمير أحمد فؤاد على أن يتمّ ذلك في موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم السبت الموافق ٢٦ يوليو ١٩٥٢ والرابع من ذي القعدة سنة ١٣٧١ ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه . والجيش يحمّل جلالتكم كلّ ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج.

فريق أركان حرب محمد نجيب».

ما إن فرغ من قراءة الوثيقة حتّى تمتم بسحنة واجمة: «لم يُصغ لكلامي قط، يستحق ما يحدث له».

كان فاروق جالساً إلى مكتبه. بدا هادئاً، لكنّ سعاله العصبي المتواصل كان يشهد على أنّه في غاية التوتّر، وأنّه يجهد نفسه لإخفاء ذلك. وقف إلى جانبه نائب رئيس مجلس الوزراء سليمان حافظ.

مدّ ماهر الإنذار لفاروق، فألقى عليه نظرة سريعة، ثمّ سأل حافظ:

- هل لهذه الوثيقة مشروعية؟

فغمغم حافظ:

- إذا رجعنا إلى مقدّمة الدستور، فالجواب هو نعم يا صاحب الجلالة.

استغرق الملك من جديد في قراءة الوثيقة كلمة كلمة، ثمّ قال:

- ألا يمكن أن تضاف بعد عبارة «بناء على إرادة الأمة» كلمة «وإرادتنا»؟

ردّ حافظ:

- إنّ صياغة الوثيقة في صورة أمر ملكي يا صاحب الجلالة، تنطوي على هذا المعنى.

- معنى هذا أنّ الإرادة الملكية موجودة بشكل ضمني؟

أجاب حافظ بالإيجاب.

راح فاروق يفكر لبرهة. ماذا يدور برأسه يا ترى؟ كيف يتصوّر مستقبله؟

ثمّ قال أخيراً:

- حسناً، سأوقّع، لكن أرجو أن تُحفظ ممتلكاتي، وأن يسمح لي بالسفر على متن مركب «المحروسة»، وكذلك أن يكون أنطوان بوللي ضمن حاشيتي.

فقال ماهر مقطّباً:

- بوللي؟

- أجل، بوللي.

- لا أستطيع إجابتك يا صاحب الجلالة، لا بدّ من الرجوع إلى اللواء نجيب.

أشار ماهر إلى الهاتف وقال:

- هل أستطيع استعماله يا صاحب الجلالة؟

هزّ الملك رأسه موافقا.

كان جواب نجيب واضحاً: قبول الطلب المتعلّق بالمحروسة، ورفض ما يتعلّق بالمحافظة على الأملاك الملكيّة. أمّا بوللي، فغير مسموح له بمغادرة مصر.

والواقع أنّ الضباط كانوا مقتنعين، كما شرح لي ذلك بوللي فيما بعد، بأنّ الملك نقل كل ثروته تقريباً إلى الخارج، وهو أمر لم يكن في منتهى الصحة. صحيح أنّه نقل مبالغ إلى الخارج، لكنّها أبعد ما تكون عن المبالغ الضخمة التي طالما تحدّثوا عنها. والدليل على ذلك أنّ فاروقاً كان يعيش في منفاه من هبات ملك العربيّة السعودية ابن سعود. على أنّ فاروقاً وافق في الأيّام التي سبقت الانقلاب، وتحت ضغط محيطه وكذا بوللي نفسه، على إرسال صناديق مملوءة بسبائك الذهب إلى الخارج على متن باخرة تابعة للبحرية. وقد كان من المفروض أن ينقل هذا الكنز إلى جنيف بعد وقفة قصيرة بميناء سبيزيا غير بعيد من جينوة. ولم يكن المسئول عن هذه العملية السريّة غير أدمون جهلان، ذلك الذي تمكّن من تكديس ثروة ضخمة من تجارة السلاح تحت غطاء تجارة الأقلام.

وقد أبحرت السفينة فعلاً فجر يوم العشرين من يوليو/تموز، أيّ

ثلاثة أيّام قبل الانقلاب. ولم يعلم القبطان والبحارة بما وقع في مصر من أحداث إلا بعد وصولهم إلى سبيزيا. ماذا وقع إثر ذلك؟ ما مصير الشحنة الثمّينة؟ هل أودعت بإحدى الأبناك السويسرية؟ لا علم لأحد بذلك.

بعد مرور سنوات، وبينما كنت أحاضر بالمركز الثقافي المصري حول محمّد علي، مؤسّس دولة مصر الحديثة، تعرّفت إلى الملكة فضيلة زوجة الملك أحمد فؤاد ابن فاروق، فاستفسرتها عن لغز تلك الصناديق، وكان جوابها أنّ ولي العهد لم يكن له علم بها. وهذا معناه أنّ السبائك لم تصل إلى وجهتها. ولعلّ الشيء الوحيد المؤكد هو أنّ فاروقاً لم يكن يملك في نهاية حياته شيئاً تقريبا.

مهما يكن، فإنّ طلب الملك صباح ذلك اليوم من أيام يوليو/ تموز ١٩٥٢ المتمثّل السماح لبوللي بمرافقته، كاد يتحوّل إلى مأساة.

ذلك أنّ فاروقاً لمّا علم برفض الضباط الأحرار، لجّ في طلبه كما يفعل الأطفال، وقال لماهر: «إن لم يرافقني بوللي، فلن أغادر!»

هكذا وجد الضباط الأحرار أنفسهم في مأزق، لكنّ الأزمة لم تدم طويلاً. لمّا علم بوللي بالأمر، بادر بالتدخل. وقد كانت تلك اللحظة على حدّ قوله من أحلك لحظات حياته. قرّر أن يذهب إلى الملك ويقول له: «سأبقى هنا يا صاحب الجلالة، لن أرافقك».

وأضاف بنبرة حازمة: «لا أرغب في مرافقتك».

نزل الأمر على فاروق كالصاعقة. ها هو صديق طفولته، وأقرب الناس إليه يتخلّى عنه هو أيضاً. لم يصدق أذنيه وهو يسمع قول بوللي. رجاه أن يعيد كلامه، فأعاد عليه ما قال وهو يغالب الدموع.

شعر فاروق بالانهيار، فأومأ له بالانصراف. لقد فقد عرشه، وها هو يفقد الكائن الوحيد ربّما الذي كان موضع كل ثقته.

التقى الرجلان في روما لاحقاً، بعد مرور مدّة ليست بالقصيرة. فرغم حكم السلطات المصريّة على بوللي بالإقامة الجبرية، نجح في أن ينتزع تأشيرة سفر إلى إيطاليا لزيارة زوجته التي كانت تحتضر. ولم يمنحوه هذه التأشيرة إلا بشرطين: وعد شرف بعدم السعي للقاء فاروق، وأن يقسم بشرفه على أن يعود إلى مصر بعد دفن زوجته. وإذا كان قد احترم حرفياً الشرط الثاني، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى الشرط الأول.

ما الحديث الذي دار بين الملك وبين مساعده السابق؟ لا علم لأحد بذلك. لما سألت بوللي، صمت ولم يجب. هل تصالحا؟ هل أدرك فاروق أن صديقه ضحى بنفسه لما قبل الاستسلام للانقلابيين؟ هما وحدهما يعرفان الجواب.

في العاشرة والنصف، كان الملك يتأهب لتوقيع وثيقة التخلي عن العرش.

كان عليه أن يوقع مرتين. رفع رأسه وقال لنائب رئيس مجلس الثورة:

- لعلك تقدر الظروف فتلتمس لي العذر في أن التوقيع لم يكن كما أود ولذا سأوقع مرة أخرى.

كان حشد كبير من الناس ينتظر خارج قصر رأس التين.

وفي السادسة مساء، وبينما كانت الشمس تنشر آخر أشعتها الحمراء على البحر، لاح الملك وهو يرتدي حلّة أميرال صيفية. كان قد ودّع أفراد عائلته، وكانت تصحبه الملكة ناريمان وهي تحمل بين

ذراعيها الصبي فؤاد ذي الستة أشهر، والذي خلف أباه على عرش مصر. وقد كانت ترافقهم المربية الإنجليزية آن شيرمسايد، تتبعها الأميرات الثلاث فادية (تسع سنوات) وفوزية (اثنى عشرة سنة) وفريال (أربع عشرة سنة). وكان يبدو في الخلف، متوارياً قليلاً، السيّد جيفيرسن كافري، سفير الولايات المتّحدة.

كانت الصناديق التي سمح لهم بحملها تحتوي أساساً على بعض الأشياء الثمّينة وألبسة الأميرات والمربية. أما فاروق، فلم يحمل معه، وهو أمر قد يبدو غريباً، غير بذلتين وستة قمصان، وسبعة فساتين لناريمان. وكان الطعام على متن المركب في غاية البساطة، ذلك أنّ أوامر الانقلابيين نفّذت بحذافيرها: لا سبيل لأن يتّخذ هذه السفر طابع سفر ترفيهي. أكثر من ذلك على القبطان أن يعيد مركب المحروسة إلى مصر بعد أن يوصل الملك إلى إيطاليا.

أنزل العلم الملكي ببطء من العامود الموجود أعلى القصر: هلال أبيض وثلاث نجمات بيضاء أيضاً على أرضية خضراء. وأطلقت المدفعية واحداً وعشرين طلقة لتحيّته. وما كاد يعتلي ظهر «المحروسة» حتّى توقّفت سيارة جيب عند الرصيف، وترجّل منها اللواء نجيب وثلاثة ضباط. لحقوا بالملك على متن قارب بخاري إلى «المحروسة» وقال نجيب كما لو أنّه يعتذر:

- لعلّك تذكر يا صاحب الجلالة أنّني كنت الضابط الوحيد الذي قدّم استقالته من الجيش عقب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ احتجاجًا...

ترنّح فاروق خلف نظارتيه السوداوين، من الانفعال ربّما. واكتفى بأن ردّ:

- أرجو أن تعتني بالجيش...

ـ هو الآن بين أياد أمينة.

وخيّم الصمت، وراح الرجلان يتفرّس كلّ منهما الآخر. وقال فاروق بشيء من الحدّة:

ـ أنتم سبقتموني بما فعلتموه فيما كنت أريد أن أفعله.

وقف طيف محمد علي سلف هذه العائلة الحاكمة ينظر شاحباً إلى اليخت وهو يبتعد والغصة في حلقه. وعادت الذاكرة بذلك الرجل الألباني التركي إلى صباح أحد أيّام مارس ١٨٠١، يوم ترجّل على شاطئ من شواطئ أبي قير، على بعد بضعة كيلومترات من هناك، واستطاع في غضون أربعين عاماً أن يخرج مصر من الظلمات التي سجنها فيها المحتلّ التركي. أقام إمبراطورية نابوليونية معتمداً على صبره وذكائه، وحمل مصر وهو مسكون بفكرة العظمة والتقدّم.

انحنى الطيف وأدار ظهره للبحر وقفل راجعاً إلى قبره. يا لها من خسارة...

الجزء الثاني

(١٢)

السادس والعشرون من يوليو/تموز من سنة ١٩٥٢ بفندق فيشي الفاخر، على بعد آلاف الكيلومترات من القاهرة، ألقى خالد سرسق نظرة أخيرة على ربطة عنقه، ثمّ التفت راضياً إلى زوجته غلاديز.

- هل أنت جاهزة يا حبيبتي؟

أجابت غلاديز بأنّها جاهزة. امرأة شقراء رشيقة، تبدو باهرة الجمال في فستانها الطويل الذي اقتنته قبل أيّام من متاجر «ديور» بباريس.

نظرت إلى ساعتها وسألت:

- أأخبرك البوّاب بأنّ المربية ستأتي؟

- لم تحن بعد الساعة. لن تتأخر في المجيء.

توجّه نحو المذياع الموضوع على منضدة، وأدار زرّ التشغيل، فتعالت من مكبّر الصوت موسيقى هادئة.

كان روبير، ذو الثمّاني سنوات، وجان بيير، ذو الخمس سنوات، جالسين القرفصاء فوق البساط بأحد أركان جناح الفندق. إنّهما صديقا طفولتي، والأخوان اللذان لم أُرزقهما.

هتفت لهما غلاديز:

- هل تعِدانِني بأن تكونا رزينين؟

أومأ روبير برأسه موافقاً وهو مستغرق في اللعب. وكان يلوح من النافذة المواربة هلام جبل البلوبونيز. الجوّ هناك أبعد ما يكون عن حرارة القاهرة الخانقة.

عند الثامنة ليلاً توقّفت الموسيقى لتترك مكانها لصوت أحد مذيعي إذاعة فرنسا RDF الرتيب.

- بلغنا الساعة أن انقلاباً عسكرياً أطاح بالملك فاروق، وقد غادر مصر على متن يخته الملكي «المحروسة» إلى وجهة مجهولة برفقة زوجته الملكة ناريمان، وبناته الثلاث، وكذا ولي العهد أحمد فاروق. وتزعم بعض الإشاعات أنّه متوجّه إلى إيطاليا. وقد تشكّل مجلس وصاية...

اندفع خالد مذعوراً نحو المذياع، ورفع من صوته.

- اصمتوا يا أولاد، اصمتوا!

التحقت غلاديز بزوجها، ووقفا مصعوقين يصغيان في صمت لبقيّة النشرة الإخبارية .

لقد مضت عشرة أيام على مغادرتهما مصر ـ ككل صيف ـ للإقامة بمحطة من محطات المعالجة بالمياه، وهما أبعد من أن تخطر على بالهما الأحداث التي تهزّ العاصمة المصريّة.

ليست عائلة سرسق كبقيّة العائلات المصريّة الأخرى: إنّها مؤسسة قائمة الذات. فهي تنتمي إلى تلك العائلات التي يطلق عليها «مسيحيو الشام»، وهم أرثدوكس تابعون لكنيسة بيزنطة، عاشوا طويلاً في أمن على طول الساحل السوري والفلسطيني والتركي واللبناني. لكن هذه الحياة الآمنة تحطّمت في منتصف القرن التاسع عشر، حوالي سنة ١٨٦٠، لمّا قرّرت الإمبراطورية العثمّانية،

مدفوعة بنوبة قومية منحرفة، التخلص من هذه الأقليّة بدعوى أنّها صارت تهدّد وحدتها الإقليمية. وبدأت الملاحقات، وقُتل آلاف المسيحيين بسوريا بموافقة الأتراك. فلمّا علم نابليون الثالث بالأمر، بعث حملة عسكرية فرنسيّة يقودها بوفور لكي تضمن حمايتهم. وبين أبريل/نسيان وماي/أيار، عرف المارونيون نفس المصير. ثمّ جاء الدور لاحقاً على الأرمن. وهكذا تحوّل غير المسلمين في الإمبراطورية العثمّانية إلى مواطنين من الدرجة الثانية، فلم يعد أمامهم إلا حلّ واحد هو الفرار. وبذلك هاجر بعضهم إلى أمريكا الجنوبية عبر جينوة ومرسيليا، بينما اختار آخرون، ومنهم آل سرسق وأسلافي أنا، الهجرة إلى مصر، حيث كان يسود، على عهد محمد علي، جوّ من التسامح والانسجام بين الديانات السماوية الثلاث. فقد غدت مصر فردوس الشرق الأوسط. ولم يكن أمام هؤلاء المسيحيين لمقاومة نفوذ الإسلام الديني غير سبيلين: إمّا أن يظلّوا موالين للغرب، أو أن يتخلّوا عن عقيدتهم ويسلموا. لكنّهم بحثوا عن طريق ثالث وهو القوميّة العربيّة. هذه الرغبة الجامحة في الانتماء إلى أرض مصر، والذوبان فيها، يمكن تفسيرها أيضاً بكون اليونان الأرثوذكس، بخلاف المارونيين والكاثوليك، لم يكونوا يستطيعون الانطواء، وبذلك كان الحلّ الوحيد أمامهم هو الاندماج، والذوبان في البلد الذي استوطنوه، مساهمين بهمّة في تطوّره من دون التفريط في هويّتهم المسيحيّة. والواقع أنّهم قدّموا لمصر خدمات لا تحصى. ولعلّ أبرز شاهد على ذلك هو أنّ فضل إنشاء منظمة تحسين الصحة الخيرية التي تعنى بالأطفال المحرومين يعود إلى هيلين سرسق، جدّة جان بيير وروبير، كما يعود إليها الفضل أيضاً في إنشاء الهلال الأحمر المصري، وهما إنجازان ما زالا قائمين حتّى اليوم.

هكذا فلا سبيل لإنكار مساهمة هؤلاء المهاجرين في حركة

النهضة العربيّة الثقافية والسياسيّة. فالعناية التي أحاطهم بها الغرب، وضعف الإمبراطورية العثمّانية، كلّ ذلك سمح لهم بإنشاء كيّان لا يولي الفروق العقدية أهمية تذكر.

كان مسيحيو الشام هؤلاء يبتكرون أفكاراً جديدة شكلّت معيناً اغترف منه معظم الزعماء العرب. نذكر من بين أولئك الشاميين ميشال عفلق الذي ولد بدمشق سنة ١٩١٢ من أسرة تنتمي إلى البورجوازية اليونانية الأرثوذوكسية الصغيرة. كان أبوه رجلاً قومياً عربياً صادقاً عارض الإمبراطورية العثمّانية ثمّ الاحتلال الفرنسي لسوريا. وقد أسّس ميشال حزب البعث سنة ١٩٤٦، داعياً إلى «تحقيق الوحدة العربيّة والحرية والاشتراكية». وسيلعب هذا الحزب ـ الذي كان من أبرز أعضائه صدام حسين ـ دوراً هامّا بالعراق. وقد توفي عفلق يوم الثالث والعشرين من يونيو/حزيران من سنة ١٩٨٩ بفال دو غراس بباريس، ودفن ببغداد. وفي سنة ٢٠٠٣، قامت الولايات المتّحدة بمحو آثار قبره حتّى تقطع دابر حزب البعث.

ترك المذيع المجال لصوت نسائي أعلن عن عنوان أغنية *غلوبان غلوبون* التي كتب كلماتها بيير دودان ولحّنها برونو كوكاتريكس.

تبادل خليل وغلاديز النظرات في صمت، وقرأ روبير آثار القلق في وجه والديه، لكنّه لم يدرك السبب.

اقترح خليل:

ـ ينبغي أن نتّصل بالقاهرة لنستوضح.

ـ نتّصل بالقصر... ونتأكّد ممّا إذا كانت الأمور على ما يرام.

لا صلة لـ«القصر» الذي ذكرته غلاديز بالقصور الملكيّة. كلا، إنّه إقامة فاخرة تستقرّ فيها الأسرة منذ عشرين عاماً، مشيّدة على ضفّة

النيل بجزيرة الجيزة. وقد قضيت في هذه الإقامة بصحبة روبير وجان بيير لحظات سعيدة في مرحلة مراهقتي. وهي تتكوّن من عشرين غرفة تقريباً، تقع في ثلاثة طوابق. ومن المفارقات أنّ هذه البناية الشبيهة بعوالم ألف ليلة وليلة، كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفرنسا. ذلك أنّ الخديوي إسماعيل قرّر بمناسبة تدشين قناة السويس سنة ١٨٦٩، وكان حينئذ حاكم مصر، أن يقيم بناية تليق باستقبال ضيفته السامية: الإمبراطورة أوجيني. فقد هام بحبّها بعد أن تعرّف إليها بمعرض باريس سنة ١٨٦٧. وتنبغي الإشارة إلى أنّه حبّ ظلّ أفلاطونياً.

عُهد ببناء القصر لمهندس معماري ألماني يدعى فون دييبتيش، وصمّم حدائقه مهندس فرنسي يسمّى بريي دي شان، وهو مصمّم أجمل فضاءات القاهرة الخضراء. وبعد إنهاء البناء، أمر إسماعيل بتأثيثه بقطع أثاث باذخة جُلبت من فرنسا، من بينها قطع كانت تزيّن إقامات الإمبراطورة الباريسية.

وقد بلغ الهيام بالخديوي أن شقّ أوّل طريق تربط بين الإسكندرية (حيث رست سفينة المحبوبة) والقاهرة. وفي منتصف الطريق، شيّد محطة للراحة أطلق عليها اسم «ريست هاوس»[1] (المنتجع)، لكي تتوقّف فيها أوجيني وتروي ظمأها. وفي غمرة ذلك، شُقّت طريق ثانية، تربط بين القاهرة وموقع الجيزة الأثري. ومن الطرائف التي تُحكى عن ذلك أنّ الخديوي أمر بأن يكون أحد المنعرجات، في نقطة معينة من الطريق، منحرفاً بحيث تميل العربة التي تحمل إسماعيل وأوجيني بما يكفي ليلامس كتف الملك كتف محبوبته لبضع ثوان.. بل إنّه شيد عند سفح الأهرام محطّة أخرى للاستراحة،

---

(١) ما زال موجوداً إلى يومنا هذا، لكنه صار أشبه بمطعم على جانب الطريق منه بمأوى ملكي. (المؤلف).

تسمى مينا هاوس، عبارة عن قصر صغير، لكي تتناول فيه أوجيني الشاي في ظل النخيل[١]. ربّما لم يكن من العبث إذن تلقيب الخديوي العاشق بإسماعيل العظيم.

ردّ خليل مؤيّداً:

ـ أجل، لنحاول الاتصال بالقصر.

رغم قلق الزوجين في تلك الأثناء، لم يعتبرا هذه الثورة مأساة. فإذا كان عزل فاروق سيقضي على الرشوة، ويحمل الإنجليز على الجلاء، ويحقّق حياة أفضل للشعب، فذلك أمر إيجابي بالنسبة إلى مصر، ومن ثمّة لا داعي لاعتبار الأمر نهاية العالم. كانا يجهلان حينئذ أنّهما مخطئان: قد لا يكون ذلك نهاية العالم بعامّة، لكنّ الأكيد هو أنّه نهاية عالم مخصوص.

(١) هو الآن فندق جرى تشويهه على نحو شنيع بمبان حديثة. (المؤلف).

(١٣)

أمّا أبي، فأصابه الفزع. لم يكن هذا الانقلاب يبشّر بخير. كان واثقاً من أنّ علاقته بالقصر ستعرّضه للاضطهاد عاجلاً أم آجلاً. إلا أنّ الإسكارابيه كان ما زال لم يتأثّر بالثورة، وما زالت الشامبانيا تتدفق، والملايين تُتداول على طاولات القمار. لكن حتّى متى؟ وكان أوّل ما قام به هو أنّه حاول الاتصال هاتفياً ببوللي، لكن لا مِن مجيب. فصديق الملك الإيطالي كان قد اعتُقل، وقطعت صلاته بالعالم.

أمّا عبد الناصر، فكان يبتسم. لقد حقّق حلمه. كان ما يزال إلى حدود شهر يوليو/تموز من سنة ١٩٥٢ في الظل، يحرّك الخيوط في الخفاء. كان في الرابعة والثلاثين من العمر، برتبة مقدّم. لم يشتهر بالرذيلة. كان يدخّن ثلاث علب من سيجارة كارافين أ في اليوم، لكنّه كان يستنكف من تناول الحشيش الذي كان يقبل عليه المحيطون به. كما أنّه لم يكن يحرم نفسه من شرب كأس من السكوتش رغم مواظبته على الفرائض: كأداء الصلاة والحج (سيحجّ البيت بعد ثمّانية عشر شهراً من ذلك). ماذا عن هواياته؟ كان يهوى الشطرنج وكرة الطاولة. كما أنّه كان زوجاً عفيفاً، رغم أنّ زوجته ـ تحيّة ـ لم تكن فائقة الجمال، لكنّها كانت قويّة وخجولة، ولم تكن تشعر بالراحة في الأماكن العامّة. وقد اشتهرت على الخصوص بتكتّمها.

كانا قد أنجبا أربعة أطفال، والخامس، وهو ولد، سيرى النور

سنة ١٩٥٥، وسيختار له البكباشي اسم أعزّ أصدقائه: عبد الحكيم، الملقّب بـ«روبنسن».

المولودان البكران بنتان: هدى ومنى، والثاني والثالث ولدان: خالد وعبد الحميد. إنّه أب فائق العناية بأسرته، يقضي معها أطول وقت ممكن. ولم يكن يميل إلى الأبّهة، إذ ظلّ يسكن بفيلا منشيّة البكري، قرب مركز القيادة العامة، إلى آخر حياته. ولمّا صار رئيساً (ريّس)، اكتفى بإضافة بعض الغرف الجديدة. وظلّت البناية تحتفظ بمظهر مسكن موظف سام.

كان يُرى من وقت لآخر بجانب محمّد نجيب، لكن محمّد نجيب هو من كان يثير حماس الحشود ويستأثر بهتافاتها. كان مظهر اللطف البادي عليه يقرّبه من قلوب الناس. فكثيراً ما كان يتوقّف عند مدخل العمارة، عند زيارة أحد أقربائه، لكي يتحدّث للبوّاب. وكثيراً ما كان الناس يتجمهرون عند رؤيته وهو يتحدّث بعفوية. وعوض أن يتوارى، كان يسأل هذا وذاك عن أصله وقريته، مستعملاً عبارات ودودة. وقد صار في غضون أسابيع «الزعيم المحبوب».

أمّا جمال، فلم يكن يشبهه في شيء. كان كتوماً وحذراً، لا يكاد يثير الانتباه إليه. كان فكّه كفكّ مصارع، وكانت نظرته المبهمة النفّاذة تخترق مخاطبه أكثر مما تبصره.

وفي سبتمبر/أيلول من سنة ١٩٥٢ زعمت جريدة التايمز بأنّها تكشف خبايا الثورة، فأعلنت لقرائها بأنّ «القادة» الحقيقيين المتوارين خلف ظلّ نجيب وعلي ماهر هم أنور السادات والعقيد رشاد مهنا والأمير عبد المنعم وبهي الدين بركات باشا (رئيس مجلس وزراء سابق). ولم تذكر شيئاً عن عبد الناصر.

والواقع أن صاحب المقال لم يجانب الصواب. ذلك أنّ مجلس

الوصاية الذي أقيم غداة الانقلاب كان يتكوّن تحديداً من ثلاث شخصيات ذكرها مقال التايمز، وهم: الأمير عبد المنعم، وبهي الدين بركات والعقيد مهنا. والحقيقة أنّ حضور مهنا فرض نفسه. فقد قرّر عبد الناصر الاحتفاظ به على مضض لكي يسترضي سلاح المدرعات الذي كان تحت إمرته، ويجعل من «ابن العائلة» هذا ممثلاً للجيش داخل مجلس الوصاية. وقد كان رجلاً متحذلقاً ومتغطرساً عنيداً. والحقيقة أن أيّام مهنا كانت معدودة.

كان السادات معروفاً بنزعته الوطنيّة الجامحة. وقد نجا بأعجوبة من كل حملات التطهير والنكبات، وظلّ صامداً كالفينيق. ويمكن تفسير هذه المسيرة بطبيعة شخصيته ذاتها. فكلّ من عرفوه عبّروا عن نفس الرأي: لم يكن يزعج أحداً، بل كان يُضحك الرفقة ويسلّيها بنكته غير المؤذية. ويبدو أنّ عبد الناصر كان يعتبره مهرّجاً. وإذا شاء المرء أن يبحث له عن شبيه، فلن يجد أفضل من «تيبيروس كلوديوس» الذي صار إمبراطوراً بالصدفة بعد وفاة كاليغولا. كان كلوديوس مصاباً بالصرع ومتلعثمًا بحيث ما كان لأحد أن يراهن على مستقبله. عثر عليه البريطوريون يوم مقتل كاليغولا منزوياً خلف الستائر بأحد أركان القصر، وأوصلوه إلى الحكم بدفع ١٥٠٠٠ سيستيرس لكل بريطوري. لكنّه صار، بخلاف ما كان منتظراً، إمبراطوراً عظيماً. والأمر نفسه بالنسبة إلى السادات الذي عيّنه عبد الناصر سنة ١٩٦٩ نائباً للرئيس بفضل كلّ الأسباب المذكورة أعلاه. وقد كان هو أيضاً رئيساً عظيماً.

بينما كان اللواء العجوز نجيب يحيّي المعجبين الهاتفين بحياته: «عاش محمّد نجيب!» كان عبد الناصر يكتفي بالنظر إليه بعين راضية. كانت ثمّة حينئذ مهامّ أكثر إلحاحاً أجدر باهتمامه. فقد كان ينتظره هو ورفاقه عمل في منتهى الضخامة يتجاوز قدراتهم. يقول

عبد الناصر: «ولكني اعترف أنّ الصورة الكاملة لم تتّضح في خيالي إلا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو... وكانت تفاصيل هذه التجربة هي بعينها تفاصيل الصورة. وأنا أشهد أنّه مرّت عليّ بعد ٢٣ يوليو نوبات اتّهمت فيها نفسي وزملائي وباقي الجيش بالحماقة والجنون الذي صنعناه...».

وفي يوم السابع والعشرين من يوليو/تموز من سنة ١٩٥٢، جمع تحت رئاسته أعضاء لجنة الضباط الأحرار، والتي صارت تدعى «مجلس قيادة الثورة»، وذكّرهم بالمبادئ الستة التي كانت تمثّل فيما يبدو زادهم الإيديولوجي الوحيد:

١ ـ القضاء على الاستعمار البريطاني.

٢ ـ القضاء على الإقطاع.

٣ ـ القضاء على سيطرة رأس المال.

٤ ـ إقامة العدالة الاجتماعية.

٥ ـ بناء جيش قوي.

٦ ـ بناء حياة ديمقراطية سليمة.

ثمّ باغت «الريس» المستقبلي رفاقه بسؤال عن شكل الحكومة المرتقبة: أتكون ديمقراطية أم ديكتاتورية؟

كاد السادات، وكان من أعضاء المجلس، أن يختنق. قدّر حينئذ أن عبد الناصر أصابه مسّ: «ما هذا الذي يفعله؟ هل فقد عقله أم ماذا؟ قلت في نفسي... فقد كنت على ثقة من أنّنا جميعاً، بل والشعب الذي أيّد الثورة بهدير رهيب، وأوّلنا عبد الناصر، قد كفرنا بالديمقراطية نتيجة لما صنعته بنا وبالبلاد ديمقراطية الأحزاب وصراعاتها من أجل السلطة وخضوعها للملك والإنجليز... ثمّ إنّنا

جميعاً ضباط، وقد تعوّدنا في العسكرية سرعة الإنجاز... هذا إلى جانب الهدف الرئيس الذي قامت الثورة من أجله وهو إصلاح أحوال البلاد في أسرع وقت».

طُرح الموضوع للمناقشة، فراح عبد الناصر طيلة الجلسة يدافع بكل ما أوتي من حجج عن النهج الديمقراطي، لأنّ الديكتاتورية في نظره لا تؤدّي إلا للدم... والعمل الذي يبدأ بدم لا بدّ أن ينتهي به. وقال إنّه يفضل البرلمان الحزبي القديم على اللجوء إلى أسلوب الديكتاتورية. فتخليص البلد من ديكتاتورية لإقامة ديكتاتورية أخرى، لَهُو العبث بعينه. احتدم الجدل، وتأجّج النقاش مشوباً بانفعال شديد. كان السادات مقتنعاً بأنّ التغيير الذي يمكن إحداثه بالطريق الديمقراطي في سنة، يمكن إنجازه عن طريق الديكتاتورية في يوم واحد.

والحقيقة أن هذا النقاش، كما يقول السادات نفسه، لم تكن له صلة بالديمقراطية ولا بالديكتاتورية: لقد كان اختبار قوة. كان عبد الناصر يحاول في تلك اللحظة أن يختبر قدراته: هل يستطيع أن يفرض رأيه على الجميع؟ لأنّ الضباط كلّهم كانوا من رأي السادات. اشتدّ السجال، وتقرّر التصويت، وجاءت النتيجة حاسمة: أحد عشر صوتاً مع الديكتاتورية مقابل صوت واحد (هو صوت عبد الناصر) مع الديمقراطية.

هتف البكباشي: «أنا لا أستطيع أن أقبل هذا القرار الذي هو طريق الديكتاتورية. هذا طريق خطر على الثورة وعلى البلاد، وأنا أستقيل من جميع مناصبي!»

ضجّت القاعة، وتعالت الاحتجاجات وعمّت الجلبة... وأعيد التصويت، لكن النتيجة لم تتغيّر: أحد عشر صوتاً مقابل صوت

واحد. هزّ جمال رأسه، وجال ببصره الحادّ على وجوه رفاقه، ثمّ جمع أوراقه، وتمنّى لهم التوفيق وانسحب.

بُهت الجمع، وراح أعضاء المجلس يحدّقون في بعضهم بعضاً كما لو صاروا فجأة يتامى. وتملّكهم الندم، وأحسوا كما لو أنّهم هووا إلى قرار سحيق.

كانت الساعة تشارف على الثانية صباحاً.

وما كادت تمرّ ساعة واحدة حتّى كان القرار قد اتّخذ: وضعوا ثقتهم كلّها في رفيقهم جمال. وهكذا تقرّر حلّ البرلمان، وإجراء انتخابات عامّة في غضون ستّة أشهر، والحفاظ على الحريات التي ينصّ عليها الدستور، ورفض الحزب الواحد. وانطلق عضوان من المجلس باتّجاه منزل عبد الناصر ليبلغاه بالمستجدّ.

عاد عبد الناصر عودة الظافر.

كانت ثمّة أساب أخرى، فضلاً عن رغبته في قياس قدرته على التأثير، دعت «الريّس» إلى الحفاظ على النظام القديم، ولكن مؤقتاً فقط. أوّلها أنّه فهم الوضع الجديد. فبدفاعه على الحفاظ على النظام الزائل مرحلياً، تفادى أن يتولّى السلطة هؤلاء الضباط الذين ما زال لهم تأثير على القوات العسكرية التي قادوها خلال الانقلاب. كما أنّه لاحظ أنّ رفاقه لا تجمع بينهم أي رابطة، إن على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي. فقد كان عددهم كبيراً، وكانت النقاشات بينهم متشعّبة ولا تنتهي، بحيث يعترض كلّ منهم على رأي الآخر، حتّى إنّه يستحيل عليهم أحياناً اتّخاذ القرار.

كيف لهم أن يكونوا بحال مختلف؟ ونحن نعلم مقدار ما كان بين شخصياتهم من تباين: فعبد الحكيم عامر، على غرار عبد الناصر، ذو نزوع قومي، وخالد محيي الدين ويوسف صديق متأثّران

بالنظريات الشيوعية، ومن ثمّة يرغبان في توجيه النظام يساراً، وعبد اللطيف البغدادي وحسن إبراهيم وزكريا محيي الدين يدعون إلى سياسة ليبرالية. أمّا كمال الدين حسين وعبد المنعم عبد الرؤوف وحسين الشافعي فيميلون للإخوان المسلمين، ويتوقون إلى دولة ثيوقراطية تكون الشريعة دستورها. بينما كان السادات لا يلهج، كما سلف، إلا بكلمة واحدة هي الديكتاتورية. فالشيء الوحيد الذي كان يوحّد بين هؤلاء الرجال إذن هو عداؤهم للنظام القديم. ومن ثمّة فإنّ نشوب أيّ صراع بينهم، سيقوّض كلّ شيء.

كان عبد الناصر يعلم أيضاً أنّ حزب الوفد ليس إلا خليطاً من باشوات عفا عنهم الزمن، أنانيين وانتهازيين، لا يهمّهم سوى الدفاع عن مصالحهم، وبذلك فإن القضاء عليهم يشكل ضرورة حيوية، لكن من اللازم أن يكون إسقاطهم على يد الشعب، ظاهرياً على الأقل.

هناك ما هو أهمّ من كل هذا: فعبد الناصر ما زال غير جاهز، ورجل المرحلة هو محمد نجيب الذي يشدّ إليه الأنظار، أما صورة البكباشي، فما تزال غير واضحة. يلزمه الوقت لإثبات نفسه، واكتساب سمعة الرجل الموحّد بل المنقذ.

وفي يوم الثاني عشر من أغسطس حدثت واقعة ستبصم الخطوات الأولى لهذه الثورة إلى الأبد. احتشد جمع من العمال المنتمين للنقابة أمام إدارة مصنع النسيج بكفر الدوار، على بعد عشرين كيلومتراً تقريباً من الإسكندرية، يطالبون بزيادة أجورهم، وتسريح سكرتير بالشركة، قالوا إنه جائر وعديم الكفاءة. كلّ هذا «باسم محمد نجيب وباسم الثورة». ألم تفتح هذه الثورة المجال أمام الحريات؟! ألم يطلع فجر جديد يبشّر بتحسين ظروف العمال الذين طالما استُغلوا شرّ استغلال؟! لكنّهم أساءوا الفهم... سوء فهم يدعو

إلى اليأس. وتاريخ الثورات حافل بسوء الفهم من هذا القبيل. ذلك أنّ الشعب يصدّق الوعود المعسولة، لكنّه يكتشف ذات يوم بشدوه أنّ الفجر الذي توهّم أنه طلع لم يطلع.

حاولت الشرطة تفريق المتظاهرين، لكنّهم أبدوا مقاومة شرسة واحتلوا مكاتب الإدارة، يحرّضهم زعيمان هما مصطفى خميس وأحمد البقري. أطلق البوليس الرصاص وهو ما زاد الوضع تأجّجاً، ودفع العمال إلى إضرام النار في المبنى وهم يهتفون: «تحيا ثورة الجيش! تحيى ثورة الشعب!» وفي الساعات الأولى من صباح اليوم الموالي، تدخّل الجيش، ووقعت مواجهات بين الجانبين أسفرت عن ثمّانية قتلى وحوالي عشرين جريحا، واعتقل زهاء متي عامل.

وفي يوم الرابع عشر من غشت، التمّت محكمة عسكريّة تكلّفت بمحاكمة مثيري الشغب وإعطاء العبرة. وبعد مرافعة دامت أربع ساعات، حُكم على المدعوين خميس والبقري بالإعدام.

واجتمع مجلس قيادة الثورة في المساء، ودام النقاش بين الأعضاء طيلة الليل. هل ينبغي العفو عن الرجلين؟ دافع عبد الناصر وعامر عن العفو، لكن من دون جدوى. أياما بعد ذلك أعدم العاملان شنقا بساحة سجن الإسكندرية.

سيتكلّف عبد الناصر بوصفه مدير ديوان القائد الأعلى للقوات المسلحة بتطهير الجيش. هيّأ التعيينات الجديدة والتنقيلات وحالات العزل بهدوء وبكيفية ممنهجة، ثمّ قدمها للواء نجيب. لم يكن اللواء يعير هذه المقرّرات الإدارية بالاً، إذ كان منشغلاً بالأدوار الريادية التي أسندت له، وبذلك وقّعها في غفلة منه. وبهذا تمكّن لاعب الشطرنج الماهر من وضع بيادقه تدريجياً في المواقع المهمّة.

وفي العشرين من غشت، اعتلى علي ماهر منبر البرلمان، وألقى

أوّل خطبة رسميّة، وكانت حبلى بالنذور المؤذنة بنهايته. دعا في هذه الخطبة إلى اقتداء الأحزاب والجهاز الحكومي بالجيش الذي طهر نفسه، ووضع بذلك الأحزاب أمام خيار حاسم: إمّا أن تطهر نفسها أو تضمحلّ.

أهي دعوة للأحزاب لتطهير ذاتها أم لتدمير ذاتها؟ لم يَرْتب أحد في أن يكون المجلس العسكري هو من أوحى لماهر بالفكرة. وقد مضى نجيب أبعد لمّا أعلن لصحفي أمريكي: «إذا أظهرت الأحزاب عجزها عن مراجعة هياكلها وتطهير نفسها، سيكون علينا التدخّل».

عمّ الذعر، وسارعت الأحزاب الصغيرة إلى تغيير يافطتها. أمّا الوفد، الحزب القوي، فحاول التفاوض. وصدرت عن قائده العجوز النحاس باشا صرخة غريق قال فيها إنّ الوفد لا يخشى التطهير، لكن شريطة أن يكون ذلك تحت إشراف القضاء، مؤكّداً بأنّ هدف الجيش هو هدفه. لكن صرخته هذه لم تلق أيّ صدى. سيتحدّد مصير الوفد في وقت لاحق.

أما في تلك اللحظة، فكان على مجلس قيادة الثورة أن يقدّم للشعب أوّل دليل على رغبته في التغيير: مشروع الإصلاح الزراعي الضخم. وهو مشروع سيمنح الحركة، في نظر عبد الناصر، قاعدة اقتصادية واجتماعية.

لطالما أدانت الصحافة المصريّة وكذا البرلمان البؤس الذي يعيش فيه الفلاح المصري. وقد كشف الإحصاء الأوّل أنّ المساحة المزروعة لم تنمُ في خمسين سنة إلا بـ ١٦٪، في حين انتقل عدد السكان من ٩,٧ مليون نسمة إلى ١٩ مليون نسمة. ومما زاد الطين بلّة، التوزيع الجائر للدخل الفلاحي، ووجود إقطاعات هائلة يجني منها أصحابها أرباحاً طائلة بواسطة كراء الأرض لوسطاء يكرونها بدورهم للمزارعين الصغار.

قبل ذلك بسبع سنوات، أيّ سنة ١٩٤٥، نشر مثقّف مصري ينحدر من أسرة كبيرة، يدعى مريت غالي «برنامجاً للإصلاح الزراعي بمصر» بـ«مجلة جمعية الاقتصاد السياسي». وقد حدّد في مقالته ملكيّة الأرض في مئة فدان للفرد، على ألا تتجاوز المساحة ثلاثمّئة فدان للأسرة. وقد كان الملك فاروق أكبر مزارع مصري بخمسة وخمسين ألف فدان. وفي سنة ١٩٥٢، كان ٢٨٠ شخصاً تقريباً يستحوذون على ٥٨٠٠٠٠ فدان، في حين لم يكن يملك السواد الأعظم من المزارعين أكثر من نصف فدان للفرد. أيّ أنّ ثمّانية ملايين لا تملك شيئاً، وتعيش على استئجار قطع صغيرة من الأرض، يحرثونها مقابل جزء من المحاصيل. كما اقترح مريت ضرورة تحديد سقف لثمن إيجار الأرض، ومنع الكراء بالباطن.

كان أوّل من عارض المشروع رئيس المجلس علي ماهر، يسانده في ذلك العقيد رشاد مهنا. واقترح بالمقابل أن يكون سقف الملكية ٥٠٠ فدان، وعوض نزع الأرض من أصحابها، دعا إلى فرض ضريبة تصاعدية على ما زاد على هذه المساحة. بعد مواجهة ومساومة، تعالى احتجاج الملاكين الكبار بتأييد من رئيس المجلس.

هرع أبو الفتح، رئيس تحرير جريدة المصري، إلى علي ماهر وناشده بأن يغيّر موقفه. فحديثه عن تطهير الأحزاب «يعدّ غلطة»، لأنّه سيمكّن الضباط من الاستيلاء على السلطة والتحكّم في مقاليد البلد. قال له إنّ حملته المغرضة على الأحزاب، ولاسيما الوفد، وإصراره على الدفاع عن الملاكين الكبار تتعارض مع بقائه في منصب رئيس الوزراء. سيؤدّي موقفه إلى نتيجة عكسيّة، وسيطيح بحكومته، ممهّداً الطريق للجيش لكي يستولي على الحكم، ويفرض نظاماً عسكرياً. لكن ماهر لم يصدق حرفًا واحداً مما قاله له أبو الفتح.

بعد عام ونصف من ذلك، قال عبد الناصر وهو يتذكّر هذه

المرحلة المضطربة إنّ الضباط لم يثوروا من أجل الحكم، بل كانت خطّتهم تقضي في حال نجاح الثورة بالعودة إلى الحياة البرلمانية، بحيث يتولّى الحكم رجال قادرون على السهر على مصلحة البلد. وبعد نجاح الثورة بدأوا في تطبيق الجزء الأوّل من برنامجهم. اتّصلوا بالعديد من رجال السياسة، لكنّهم فوجئوا بهم يحاولون مساومتهم. طرحوا شروطهم، ورفض الملاكون الكبار إلغاء استعباد الفلاحين، وطلبوا التخلّي عن الإصلاح الزراعي. حينئذ لجأوا إلى علي ماهر، لكنّهم اصطدموا بجمعية ملاكي الأراضي الذي راحوا يطالبون باستمرار الرقّ في الضيعات، وبدت للضباط ـ على حد قول عبد الناصر ـ الحقائق صارخة: من المستحيل أن يثق الشعب في هؤلاء. من المستحيل أن يواصل ساسة المدرسة القديمة العمل الذي بدأوه هم...

قدّر عبد الناصر إذن بأنّ علي ماهر ومعاونيه ليست لهم القدرة ولا الإرادة لكسر شوكة كبار الملاكين، وتحرير الفلاح من العبودية التي يعيشها منذ قرون.

وفي ليلة السابع من سبتمبر/أيلول أمر مجلس الثورة باعتقال سبعين شخصية سياسيّة من بينها الكاتب العام النافذ لحزب الوفد فؤاد سراج الدين. وأمام هذا الإجراء الذي تقرّر من دون موافقة علي ماهر، بل من دون علمه، قدّم استقالته.

ذكّره أبو الفتح بنبرة منتقدة بأنّه حذّره، لكنه أحرق كلّ مراكبه. توهّم وهو يهاجم الأحزاب بأنّه يقطع عليها الطريق حتّى يخلو له الجو وحيداً مع العسكر، ظانًّا أنّهم سيتخلّون له عن السلطة، فارتكب بذلك خطأً شنيعاً.

خلف اللواء نجيب علي ماهر في يوم الثامن من سبتمبر/أيلول،

وشكّل حكومة جديدة. اختار لنيابة رئاسة المجلس وتقلّد وزارة الداخلية عدو الوفد اللدود سليمان حافظ. ولم يكن يخفى على أحد أنّه يتوفر على عدد من الوثائق التي تجرّم زعيم الحزب التاريخي النحاس باشا، وكذا المحيطين به.

وقد صدر قانون في نفس اليوم يخضع الأحزاب لعملية تدمير ذاتي حقيقية. فوجد الوفد المهزوم نفسه مضطرًّا لقبول الشروط الجديدة، والموافقة على استقالة زعيمه الذي طلب منه وزير الداخلية الجديد اعتزال العمل السياسي.

جرى التصويت على القانون رقم ١٧٨ يوم التاسع من سبتمبر، فزالت بذلك الحواجز، وصار بالإمكان الشروع في الإصلاح الزراعي. قُنّن ثمن استئجار أيلول، وتضاعف أجر العامل الزراعي أربع مرات، وهو تغيير عميق ما كان ليمرّ من دون صدامات. ثارت ثائرة ملاك الأرض، فراحوا يخربون مضخّات السقي، ورفضوا تمكين الفلاحين من الأسمدة والبذور ومقدم مصاريف الزراعة. بل إنّ أحد أبناء عائلة لملوم، وهو من كبار الملاك، رفض تطبيق القانون الجديد، ولجأ للقوة، فاعتُقل وحوكم علناً، وحكم عليه بالأشغال الشاقة. وكان ذلك إيذاناً بنهاية نفوذ الأرستقراطيّة.

صارت كلّ القرارات منذئذ تخضع لفحص مجلس الثورة ودراسته قبل نقلها للوزراء قصد تنفيذها. كانوا كلّهم مدنيين باستثناء نجيب، وبذلك صارت الحكومة مجرّد وسيط بين مجلس الثورة والموظفين والشعب.

وفي الرابع عشر من أكتوبر/تشرين الأوّل عزل العقيد رشاد مهنا من منصب الوصي على العرش، ونعت بأنه «رجعي عنيد ومشاكس». لم يستسلم بعد طرده، بل راح يبذل ما في وسعه للعودة إلى منصبه،

مستعيناً ببعض الضباط من محيطه، إلى أن اعتقل يوم الرابع عشر من يناير/كانون الثاني من سنة ١٩٥٣ بتهمة قيادة تمرّد داخل الجيش. وقد ترأس عبد الناصر شخصيًّا المحكمة العسكرية التي حاكمته. أدين وحكم عليه بالسجن المؤبد.

وفي السابع والثامن من ديسمبر/كانون الأوّل صدر قانونان جديدان ينصّان على استفادة العمال من إجراءات تقدّمية في عقد العمل، ويفرضان تحكيماً حكومياً في حال نشوب نزاع بين العامل ومشغّله. هكذا تحسّنت أوضاع العمال، لكن جرى الإجهاز بالمقابل على الحقّ في الإضراب بدعوى أنّه «يضرّ بالاقتصاد الوطني».

وفي التاسع من ديسمبر/كانون الأول، حُلّ البرلمان الذي سبق لنجيب يوم الثالث والعشرين من يوليو/تموز أن أعلن عن حرصه على حمايته واحترامه.

وفي الواحد والثلاثين من ديسمبر/كانون الثاني من سنة ١٩٥٢، تبنّت الحكومة تصميماً خماسياً للتنمية، وأعلنت عن رغبتها في الرفع من مستوى عيش ساكنة مصر أيضاً.

وفي السادس عشر من يناير/كانون الثاني، حُلّت الأحزاب السياسيّة، وأعلن عن فترة انتقالية مدّتها ثلاث سنوات، تُمكّن من «إقامة حكم ديمقراطي دستوري سليم». وسيتولى الحكم خلال هذه الفترة مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء بشكل مشترك. وفي الثالث والعشرين من يناير/كانون الثاني تأسّس حزب وحيد يحمل اسم «هيئة التحرير»، ولم يكن كاتبه العام سوى... جمال عبد الناصر، عبد الناصر نفسه الذي دافع بشراسة قبل ذلك بخمسة أشهر عن روح الديمقراطية وعن التعذدية الحزبية!

وتشكّلت لجنة من خمسين عضواً لصياغة دستور جديد ترأسها

علي ماهر. ونُظّمت احتفالات سمّيت «عيد التحرير»، ضمّت استعراضاً عسكرياً واستعراض طائرات، وفي آخر اليوم، وافق عبد الناصر على أن يحاوره روني برانيليك عن مجلة فرانس إيلوستراسيون.

شرع بشكر الصحفي على «التعاطف الذي تبديه الصحافة الفرنسية مع حركة التحرير»، فسأله برانيليك:

- بعد السنوات الثلاث التي تقدرون أنّها تلزم مصر لتستعيد توازنها وتهيّئ نهضتها، هل تنوون تنظيم انتخابات؟

- فترة ثلاث سنوات تعدّ ضرورية لمحو كلّ آثار الفساد، وبلوغ استقرار سياسي ضروري للبلد. باختصار، نتوخّى تربية البلد سياسياً، والنهوض بمستواه الاجتماعي والاقتصادي والصحّي. الحرب التي أعلناها على الفقر والمرض والجهل لن تتوقّف إلا عندما نقضي نهائياً على مصادر تلك الظواهر. أمّا الانتخابات، فستجري على العموم بعد الفترة المحدّدة، أيّ ثلاث سنوات.

- هل موعد الإعلان عن نظام جديد قريب؟ وما نوع هذا النظام؟

- ستقرّر اللجنة الدستورية كيف سيكون شكله: ملَكيّة أم جمهورية.

- يحظى الإخوان المسلمون عموماً في الخارج بأهميّة بالغة في الحياة السياسيّة المصريّة، رغم أنّ جمعيتهم، كما يزعمون، ليست لها أهداف سياسية. ما رأيك في هذا التناقض؟ هل يحظى الإخوان المسلمون بدعم رسمي؟

- لا يحظون بأيّ دعم. جمعيتهم جمعية دينية لا أقل ولا أكثر.

من المهم أن نسجّل، بعد ثلاث وخمسين سنة من ذلك، حصل الإخوان المسلمون في الانتخابات التي جرت بمصر في ديسمبر/

كانون الأوّل ٢٠٠٥ على ٨٥ مقعداً، أيّ ما يقارب ٢٥٪ من المقاعد. كانوا في كلّ مرة، على امتداد هذا القرن، ينبعثون من رمادهم.

وفي العاشر من فبراير/شباط، أعلن نجيب عن النقاط الإحدى عشرة التي تحدّد ملامح النظام المرحلي:

١ ـ إجلاء القوّات الأجنبية التام وغير المشروط من وادي النيل.

٢ ـ حقّ السودان في تقرير مصيره.

٣ ـ دستور جديد يعبّر عن تطلّعات الشعب المصري.

٤ ـ إقامة نظام اجتماعي يكفل لجميع المواطنين الحقّ في الحماية من البطالة والمرض والشيخوخة.

٥ ـ نظام اقتصادي يضمن توزيعاً عادلاً للثروة، واستغلال الموارد الطبيعيّة والبشريّة، وكذا استثمار أقصى لرساميل جديدة.

٦ ـ إقامة نظام سياسي يساوي بين المواطنين أمام القانون، ويضمن حريّة التعبير والتّجمع والصحافة والديانة، وذلك في حدود القانون.

٧ ـ إقامة نظام تربوي تكون مهمّته تنميّة الشعور بالمسئوليّة الاجتماعيّة، يجعل الشباب يعي واجباته وعيه بحقوقه، وبضرورة رفع إنتاج البلد إلى حدّه الأقصى من أجل الارتقاء بمستوى العيش.

٨ ـ إقامة علاقات ودّيّة مع كل الدول العربيّة.

٩ ـ بناء قوة إقليمية من أجل تعزيز تأثير الجامعة العربيّة.

١٠ـ إقامة علاقات ودّيّة مع كلّ الدول الصديقة.

١١ـ الإيمان الراسخ بمبادئ الأمم المتّحدة.

وأنهى نجيب إعلانه بقوله: «إنّني إذ أعلن هذه المبادئ والأحكام، لا يسعني إلاّ أن أعلن أيضاً إيماني المطلق بضرورة قيام نظام دستوري ديمقراطي كامل الأركان إثر فترة الانتقال، وبضرورة توفير حياة كريمة ومستقبل مشرق باسم لنا جميعاً، علينا جميعاً أن نساهم في بنائه. والله ولي التوفيق».

لم يعد مجلس الوصاية هو الذي يقوم بأعمال السيادة، بل صار يقوم بها نجيب، ومن خلاله المجلس العسكري.

كانت الشهور التالية مليئة بالمؤامرات والدسائس والمحاولات الانقلابية التي يدبرها رجال النظام القديم، ساعين إلى توريط نجيب معهم. ونفد صبر الإخوان المسلمين، فطالبوا بنصيبهم من السلطة. ذلك أنّ المرسوم الذي حلّ الأحزاب استثناهم حتّى ذلك الحين.

وأُنشأت لجان التطهير مفسحة المجال أمام الوشاية والتشهير. وصار معظم موظّفي الدولة يبدون خنوعهم، ويعرضون خدماتهم للتجسس على زملائهم، وفقد مئات الناس مناصبهم لا لشيء إلا لأنّ لهم قرابة أو صداقة مع ساسة النظام القديم الذين اشتهروا بمساندتهم لبقاء النظام البرلماني.

في الأسبوع الأوّل من شهر يونيو/حزيران من سنة ١٩٥٣، أعلن عبد الناصر في حوار أجرته معه الأهرام: «رأيي الشخصي كمواطن مصري، فإنّي أرى أنّ النظام الملكي قد تآكل وانتهى، بعد أن أتى سوس الفساد والخيانة على عرشه، ولن تقوم لهذا النظام قائمة ثانية بعد أن عانت البلاد من مساوئه الكثير، فهو السبب الأوّل للاحتلال الإنجليزي للبلاد وتوطيد أقدامه سبعين عاماً...»

وفي الثامن عشر من يونيو/حزيران ١٩٥٣ ألغيت الملكية، فزال بذلك حكم عائلة سادت قرناً ونصف القرن، وأصبحت مصر

جمهورية، وأذيع بيان يقول: «أصبح العرش هو الستار الذي يعمل من ورائه المستعمر ليستنزف أقوات الشعب ومقدراته، ويقضي على كيانه ومعنوياته وحرياته... فآن للبلاد أن تتحرّر من كلّ أثر من آثار العبودية التي فرضت عليها نتيجة لهذه الأوضاع، فنعلن اليوم باسم الشعب:

- إلغاء النظام الملكي، وحكم أسرة محمد علي، مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة.
- إعلان الجمهورية ويتولّى الرئيس اللواء «أركان الحرب» محمد نجيب قائد الثورة رئاسة الجمهورية مع احتفاظه بسلطاته الحالية في ظلّ الدستور المؤقت... «وقد جاهر نجيب بمعارضته لتغيير النظام، لكنّهم نهروه فسكت.

في الساعة التي تلت هذا الإعلان، دخل أربعة أعضاء من مجلس قيادة الثورة إلى ديوان نجيب: صار جمال عبد الناصر نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، وتقلّد عبد اللطيف البغدادي منصب وزير الحربية، ورقّي صلاح سالم، الذي لقبه الإنجليز «الرائد الراقص» منذ أن رقص عارياً أمام إحدى قبائل السودان، إلى منصب وزير الإرشاد القومي، وتولّى عبد الحكيم عامر، الملقب روبنسن، منصب القائد الأعلى للجيش.

هكذا صار الحكم في متناول ابن موظف البريد بباكوس، يكفي أن يمدّ يده ليحكم قبضته عليه...

(١٤)

«يحيا فاروق، ملك مصر والسودان!»

بهذا الهتاف ودّع طاقم المحروسة يوم السادس والعشرين من يوليو/تموز من سنة ١٩٥٢ العاهل المخلوع بعيون دامعة.

رسا اليخت بخليج نابولي، ونزل السلم الملك المطرود مرتدياً سترة وربطة عنق سوداوين، تتبعه ناريمان في فستان أصفر، ثمّ نزلت بعدهما الأميرات ومربياتهن، بينما شحنت الحقائب على متن سفينة خدمات صغيرة، تدعى ليندا، تُستعمل عادة لنقل السياح. لم تكن باستقبالهم جوقة نحاسية ولا احتفال، كلّ ما كان في انتظارهم فرقعات آلات تصوير حشد من المصوّرين جاءوا من مختلف أصقاع المعمورة لتخليد نكبة الملك.

كان موسم الصيف في عزّه. توجّهت ليندا رأساً إلى كابري، العاصمة الأسطورية لأغنياء المشاهير، متلافية التوقف عند مدخل غروتا أزورا، أشهر المغارات البحرية بالجزيرة، ورست بمحاذاة الجسر العائم الممتدّ في أسفل سيزار أوغيستو. في هذا الفندق الفاخر، قضى الزوجان جزءاً من شهر العسل قبل خمسة عشر شهراً من ذلك. وكانت الخيبة الأولى هي أنّ الفندق كان ممتلئاً عن آخره، ولم يكن أمام الأسرة من خيار سوى التراجع إلى أناكابري، وهي أقلّ واجهات الجزيرة حظوة. حطّوا الرحال بفندق إيدن باراديو، حيث شغلوا طابقاً بكامله. وقد دوّن الملك في سجلّ الفندق:

صاحب السمو الملكي فؤاد أمير مصر، وهو ما أبهج صاحبة الفندق، لأنّ في ذلك إشهاراً لمؤسستها.

يحظى مطبخ المطعم بسمعة طيبة. لعلّ هذا هو ما جعل فاروق لا يتردّد في اختباره. كانت قائمة الطعام تضمّ: سباغيتي بفواكه البحر، سرطان البحر مغلّف بطبقة من المايونيز، شرائح لحم مع بطاطس مقليّة، سلطة خضراء، ثليجة بالشكولاته، خوخ، وجميع ذلك مسقي بلتر من شراب البرتقال. والظاهر أنّ فقدان المملكة لم يُفقد العاهل شهيّته.

طلب في وجبة فطور صباح اليوم الموالي عشر بيضات، ثمّ حرّر برقيتي شكر، وجّه إحداهما لإيدا موسوليني، بنت الدوتشي، والثانية لملكة إيطاليا السابقة إيلين بيتروفيتش نييغوتش التي لم تنس أنّ زوجها فيكتور إيمانويل الثالث، كان ملكاً مخلوعاً، وأنّ مصر احتضنته إلى أن وافته المنيّة بالإسكندرية سنة ١٩٤٧. لمّا علمت المرأتان بوصول فاروق وناريمان، بعثتا إلى الفندق بباقتين كبيرتين من الورود.

وعند الزوال، حضر الملك ندوة صحفية بصالون الفندق، شهدها أكثر من مئة صحفي، وكان السؤال الأوّل هو: «لماذا عشر بيضات في الفطور يا صاحب الجلالة؟»، وكان جواب فاروق مقتضباً: «لأنّني أحبّ البيض».

جلست إلى جواره ناريمان والأميرات، وقد بدا عليهن الضيق. أما الملك فؤاد، فكان بين ذراعي مربيته آن شيرمسايد، يمصّ رضاعته بهدوء. شرع فاروق بالإشادة بجمال كابري مؤكّداً أنّ تلك هي المرّة الأولى التي يقضي فيها عطلة حقيقيّة. إثر ذلك قدّم ابنه، وأسرّ بأنّ عودته إلى عرش مصر ستكون صعبة. ولم يغفل التلميح

إلى أنه هو المنفي الوحيد، في حين أنّ زوجته وبناته بإمكانهن العودة إلى القاهرة متى شئْن.

ولمّا سأله أحد الصحفيين: «أين تنوي الاستقرار؟» ردّ فاروق بأنّه لم يحسم أمره بعد، وأنّ الشيء الأكيد هو أنه لن يختار إحدى دول أوروبا الشرقية.

«ماذا عن مواردك؟ أهي كافية؟»

ردّ فاروق بنبرة فيها شيء من الحذلقة: «من الآن فصاعداً، أبنائي هم مملكتي. لم أعد رجلاً ثرياً». ثمّ سارع إلى التوضيح: «حسب معايير الفقر، لنقل إنّ حالي لا تدعو للشكوى». ونفى نفياً قاطعاً أن يكون قد حمل معه الثروة التي يزعمون، بل أدان الأصوات التي تتّهمه بتحويل أصول إلى الخارج، وختم قائلاً: «ننوي أنا وعائلتي أن نعيش حياة بسيطة ومتقشّفة».

ووقف إعلاناً عن نهاية الندوة الصحفية.

توالت الأيام رتيبة مليئة بالضجر. وكلّف إيميليو دي كارلو، «ملك المحامين، ومحامي الملوك»، مستشار العائلة الملكية الإيطالية اللاجئة بالإسكندرية، بالبحث عن مسكن يليق بمقامه.

وبانتظار ذلك، كان فاروق يحاول أن يشغل نفسه. كثيراً ما كان يُشاهَد وهو يتبادل أطراف الحديث مع البوّاب، أو يتوصّل بالروايات البوليسية. وكان يرافق بناته كلّ صباح للسباحة بكونزون دي الماري، ثمّ يعهد بهنّ لأستاذة الفرنسية الآنسة طابوري. وبعد زوال كلّ يوم، يحلّ درس البيانو، وهو درس يُلقى بنادي الفندق الليلي في غياب فضاء أنسب. وقد كانت الأميرة فيريال، ذات الثلاث عشرة سنة، أميل الأميرات إلى الموسيقى، بل يمكن القول إنّها تكاد تكون عازفة

بارعة. فهي تعزف شوبان وليزت ببراعة فائقة. أمّا الأميرة فوزية، ذات الميول الفكرية، فكانت تقرأ جان إير، رواية شارلوت برونتي الشهيرة، باللغة الفرنسية.

يخرج الملك برفقة الملكة للتنزه بالسيارة في الريف من وقت لآخر. لكن لا يوجد بكابري غير طريق واحدة، ومن ثمّة لم يكن بوسعهما أن يستقلا غيرها.

وفي غضون شهر سبتمبر/أيلول من سنة ١٩٥٢، انتقلت الأسرة للاستقرار في فيلا دو ـ ميت، الواقعة في مرتفع ألبانو بضواحي روما. وهي بناية ضخمة تضمّ ما يناهز ثلاثين غرفة، مشيّدة على الطراز الأتروري، ومكسوّة بالجص الأحمر. كان إيجارها يبلغ ٥٠٠٠٠ دولار في السنة، وكانت على مقربة من كاستل غودولفو، إقامة البابا الصيفية المحاطة بسور عال، والمحروسة بكلاب الدوبرمان وفرقة من الشرطة الإيطالية.

كانت الأميرات الثلاث يخصّصن معظم وقتهنّ للمدرسين الذين كانوا يتعاقبون عليهنّ، بينما كان فاروق وناريمان يقصّان ذكرياتهما على كاتبين لا علم لأحد بكيفية اختيارهما. ستُنشر مذكرات الزوجين هذه بأوروبا والولايات المتّحدة في مطلع شهر يناير/كانون الثاني من سنة ١٩٥٣.

وقد قدّمت الدار التي تملك حقوق تلك المذكرات عروضاً لمختلف الجرائد المصريّة من بينها جريدة المصري، فأخبر أبو الفتح، الذي كان ما يزال يرأس تحريرها، عبد الناصر بالأمر، واقترح عليه منع نشرها. مهما يقال عن فاروق، فقد كان إلى عهد قريب ملك مصر، ومن غير اللائق عرض حياته الخاصة على الملأ. وافق عبد الناصر على ذلك، لكنّ جريدة الأخبار أعلنت بعد بضعة

أيام عن قرب نشر المذكرات الشهيرة. وما كاد أبو الفتح يعلم بالخبر حتّى حلّ بمكتبه زائر غريب سلّمه نصّ المذكّرات كاملاً مترجماً إلى العربيّة، ثمّ انسحب رافضاً رفضاً قاطعاً الكشف عمن كلّفه بهذه المهمّة. وقرّر أبو الفتح نشر الفصل الأوّل على مضض. وفي اليوم الموالي، أخبره عبد الناصر بأنّه هو من حصل على رخصة النشر من جريدة الأخبار، وأنّه بعثها له مقدّرا أنّه هو المسئول عن نصحه بعدم شرائها، متسبّباً بذلك في الضرّر لجريدة المصري.

لم يكن يمرّ يوم من دون أن يتوصّل فاروق بنصيب من الأخبار السيئة. كان يتابع عاجزاً سقوط رجال حاشيّته: فكريم ثابت، ملحقه الصحفي، وسائقه وطبيبه، يوسف رشاد، كلّهم أودعوا السجن. وصديقه الغالي بوللي الذي خانه، اعتقل وفرضت عليه الإقامة المحروسة. لكنّه لم يبح بشيء سوى ما كان معروفاً لدى المحيطين بالملك.

وغرقت عاصمة مصر في النمائم، ومضى كلّ واحد يكشف عما لديه من أسرار. وتنافس الناس في التشهير، وتباروا في الافتراء طمعاً في نيل رضا حكّام مصر الجدد. هكذا اتّهم الأمير عباس حليم ابن عمه فاروق بالعنّة والغشّ في القمار، واتّهمه بلعب البوكير مع اليهود. إلا أنّ إقذاع الأمير في ذمّ ابن عمه لم يشفع له لدى مجلس قيادة الثورة. فقد حُكم عليه بخمس عشرة سنة سجناً بتهمة الضلوع في تجارة السلاح خلال حرب ١٩٤٨. كما وُزّعت المئة ألف فدان التي كانت في ملك العائلة الملكية على الفلاحين.

لكن أسوأ خبر تلقّاه فاروق كان أواسط شهر أكتوبر/تشرين الأول من سنة ١٩٥٣. ذلك أنّ مجلس قيادة الثورة اتّخذ قرار الكشف عن أسرار قصوره. دُعي الصحافيون من كلّ أصقاع العالم لزيارة الإقامات الملكية، وطافوا بهم على غرف قصر القبة كما يطاف

بالسواح في الرحلات السياحية. كانت قائمة المجرودات بالقصر تضم خليطاً من الأشياء: مجموعة طوابع بريدية يقدّر ثمّنها بحوالي سبعة عشر مليون دولار، وخزانة ملابس تحتوي على ألفي قميص حريري وعشرة آلاف ربطة عنق وخمسين عكازة بمقابض من الذهب المنبّت بالأحجار الكريمة، وصورة مهداة من أودلف هتلر، وقطيع من السلاقي الأفغانية وكلاب صيد كانت تُطعم على نحو أفضل ـ وهو أمر لم يتوانوا في الإشارة إليه ـ من فلاحي بلاد النيل. وتناوبت الأيادي على الإمساك ببيضات الفصح فابيرجي الرائعة والقطع التيبيتية النادرة وصناديق الحلي الصغيرة المليئة بالماس والياقوت. وأظهروا إعجابهم بعدّاد الجيب جيغر الذي كتب عليه: «قيسوا النشاط الإشعاعي بأنفسكم». لكنّ ذروة الزيارة كانت بالتأكيد هي الاطلاع على ما يتصّل بالجانب البرنوغرافي: بطائق بريدية، ورق لعب، روزنامات، كؤوس كوكتيل، فتّاحات قناني، ساعات، ربطات عنق... مزيّنة كلّها برسوم خليعة.

بعد ذلك قاد العسكر، وقد تحوّلوا إلى مرشدين سياحيين، الصحفيين إلى حمامات قصر عابدين المزيّنة بالحوريات؛ ثمّ رافقوهم إثر ذلك إلى الإقامة الملكية الصيفية برأس التين حيث زاروا غرف ناريمان التي تشتمل على حوالي ستين قطعة أثاث من طراز لويس الخامس عشر، وأشاروا إشارة إدانة لنسخة من رواية عشيق اللايدي شاترلي كانت موضوعة على نحو بارز فوق غطاء السرير المصنوع من الساتان. ثمّ جاء دور غرفة نوم فاروق. استعرض المرشدون التليفونات الستة ومنظارات الميدان الخمسة والسبعين، والمسلاط المليء بصور شفافة لمشاهد جنسية بين سحاقيات. وضحكوا هازئين من العدد الهائل من أفلام وولت ديزني للرسوم المتحركة، المرتبة بعناية في المكتبة.

وفي سنة ١٩٥٤ استعانت الحكومة المصريّة بخدمات دار «سوزبي» الشهيرة لكي تطرح للمزايدة مجموع هذه الأشياء بعد أن وضعت في مجموعة أطلق عليها اسم «مجموعة قصر مصر».

ولما علم فاروق يوم الثامن عشر من يونيو/حزيران بإعلان الجمهورية، اكتفى بهزّ كتفيه معلّقاً بنبرة مستكينة: «هذا ما قلت لكم»، وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بأنّ هذا الرجل عاش حياته كلّها مستسلماً للقدر... للمكتوب.

بعد ساعات من ذلك أسرّ خلال العشاء بأنّه يحلم في قرارة نفسه بأن يرى عبد الناصر يرتكب أخطاء قاتلة تُغرق البلد في حرب أهلية، أو يهاجم قناة السويس، فيتدخّل البريطانيون المهووسون بحماية الممرّ البحري. وختم أمنيته بأن حاكى بسخرية السفير البريطاني: «بعد كل شيء يا صديقي، لم تكن بذلك القدر من السوء، فلِمَ لا تعود لتتولّى المنصب الذي كنت تشغله؟»

لكن لم يكن أمام العاهل حينذاك سوى أن يمنّي نفسه بالعودة. على كلّ حال، فوضعه هناك ليس سيّئاً. أليست روما من أروع مدن العالم؟ أصبحت توفّر في الخمسين سنة الأخيرة كل المباهج: سماء زرقاء ومآثر تاريخية رائعة وتكلفة حياة منخفضة وإيطاليات باهرات الجمال. صحيح أنّ المشهد ينقصه فندق الأهرام: نادي الترف (تورف كلوب) والإسكارابيه، لكن لا بأس! يوجد عوضهما الفيا فينيتو وبواط بيغال وبيكولو سلام، ولاسيما سيركولو ديغلي كاسيا، وكذلك النادي الأكثر شعبية في المدينة، وهو «حلقة الشطرنج». كان الملك يذهب إليه على متن سيارته المرسديس الجديدة الخضراء المصفّحة. خضراء في لون العَلَم المصري. لم تكن لعبة الشطرنج وتقنياتها هي التي تجذبه لهذه الأماكن، بل البوكير والباكارا. أما

ناريمان فكانت تلعب الكنستة مع دوقات متعبات وأميرات فارقتهنّ الأوهام.

خلال شهر مارس/آذار ١٩٥٣، أيّ ثلاث سنوات قبل إعلان الجمهورية، قرّرت ناريمان وأمّها السيدة صادق على حين غرّة لمّ الحقائب والسفر إلى جونيف. لقد عيل صبر الملكة. ولما سئلت السيدة صادق عن سبب هذه القطيعة ـ لأنّها كانت فعلاً قطيعة ـ ردّت بأنّ ابنتها لم تعد قادرة على العيش مع زوجها بسبب تنافر طبعيهما. وتنبغي الإشارة إلى أنّ الملكة سافرت من دون الصبي فؤاد، وهو الشرط الذي لم يتنازل عنه فاروق.

ابتهج مجلس قيادة الثورة بالخبر. ففراق ناريمان للملك يؤكّد في نظر أعضاء المجلس طبيعة شخصيته المؤذية. وافقوا على تسليم الملكة جواز سفر جديد (يحمل اسمها قبل الزواج)، وسمحوا لها بالعودة إلى مصر، كما وعدوها بأن يعيدوا لها جزءاً من ممتلكاتها. والحقيقة أنّ كلّ ما استرجعته هي بعض الملابس التي تركتها في خزنتها.

وفي شهر سبتمبر/أيلول، طالبت ناريمان بالطلاق والنفقة، فوكّل الملك محامياً سورياً. وبعد ستة أشهر من الإجراءات القضائية، وقّعت على ورقة الطلاق، ولم تحصل على شيء.

وفي غضون شهر ماي/أيّار ١٩٥٤، تزوّجت ثانية من شاب جرّاح خرّيج جامعة كمبريدج، وهو الدكتور أدهم النقيب. لم يكن والد العريس حاضراً في حفل العرس، فقد كان محكوماً بخمس عشرة سنة سجناً بسبب الرشوة في ظلّ النظام السابق. قبل اعتقاله، كان هو أيضاً من بين قطيع الكلاب التي لاحقت فاروق. وبما أنّه كان الطبيب المكلف بالمحيط الملكي، فقد وصف بتفصيل شديد كيف

كان الملك يجبره على التجوّل عبر العالم بحثاً عن ممرضات جميلات.

قالت ناريمان للصحفيين الذين استدعوا بهذه المناسبة: «ليست السعادة هي العيش في القصور، بل هي الحبّ، هي التوافق بين الزوجين. عرفتُ حياة القصور، لكنّني شعرتُ فيها بالبؤس. أمّا الآن فأنا أعلم بأنّني سأكون سعيدة بقرب أدهم، لأنّه يحبّني وأنا أحبّه».

ستنفصل ناريمان عن النقيب سنة بعد ذلك.

بينما كان الملك يعيش كئيباً في بيته الواقع في ضاحية روما، أثار فيلم موجة غضب بالقاهرة. يتعلّق الأمر بـ«كيو فاديس» الذي لعب فيه الممثل بيتر إيستينوف دور نيرون. في نظر الجمهور، كان نيرون وفاروق يمثلان شخصية واحدة: وفي كلّ مرّة كان يظهر الإمبراطور على الشاشة، كانت الحشود تردّد بطرب طفولي: «عد إلى كابري! عد إلى كابري!»

كان نجيب بدوره مبتهجاً، وخطرت له فكرة أقلّ ما يُقال عنها أنّها طريفة. ربط الاتصال، بكيفية لا أحد يعلم تفاصيلها، بالمنتج والمخرج الأمريكي غريغوري راتوف، واقترح عليه تصوير فيلم طويل يحكي حياة فاروق الماجنة بتمويل مصري. لم يكن راتوف مخرجاً مبتدئا. فهو صاحب مسيرة سينمائية حافلة، إذ أخرج ثلاثين فيلماً من أهمّها أنترميزو، الذي جمع فيه بين الإخراج والتمثيل إلى جانب الممثلة الفاتنة إنغريد بيرغمان؛ وفيلم سابرينا مع أودري هيبوم، ولاسيّما الفيلم الرائع الذي أخرجه جوزيف ماكيفيتش: «كلّ شيء عن حواء»، الذي مثّل فيه مع بيت دافيس ومارلين مونرو وجورج سانديرس.

قد يظنّ المرء أنّ ممثّلاً بهذا الحجم لن يعنيه الانخراط في مشروع ضحل كهذا. لكنّه قَبِل العرض. وسرعان ما دافع عن نفسه

أمام الصحافيين الذين استفسروه بأنّه سيصور فيلماً «بيوغرافيا». غير أنّه لمّا أعلن عن ملخص الفيلم، لم ينخدع أحد بكلامه: «إنّها قصة ملك متهتّك ومقامر، مهووس بالملذات والنساء، يسقط في حبّ عارضة أزياء إنجليزية تدعى روني. لكن روني ستفضّل عليه مستشارها أحمد. ولمّا ييئس من الوصول إليها، سيأمر باختطافها. وبينما سيكون الملك منشغِلا بحفلاته الماجنة، سيثور شعبه ويخلعه». ثمّ أضاف راتوف بنبرة مبالغة في الجدّيّة: «لا علاقة للفيلم بفاروق». وضحك الصحافيون أكثر لمّا أعلن عن عنوان الفيلم: عبد الله العظيم.

التزمت الممثلة كاي كيندل، التي ستسمى لاحقاً ريكس هاريسن، بأن تلعب دور عارضة الأزياء الإنجليزية، وستؤدّي الراقصة المصريّة سامية جمال دور راقصة، وسيمثل سيدني شابلان دور أحمد، العاشق الولهان. وكان من المتوقع أن يمثّل أورسن ويلز دور فاروق، لكنه أحجم عن ذلك في آخر لحظة، فعوّضه راتوف نفسه. أما موسيقى الفيلم فألفها جورج أوريك. وقد رخّص اللواء نجيب للمخرج بأن يمثّل مشاهد الفيلم في «مسرح الجريمة»، أي في قصري عابدين والقبة وكذا بمركب المحروسة. بالمقابل، لم يسمح بتصوير أيّ مشهد بالأهرام كما لم يسمح بظهور أيّ عضو من أعضاء مجلس قيادة الثورة. وقد انتهى تصوير فيلم عبد الله العظيم سنة ١٩٥٥، لكنّه لم يترك أثراً يذكر في ذاكرة عشاق السينما.

رحلت ناريمان، وبُعثت الأميرات بصحبة مربيتهنّ إلى لوزان. وران على فيلا دوسميت جوّ جنائزي، ولم يكن لنباح كلاب الدوبرمان أن يخفّف من وطأة ذلك الجوّ. ما العمل؟ أينِ سيذهب؟ ففاروق يكره الوحدة، والنساء هنّ قوام بقائه، وسلاحه الوحيد لمقاومة الزمن الذي يمضي.

واستأنف الصيّاد مسيرته، وأضاف إلى رصيده عارضة أزياء بلجيكية تدعى سوسي دودري هيبورن، وراقصة دانماركية مولعة برياضة كمال الأجسام، قادرة على لي قضيب حديدي وتمزيق دليل هاتف بأسنانها، والقائمة طويلة. ومع ذلك، لم تستطع أيّ من هؤلاء النساء إرضاءه. فما ينقص هذا الرجل هو الوجه البريء، وجه شبيه بوجه ناريمان لما التقاها صباح ذات يوم من أيام فبراير/شباط ١٩٥٠، وكانت بالكاد أكملت ستّ عشرة سنة. نعم ستّ عشرة سنة... ولمّا التقى سنة ١٩٥٣ بيرجيتا ستاندبرغ، لم تكن تكبر ناريمان إلا بسنتين. كانت باهرة الجمال وجذّابة. غير أنّ الجانب السلبي الوحيد هو أنّها كانت عشيقة أكبر رجل عصابات في ذلك الإبّان وهو لوكي. اضطرّ لوسيانو قبل بضع سنوات من ذلك إلى إخلاء نيويورك وتوجّه إلى إيطاليا. وشاءت الأقدار أن يتقاطع سبيله بسبيل فاروق بينما كانا معاً يتشمسان بكابري بشاطئ كونزون ديل ماري. وسرعان ما اكتشف الرجلان أنّ بينهما قواسم مشتركة. فكلاهما يعيش في المنفى، وكلاهما كان رجلاً قوياً، وكلاهما مولع بالحسناوات. وما لبثت الصداقة بينهما أن استوثقت إلى درجة جعلت لوسيانو يتكفّل بأمن الملك المخلوع. ذلك أنّ فاروق قد يكون أقنع رجل العصابات بأنّ الحكومة المصريّة ستحاول يوماً تصفيته. كان يظنّ، عن حقّ أو عن باطل، أنّه ما زال يشكّل تهديدا بالنسبة للثوار. لم تكن تصفية فاروق بالأمر اليسير بالطبع. ليس لأنّ رستم، رئيس حرسه الشخصي الألباني، لم يكن يفارقه، بل لأنّ الشرطة الإيطالية يقظة كذلك. ومع ذلك قرّر لوسيانو أن يقدّم خدمته للملك، وطمأنه بأنّ لا أحد يستطيع أن يلمس شعرة منه ما دام هو حيًّا.

كانت أوّل مرّة أبصر فيها فاروق بيرجيتا الحسناء سنة ١٩٥٣ على نفس ذلك الشاطئ، وكان بصحبة لوسيانو. ثمّ رآها للمرّة الثانية بعد

ستّة أشهر في ليلة من ليالي يونيو/حزيران بينما كان يلتهم طبق سباغيتي مطبوخ على الطريقة النابوليتانية بمقهى دوني الواقعة بفيا فانيتو. لم تكن بيرجيتا بمفردها. كانت برفقة شخص يعرفه فاروق، وهو الدبلوماسي الأمريكي دونالد بيلير، وهي مناسبة مواتية للملك. سارع إلى طاولتهما، وذكّر الشابّة بلقائهما السابق بكونزون دي لماري قبل ذلك بستة أشهر. وبما أن ذلك فاجأها، بادرها قائلاً: «لا ينسى الملك أبداً وجهاً ملكياً»، فسرت في جسد بيرجيتا قشعريرة. ولعلّ دونالد بيلر شعر بأنّ وجوده لم يعد مرغوبا فيه، فاستأذن بالانصراف تاركاً الملك يستفرد بفريسته.

في حوالي منتصف الليل، رافق فاروق بيرجيتا إلى فندقها، ووعدها بأن يهاتفها لاحقاً، وكانت هذه بداية علاقتهما، وهي العلاقة التي سيحرص الملك على أن تظلّ سرّية بخلاف علاقاته الأخرى، إذ لم يظهر مع عشيقته الجديدة أمام الملأ إلا في مناسبات نادرة.

وقد اكتسبت هذه الحسناء السويدية الشهرة بعد ذلك بسنوات لما نشرت مغامراتها الغرامية في كتاب عنونته بـ«Manplay in Europe» أيّ ما يمكن أن يترجم بـ«لعب مع رجال بأوروبا». وقد خصّصت لفاروق، في كتابها الفاضح هذا، بضع صفحات أوردت فيها وصفاً مفصّلا لأوّل ليلة قضتها معه.

«استثارتني فكرة استمتاعي بهذا الرجل العاري الممدّد على ظهره، الذي كان يتحكّم في رقاب ملايين الناس. قال لي: والآن، أرني مهاراتك أيتها الشابة!»

تقول بيرجيتا إنّها تسللت بين فخذي الملك، ودغدغت أيره الصغير، ثمّ وضعت فمها تحت خصيتيه، ورفعتهما بطرف أنفها

وضغطت بلسانها على شرجه الملكي. شعر فاروق بذعر وارتباك كبيرين، وسألها مستغرباً: «لماذا تفعلين هذا؟»، لكنّها لم تجب، بل استمرّت في تحريك لسانها بلطف. وبعد ساعة من ذلك، ظلّ فاروق يسأل: «لماذا؟»، فردّت: «لأنّني أعلم أنّ الرجال يستلطفون هذا النوع من المداعبة، ولأنّني أحبّ هذه المنطقة الناعمة من الجسد. فهي ضيقة وتحمرّ (هكذا)». فبادرها قائلاً: «وأنت، هل جرّبت هذه المداعبة؟»، «بالطبع، وإلا كيف لي أن أتعلّم ممارستها؟»

ليظنّ المرء ما شاء أن يظنّ حول هذه الكتابات، لكن ثمّة شيئاً واحداً مؤكّداً: كانت بيرجيتا هذه تعرف عن الجنس، وهي في سن الثامنة عشرة، ما لا يعرفه الملك الذي قيل عنه إنّه عاشر من النساء ما يعادل عدد حبات رمل صحراء مصر. وإذا صدّقنا ما قالته هذه الغانية السويدية، تأكّد أن فاروق لم يكن عنيناً، وأنه كان يعاشر النساء على نحو عادي، ويهتمّ بنشوة رفيقته.

وتُعلمنا هذه السيرة الذاتية أيضاً أنّ فاروق، بخلاف ما يُعتقد، كان رجلاً ورعاً. ذلك أن بيرجيتا باغتته أكثر من مرّة وهو يصلي خفية في الحمام.

وقد انتهت هذه العلاقة، على غرار علاقات فاروق السابقة بالفراق بعد بضعة شهور، إذ دخلت حياته امرأة أخرى ستتبوأ مكانة أهمّ من مكانة الحسناء السويدية: إنّها إيرما كابيسى مينوطولو، ابنة الست عشرة سنة، النابوليتانية الأصل. أبوها هو أنطونيو كابيسي مينوطولو وأمّها مارغيريتا كاطاليني. وكان لها جسد شبيه بجسد صوفيا لورين.

لم يكن الفراق هيّناً على بيرجيتا. وخلال آخر مواعيدهما، مدّ لها

جلالته سواراً رائعاً منبّتاً بالماس، واقترح عليها أن ترافقه في سفر عمل إلى سويسرا بدعوى أنّها سكرتيرته، لكنّها رفضت. ألحّ عليها، لكن بلا جدوى. همست له وهي تنتحب:

- سأشتاق إليك، ومن خلالك سأشتاق للحياة.

ابتسم ابتسامة حزينة، وقال:

- أتظنين أنّ شخصاً مثلي يمكن أن يشتاق إليه أحد؟

(١٥)

القاهرة في ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٣.

صرخ عبد الناصر:

- ينبغي إزاحة نجيب! لقد تجاوز كل الحدود!

حدّق أبو الفتح في البكباشي من دون أن ينبس ببنت شفة. وبعد لحظة صمت قال:

- أظن أنك ترتكب خطأً. فالشعب مقتنع بأنّ نجيب شخص بالغ الطيبة ويمقت العنف، هذا عدا أنّه غير راض عن التدابير الاستثنائية التي يفرضها مجلس قيادة الثورة يوماً بعد يوم على البلد. يشاع أيضاً أنّه يشجب مؤسسة محكمة الثورة وكذا الاعتقالات. لماذا لا تبادر أنت بإلغاء هذه التدابير؟ ستُدخل بذلك البهجة على قلوب أفراد الشعب بكامله.

أشاح عبد الناصر بيده قائلاً:

- أنت مخطئ! إن سؤالك عبثي.

قام عبد الناصر وغادر الغرفة منهياً بذلك المحادثة. لم يعد أحد منذئذ يجهل أنّ خلافات الساعات الأولى بين اللواء العجوز والذئاب الشباب تحوّلت إلى هوة سحيقة، وصارت القطيعة مسألة أسابيع، بل أيام. كيف آل الوضع إلى هذا المآل؟

كانت حدّة انتقادات نجيب للضباط الأحرار تزداد يوماً بعد يوم. ذلك أنّه لم يكن راضياً، كما قال أبو الفتح، عن استيلاء العسكر على دواليب الدولة. فالاعتقالات التعسفيّة والمحاكم العسكريّة والتفكيك العنيف لطبقة الملاك، وإنشاء حزب وحيد أُطلق عليه اسم الاتحاد الاشتراكي العربي، مع ما ترتّب عن ذلك من زوال كل مظاهر المعارضة... كلّ ذلك كان أعمالاً غير مقبولة في نظره. وقد صرّح لبعض الدبلوماسيين الأجانب الذين جاءوا ليقدّموا له أوراق اعتمادهم بأنّ هؤلاء الشباب تنقصهم الحكمة. فهم يراكمون الأخطاء، ويقودون البلد إلى الهاويّة.

لم يكن يمضي يوم دون أن يعبّر عن استنكاره لاعتقال هذا الوزير القديم أو إدانة ذاك. ومن أسباب سخطه أيضاً إقالة صديقه أحمد شوقي، محافظ القاهرة، الذي لم يتعب من ترديد أنّ على الجيش أن يعود إلى ثكناته، والرجوع إلى الحياة البرلمانية، وهي الأطروحة التي دافع عنها عبد الناصر منذ الساعات الأولى للثورة.

لم يكن السادات لطيفاً مع اللواء. اتّهمه بأنّه المسئول الوحيد عن التوتّر الذي كان سائدا آنذاك. يقول: «كان الأصل في تعيين محمد نجيب رئيساً لمجلس قيادة الثورة أنّ وجوده سوف يضع حدّا للصراعات داخل المجلس نظراً لأنّنا جميعاً من أعمار متقاربة... أما هو فيكبرنا بكثير... ولكن للأسف فإنّ الذي حدث هو العكس... فقد بدأت صراعات جديدة دخلها نجيب، وفوجئت أنا بحملة ضدّي يقودها محمد نجيب كما أخبرني عبد الناصر ذلك الوقت...»

لقد كانت هذه الحملة من القوّة بحيث بلغت بالسادات إلى حدّ التلويح باستقالته والسفر إلى لبنان للعيش هناك. لكن إلحاح جمال عبد الناصر ثناه عن قراره.

والحقيقة أنّ مشكلة نجيب الوحيدة كانت هي وجوده في حد ذاته. فقد كان بالغ التهذيب واللطف والدماثة... وكان يسعى لإرضاء الجميع: الفلاحين وكبار الملاك، الإخوان المسلمين وأعضاء الوفد والشيوعيين... فانتهى به الأمر أن جلب نقمتهم جميعاً.

وفي الحادي عشر من يناير/كانون الثاني ١٩٥٤، انضافت مسألة أخرى إلى سلسلة الخلافات بين مجلس قيادة الثورة واللواء نجيب. في ذلك الصباح خطب حسن دوح، زعيم الطلبة المقربين من الإخوان المسلمين، في حشد كبير خلال لقاء نظم في حرم جامعة القاهرة بالجيزة تعالت خلاله الهتافات المندّدة بسياسة جمال عبد الناصر. وألهبت شعارات «ليسقط الدكتاتور!» الحماس، كما يحدث في مثل هذه اللقاءات، فاستعمل الإخوان المسلمون الأسلحة النارية والأسلحة البيضاء والهراوات، وأحرقوا سيارة شرطة.

كان ردّ فعل عبد الناصر بالغ القساوة، إذ حظر في الرابع عشر من يناير/كانون الثاني جماعة الإخوان من دون استشارة أحد، وأمر بإغلاق كلّ مقرّاتها واعتقال قائدها الروحي حسن الهضيبي، وكذا المئات من أتباعه. وقد كشف تفتيش بيوت بعضهم عن وجود مخازن متفجّرات، ممّا مكن الشرطة من إلقاء القبض على شبكة إرهابية كاملة.

كان الجميع يعلم أنّ علاقة نجيب بالحركة الإسلامية كانت دائماً علاقة طيبة، لكنّها لم تكن تتعدّى حدود التعاطف والصداقة، ولا تصطبغ بأيّ صبغة سياسية. غير أنّ ذلك لم يمنع اللواء من إبداء غضبه عند اكتشاف العملية التي قادها عبد الناصر.

وفي الثالث والعشرين من فبراير/شباط ١٩٥٤، حلّ بمقرّ مجلس قيادة الثورة وراح ينتقد انتقادا لاذعاً رفاق دربه. ذكّرهم بأنّ الجماعة حلّها فاروق من قبل، وأنّ تصرّفاتهم لا تختلف في شيء عن

تصرّفات الملك المخلوع، وانتقد أساليب عبد الناصر، وختم كلامه مطالباً بحقّ الاعتراض على قرارات المجلس، وإلا فإنّه مستعدّ للاستقالة من منصبه، ثمّ غادر تاركاً أعضاء المجلس مذهولين.

وبمجرّد انصرافه انفجر صلاح سالم، الرائد الراقص، قائلاً:

- ليذهب إلى الجحيم! احنا خلاص زحقنا من أسطورة نجيب ومن غليونه وبسمته وتساهله!

أما عبد الناصر، فطلب مهلة للتفكير.

اجتمع الأعضاء الاثنا عشر من جديد بعد ثمان وأربعين ساعة، أيّ مساء يوم الرابع والعشرين من فبراير/شباط. وحسب ما يرويه بعض الصحفيين الذين كانوا حاضرين في مكتب بالطابق السفلي، تناهت إلى مسامعهم أصوات عالية وجلبة. بل تردّد أنّ السادات أشهر مسدّسه ووضعه على الطاولة.

وعند نهاية الاجتماع، كان القرار قد أتّخذ. وتكلّف صلاح سالم بنقله للصحافة:

- قدم لنا اللواء نجيب استقالته، وقد قبلناها. طالب بحقّ الاعتراض على قرارات المجلس، أيّ بسلطة مطلقة، ولم نستطع الامتثال لطلبه. ثمّ إنّ اللواء كان ينتقد علناً، ولدى الأجانب، القرارات التي اتّخذها المجلس بالإجماع. وقد عيّن البكباشي جمال عبد الناصر رئيساً لمجلس الوزراء.

أهو انقلاب على انقلاب؟ هل يمكن أن نتصوّر أنّ عبد الناصر هيّأ لكلّ شيء؟ لو قمنا بذلك لنسبنا له ميكيافلية فذّة. فما معنى إذن هذا التمزّق غداة ثورة كانت مفعمة بآمال الشعب المصري؟ يتبادر إلى الذهن تفسير واحد.

لبلوغ الهدف الذي حدّده جمال عبد الناصر ورفاقه، كان عليهم

أن يتحكّموا في السلطة السياسة بكاملها. ولكي تنفّذ هذه الجمهورية المؤقتة برنامج الثوار الشباب، كان على اللواء نجيب أن يلتزم بمراجعة مجلس قيادة الثورة في القضايا المهمّة، وأن يقبل الانضمام إلى رأي الأغلبية، لكنّ نجيب لم يكن طبعه طبع رجل يقبل بفرض الإجراءات الصارمة حتّى ولو كان الوضع يستلزمها.

لم يكن هدف الضباط الليبراليين هو أن يحصل ٢٠٠٠٠٠ فلاح على قطعة أرض فحسب، بل أن يحرّروا كذلك أربعة ملايين فلاح من الاستعباد، يشكلون مع عائلاتهم ثلثي سكان مصر. ولبلوغ هذا الهدف، لم يكن أمامهم من خيار سوى كسر شوكة النظام الفيودالي السائد في الريف المصري منذ عهد محمد علي، وتحطيم نفوذ طبقة كبار الملاك الاجتماعي والسياسي. ومن جهة أخرى، لم يكن الوفد والإخوان المسلمون ليرضوا بتهميشهم في المشهد السياسي. فراحوا يتهامسون ويتآمرون، ولم تكن معارضتهم موجّهة ضدّ محمد نجيب الذي كان يتعاطف معهم، بل ضدّ الضباط الشباب.

وفي أوساط العمال، اتّخذ الشيوعيون أيضاً موقفهم من النظام الجديد. ذلك أنّ بعض أعضاء مجلس الثورة، أمثال أحمد شوقي (محافظ القاهرة) وخالد محيي الدين، يتوقون إلى لعب ورقة الروس ضدّ انجلترا، في سبيل إقامة دكتاتورية يسارية لاحقاً، على غرار الأنظمة التي أقيمت في أوربا الشرقية.

يشرح عبد الناصر هذا الأمر قائلاً: «كنّا نستطيع أن نملأ أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التي لا تخرج عن حدّ الوهم والخيال، تماماً كما كان يفعل أجدادهم. سعينا على العكس من ذلك إلى أن نتحرّر من آثار الألفاظ البراقة ومن العواطف المزيّفة. كان هذا هو واجب الثورة، والسبيل الذي رسمته.

وكثيراً ما يجيئني من يقول لي: لقد أغضبتم كلّ الناس. وعلى مثل هذه الملاحظة أردّ دائماً: ليس غضب الناس هو العامل المؤثر في الموقف، وإنّما السؤال هل كان الذي أغضبهم يعمل لصالح الوطن أو لغيره؟ أنا أدرك أنّنا أغضبنا كبار الملاك. لكن، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة وطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم الحكم؟ كانت أقليّة تملك ملايين الفدادين، في حين يعيش ما لا عدّ له من الناس في أقصى مظاهر البؤس. وأنا أدرك أنّنا أغضبنا عدداً كبيراً من الموظّفين. ولكن هل يمكن أن نعطي أكثر من نصف ميزانية الدولة مرتبات للموظفين ولا نستطيع ـ كما صنعنا بالفعل ـ أن نخصّص أربعين مليوناً من الجنيهات للمشروعات الإنتاجية؟ ماذا علينا لو كنّا فتحنا ـ كما فعل غيرنا ـ خزائن الدولة ووزّعنا ما فيها على الموظّفين. ولكن ما الثمّن الذي كان على وطننا أن يدفعه من آماله ومستقبله في مقابل هذا الرضا»

لم تجر الأمور كما كان متوقّعاً غداة استقالة نجيب.

كتبت الصحف على صفحاتها الأولى بالبنط العريض: «رحل نجيب»، وسرعان ما احتشد الناس في الشوارع بشكل عفوي رافعين صوره، وتوجّه مساندوه صوب فيلا الزيتون. سقط الخبر على الشعب كالصاعقة، وساد شعور يمزج بين الحزن والغضب: «لقد طردوا نجيب... طردوه». وسرى الخبر في القاهرة سريان النار في الهشيم، وانتقل إلى أرياف مصر ليتحوّل إلى عاصفة. وخيّم القلق على التمثيليات الدبلوماسية الأجنبية. أمّا نجيب، فاستعاد الطمأنينة: إنّه رمز الوحدة، ليس بين الجيش والشعب فحسب، بل أيضاً بين مصر والسودان بفضل أصوله السودانية؛ السودان التي كانت جزءاً لا يتجزّأ من مصر منذ ما يناهز قرناً ونصف. واصطدم طلبة معادون لعبد الناصر بحاجز للشرطة. ولمّا شعرت دورية الشرطة أنّها فقدت

السيطرة على الوضع، أطلقت الرصاص فأصابت عدداً من الطلبة، لكنّهم نجوا من الموت بأعجوبة.

وفي مساء الرابع عشر من فبراير/شباط، بلغ مجلس قيادة الثورة أنّ ضباط الفرسان مجتمعون بثكنة القبّة. ولعلّ الأمر الأخطر هو أنّ خالد محيي الدين (رجل اليسار) كان يترأسهم. كان واضحاً أنّ ثمّة شيئاً ما يُحبك.

أحاطت المدرّعات بمقرّ مجلس قيادة الثورة من دون أن يعلم بها أحد، وصوّبت فوهاتها على البناية. وفي حوالي الواحدة ليلاً، حُدّدت مهلة للضباط الأحرار، وطولب بعودة نجيب واستدعاء الجيش، والرجوع إلى الحياة البرلمانية.

صُعق عبد الناصر عند سماع الخبر، فأرسل «الرائد الراقص» لاستقصاء الأمر. استقبلته وجوه واجمة، واستنكف المتمرّدون عن التحدّث إليه. هم يريدون عبد الناصر. اتّصل به هاتفياً، فركب سيارته ولحق بهم.

كان الحديث صاخباً. ذلك أنّ خالد محيي الدين، مسنوداً برفاقه، اتّهم البكباشي بتحوير أهداف الثورة، وأنّه استبدل استبداد فاروق باستبداد الجيش. حاول عبد الناصر جاهداً أن يفهمهم بأنّهم إن استأمنوا السياسيين على مصر سيخنقون الثورة ويخونونها من جديد، لكنّ المتمردين ثبتوا على موقفهم، وطالبوا بإعادة نجيب إلى رئاسة الجمهورية، وتعيين خالد محيي الدين وزيراً أوّل. امتقع عبد الناصر، ولم يعد يجد ما يقول، ثمّ انهار في الأخير: «طيّب، نادوا على نجيب، أمّا أنا فسأنصرف، سأستقيل». ركب سيارته، ووجد صعوبة كبيرة في شقّ طريقه بين السيارات العسكرية المركونة حول الثكنة. كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً.

توجّه خالد محيي الدين وبعض مرافقيه فوراً إلى بيت اللواء نجيب ليزفّوا له خبر إعادته إلى الرئاسة. انتهى الأمر، لقد انتصروا!

لكنّ محيي الدين أخطأ التقدير. لم تكن تلك غير البداية.

لمّا علم الضباط الذين ظلّوا أوفياء لعبد الناصر بالقرار، قاموا جميعاً ضدّه، وانطلقت فرق عسكرية موالية صوب بيت نجيب. كان محيي الدين ما يزال هناك. أوقفوه. أما نجيب فنُقل في عربة جيب. انطلقت السيارة بسرعة فائقة باتجاه الصحراء، وهو ما جعل نجيب يوقن بأنّه ميّت لا محالة. لكنّ الأمر كان يتعلّق فقط بإبعاده لترك الوقت أمام الضباط الأحرار لإعادة ترتيب الأمور.

في أثناء ذلك، نُقل محيي الدين إلى مقرّ مجلس قيادة الثورة. هو أيضاً أيقن أن ساعته حانت. لكن لمّا أدخلوه إلى المكتب الذي يوجد به عبد الناصر، واجهه بملامح تشي بالتوتّر والإنهاك. حدّق أحدهما في الآخر لبرهة، ثمّ همس جمال: «أنا ثابت على الالتزام الذي أخذت على نفسي. لنطو الصفحة. بإمكان نجيب أن يعود، وتولّ أنت رئاسة مجلس الثورة. أما أنا، فسأتخلّى عن كل مهامّي كما وعدت».

ثمّ مدّ عبد الناصر إلى مخاطبه وثيقة بحركة خشنة:

- سلّمها لنجيب حتّى يوقّعها. إنّها تنص على أنه يتراجع عن استقالته، ويقبل العودة إلى الرئاسة.

أصيب محيي الدين بالارتباك. هو من كان ينتظر أن يلقى حتفه ها هو ينال مراده. من دون أن ينبس بكلمة، تناول الرسالة واختفى.

وعند مطلع اليوم، دوّى الخبر كالرعد: «عاد نجيب!» وفي الرابعة والنصف بعد الزوال، أكّدت الإذاعة الخبر.

لكن بعض الأصوات من أنصار عبد الناصر استمرّت تدمدم بمقرّ مجلس قيادة الثورة. ذلك أنّ بعض العسكريين مثل أنوار السادات رفضوا الخضوع، واقترحوا قصف جيش الفرسان بالطائرات، لكنّ عبد الحكيم عامر، الذي كان ما يزال يشغل منصب قائد الأركان رفض رفضا باتًّا، وقال: «لن أسمح أبداً بقيام مجزرة بين أركان الجيش!»

صمت مخاطبوه، وزعق صلاح سالم. لا مجال في رأيه لعودة نجيب إلى السلطة، وسانده ضابط آخر، ومضى به الغضب إلى حدّ اتّهام عامر بالجبن. تراجع القائد إلى الخلف وعيناه زائغتان، ثمّ رفع يده إلى كتفيته ونزع نياشينه، ثمّ قال غاضباً: «أستقيل من منصبي! أرفض أن أكون قائد جيش يصدر الأمر لجيوشه لكي تقتتل فيما بينها!»

وانتهى الأمر بالمعارضين أن رضخوا للأمر الواقع على مضض، وبذلك جُنّب الجيش المصري الاقتتال بين مكوناته.

وفي السابع والعشرين من فبراير/شباط، تحرّكت الحشود نحو قصر عابدين الذي عاد إليه نجيب. وتعالت الهتافات بحياة نجيب، وغنّى الناس ورقصوا، وعادت إليهم الحياة. تعالت الهتافات، وأعلن بصوت متهدّج: «سندعو الشعب لانتخاب البرلمان!»

«يحيى نجيب! يحيى صديق الشعب! منقذ مصر!»

بدت هذه الموجة من الابتهاج عفوية. كانت الجماهير تهتف بحياة نجيب، يتخلل هتافاتها بين الفينة والأخرى عبارات التكبير، وهي عبارات كان يستعملها الإخوان المسلمون للتعبير عن غضبهم.

وظهر نجيب أخيراً في الشرفة، وسرت بين الحشود موجة من الغبطة والفرح، وفجأة شقّ رجل طريقه في الزحمة مشهراً خرقة

ملطخة بالدم، وصاح: «إنه دم إخواننا». ولم يكن الرجل غير عبد القادر عودة، مساعد المرشد الأعلى للإخوان المسلمين. حمله أصدقاؤه على أكتافهم، وراح يلقي خطبة ألهبت العواطف، منتقداً الضباط الأحرار، ومطرياً على نجيب. وأومأ له اللواء من الشرفة بأن يصعد إليه. وتملّكت الجمع نوبة من الهستيريا.

واصل عودة التلويح بالخرقة الملطخة بالدم مضفياً على المشهد مسحة درامية. إنّه دم طالب قتلته الشرطة قبل ذلك بلحظات بميدان التحرير بينما كان حشد من الطلبة في طريقهم من الجامعة إلى مقرّ قيادة مجلس الثورة.

لم تكن عودة نجيب المظفّرة إلى الرئاسة في رأي كلّ المراقبين أمراً مرتجلاً. فتجمّع الحشود تحت شرفة القصر، ومظاهر الابتهاج أمام بيت اللواء التي بدأت قبل ذلك بساعات: كلّ هذه «المصادفات» تدعو إلى الاعتقاد بأنّ جماعة الإخوان هي من وقفت خلف استعراض الفرح هذا. لنتذكّر أنّ عبد الناصر أعلن قبل أيام من ذلك عن منع الحركة وإغلاق مقرّاتها، واعتقل قائدها حسن الهضيبي الموجود خلف القضبان.

التحق نجيب بعد ساعات بمقرّ مجلس قيادة الثورة للقاء أشقائه الأعداء. وهناك دارت وقائع تمثيلية الصلح. ووقف الأعضاء الأحد عشر مع «عرّابهم» أمام عدسات المصورين والصحفيين، وأعلنوا أنّ الحادث لا أهمية له، وأنّه لم يكن غير سحابة صيف. وقال نجيب والدموع تترقرق في عينيه: «لا أحفظ أيّ ضغينة. ما فات مات. لنفكّر في مستقبل بلدنا». والتفت إلى ناصر وهنأه على ترقيته إلى منصب رئيس الوزراء.

بإمكان مصر أن تنام قريرة العين.

(١٦)

روما، فبراير/شباط ١٩٥٤

الجوّ لطيف، والبنات على سطيحة فيا فينيرو لم يسبق لهنّ أن كنّ في مثل هذا الإغواء، لكن فاروق لا يكاد يلتفت إليهنّ. لم يعد يذكر الحسناء بيرجيتا التي رجعت إلى أجواء ستوكهولم الباردة. من تشغل بال العاهل اليوم هي إيرما كابيسي مينوتولو. ولدت هذه الشابة يوم السادس من أغسطس ١٩٣٥ بنابولي على الساعة الثانية عشرة زوالاً تماماً. تنتمي لبرج الأسد، وتميل قليلا نحو برج العقرب. وإذا ما صدّقنا أقوال المنجمين، ينبغي أن تكون ذات شخصية مرهفة، تتمتّع بسرعة البديهة والعاطفة الجيّاشة والجاذبية، واعية بالسحر الغريب الذي تمارسه على الغير، بمن فيهم فاروق.

ترك من أجلها فيلا دوسميت وكلابها لكي يستقرّ وسط روما بحي بوريولي الراقي. كانت بيازا أوقليدس تلوح من شرفة الفيلا الواقعة بفيا أرخميدس. فقد استبدل فاروق «بان»، إله المراعي، بحكمة علماء الرياضيات.

في نفس الأثناء، أجّر لبناته وللأمير الصغير فؤاد، «فيلّا» واقعة في ضواحي لوزان. كما عيّن لهم حارساً صارماً هو الممثل الفرنسي جول لوسيان غالاس. كان قد ظهر في الأربعينيات في أفلام مثل وادي جهنّم الذي أخرجه موريس تورنار، ونشيد المنفيين، إلى جانب تينو روسي، وفيلم الحمّى الذي أخرجه جان دي لانوي،

وحانة الجنوب حيث مثّل مع شارل فانيل. كان في الخمسين من العمر ويشبه قليلاً رودلف فالانتينو. وتعود الصداقة بين هذا الممثل والملك إلى سنة ١٩٣٨، لمّا كان الرجلان يلتقيان على طاولة القمار بباكارا أو كازينو بياريتز. ولمّا حطّ العاهل الرّحال بروما، كان الممثّل الفرنسي يجتاز أزمة مادية عصيبة. وقد سرّه أن توسّم فيه الملك المنفي أنّه يستطيع أن يقدّم له خدمات متنوّعة.

أما إيرما كابيسي، فكانت تجري وراء حلم هو أن تصير مغنّية شهيرة، والملك لا يرى مانعاً في أن يرعاها. جنّد لها أكبر أساتذة الغناء، ووعدها بمستقبل فنّي عالمي، ولكن في انتظار ذلك اليوم، كان جلالته بحاجة إلى أن يتسلّى. سافر في بداية شهر مارس/آذار إلى مدينة الأنوار وعاصمة أوروبا التي كان يؤثرها على سائر المدن، ونزل في فندق روايال مونسو، وأمضى فترة إقامته متردّدا على ملاهي بيغال، وماخور وان تو تو الشهير، الواقع في شارع بروفانسا ١٢٢، بالمقاطعة الرابعة، والمُقام بفندق مورا القديم المخصّص للدعارة الراقية، والمؤلف من ثلاثة طوابق ذات نوافذ بيضاء لا تُفتح أبداً.

لم يتعرّف فاروق على بيلي غراهام، المبشّر الشهير، في فضاءات هذا الماخور، بل بفندق روايال مونسو بينما كان يقوم بجولة في أوروبا. بذل غراهام جهوده مراراً لكي يرشد الملك إلى طريق العفّة. ولما ضاق به فاروق ذرعاً، بعث له رسالة موجزة مع غلاس، قال له فيها: «لا يرغب جلالته في أن يلقاك لا اليوم ولا غداً ولا في أيّ يوم آخر».

وقد كان حظّ غراهام أفضل فيما بعد مع أم الروائية الشهيرة باتريسيا كورنويل. كانت باتريسيا ما تزال في الخامسة من عمرها لما غادر أبوها البيت. وبما أنّ صحة أمها كانت متدهورة، فقد فضّلت

أن تعهد بتربية أبنائها إلى غراهام وزوجته روث التي كانت أمّاً ثانية للطفلة باتريسيا. بعد ذلك سيصبح غراهام مستشاراً روحياً لخمسة من رؤساء الولايات المتّحدة، وسينجح في إسماع صوت المسيح لجورج بوش الابن الذي كان يعيش حياة مضطربة غارقة في الكحول.

كان لمحاولات القسّ الأمريكي أثراً عكسياً على فاروق. صار أشدّ انغماساً في حياة الليل. وبينما كان الملك ماضياً فيما يشبه الهروب إلى الأمام، كان دلّال دار سوثبيز، في يوم الثاني عشر من فبراير/شباط، يبيع قطع ماضيه في المزاد العلني. وقد جرى البيع في صالونات قصر القبّة، حيث دعي بعض المشترين المحتملين إثر حملة إشهاريّة كثيفة. بل إن شركة الطيران بواك اقترحت تخفيض تذاكر السفر بين لندن والقاهرة، ووعدت الحكومة المصريّة بأنّ كلّ من صرف أكثر من خمسة آلاف جنيه استرليني، سيسمح له بزيارة تشكيلة فاروق البورنوغرافية، وسيكون بإمكانه حضور بيعها بالمزاد العلني.

وبينما كان الملك يلهو مع السينيورينا كابيسي، علّق على ما يجري في مصر قائلاً: «مهما كان الحكم الذي يمكن إصداره على فترة ملكي، كان الناس يشعرون على الأقل بالأمن، وكانوا أحراراً. كانت المحاكم مستقلّة، ولا تخضع للضغوط. ولم يكن السجناء يتعرّضون للتّعذيب النازي». وقال عن عبد الناصر: «إنّه كالحرباء. قادر على أن يكون كلّ شيء في نفس الوقت: معاد للشيوعيين ومحايد ومساند للسوفييت. سينتهي به الأمر إلى السقوط». ثمّ ختم وبسمة صغيرة تلوح على محياه: «ومن سيعوّضه في نظرك؟»

هل سيستعيد عرشه؟ كان عليه أن يصمد مادياً حتّى ذلك اليوم. كانت أهمّ موارده المادية هبات ملك السعودية. لكن هذا الملك انتقل

إلى جوار ربّه منذ سنة، في التاسع من نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٣، وخلفه ابنه عبد العزيز الذي قدّر ـ من دون شك ـ أنّ لا أمل في عودة فاروق إلى العرش. فقرّر من ثمّة أن يقطع عنه هباته. وبذلك صار الملك يعيش في ضائقة، ممّا دفعه إلى بيع آخر ممتلكاته: يخت فخر البحار الذي كان راسياً، أثناء الانقلاب، بحوض جافّ بإيطاليا. وبالموازاة مع ذلك، وهو أمر قد يبدو غريباً، عرض استعداده للعمل في العلاقات العامة على شركات صناعية إيطالية كبرى، لكنّها رفضت جميعها عروضه. وكان المشغّل الوحيد الذي اتصل به مدير سيرك دانماركي، اقترح عليه أن يشتغل كمروّض فيلة.

كانت سماء روما تزداد قتامة يوماً بعد يوم. كان يتمنّى لو تركه النمّامون والمصوّرون وشأنه، لكنّهم لم يفعلوا. ليست الحيوانات الضارية وحدها التي تنجذب لرائحة الدماء!

لم تكن النمّامة الأمريكيّة الشهيرة إلزا ماكسويل[1] الوحيدة التي شهّرت بالملك. كتبت في مذكّراتها: «رغم أنّ بيوت الملكيّات في أوروبا والشرق الأوسط أنجبت عدداً مهمّا من الشخصيات المستهجنة، فإن فاروق يمثل أفظع أصنافها. أعتزّ بأنّني أثرت عداوته منذ أوّل لقاء لي به سنة ١٩٥٠. كان ردّي على دعوة عشاء أن كتبت له: «لا أتعشّى مع المهرّجين ولا مع قرود الشامبانزي ورجال العصابات».

---

(١) ولدت سنة ١٨٨٣ وتوفيت سنة ١٩٦٣. كاتبة أعمدة وصحافية وكاتبة أغان وممثلة ومنظمة حفلات محترفة. اشتهرت بالحفلات الباذخة التي كانت تنظمها بهوليود، لكنّها اشتهرت على الخصوص بالأعمدة التي كانت تكتبها بريشة مغموسة في الشوكران. فإلى إلزا ماكسويل، صديقة مصمم الأزياء جان باتو، ومستشارته، يرجع الفضل في صياغة شعار: «جوي، العطر الأغلى في العالم»، والذي صاحب طرح هذا العطر في السوق سنة ١٩٣٠ (المؤلف)..

وحلّ موسم الملاحقات! بمجرّد نشر كتاب ماكسويل، بدأت الملاحقات القضائية، وقد بتّت في القضية محكمة فرنسية، إذ حُكم على الكاتبة وناشرها بحذف المقاطع المُسيئة لفاروق، وأن يدفعا له مبلغ خمسة عشر ألف دولار على سبيل التعويض.

في اليوم الموالي لصدور الحكم، أجاب فاروق على صحفي سأله ما إذا كان من الممكن عقد صلح مع إلزا ماكسويل: «نعيش في عصر لم يعد فيه وجود للمعجزات».

بعد ذلك ببضعة أيام، خلال زيارة لدوفيل، منع الملك من دخول الكازينو بدعوى أنّ لباسه ليس لائقاً. هو من أنفق على طاولات القمار بهذا المكان مبالغ تكفي لشرائه، ها هو يُصدّ كما يُصدّ أيّ زبون حقير... يبدو أنّ سلسلة الإهانات لن تنتهي.

بعد ذلك لم تجد شركة الشوكولاته «ميلانز ميلتون» اسماً أكثر أصالة تطلقه على إحدى أشهى حلوياتها من اسم فاروق. وبدت صورة الملك المخلوع في أحد لوحاتها الإشهارية باسما بشفتيه السميكتين. لكنّ المحكمة الإيطالية التي بتّت في القضية هذه المرّة لم تكن في نفس سخاء نظيرتها الفرنسية، بحيث رفضت الدعوى جملة وتفصيلاً.

وحلّ الربيع. ما تزال السينيورا إيرما تتابع دروس الغناء. وكانا يعيشان في شقتين منفصلتين. كان يُخيّل لمن يراهما أنّهما متزوّجان لولا أنّ فاروق كان مواظباً على التردّد على العلب الليلية بالمدينة. وكان بصره يتيه من حين لآخر في أضواء النيون. في ماذا كان يحدّق يا ترى؟ لعلّه يستعيد صورته وهو طفل يجري نحو أبيه، لكنّه لا يعثر عليه. لعلّه يتذكر يان، ابن أخت جيردا سيوبيرغ، مربيته السويدية. يان الذي كان أقرب صديق خيالي إلى نفسه.

(١٧)

القاهرة، يوم ٤ مارس/آذار ١٩٥٤

«قرّر مجلس قيادة الثورة اتّخاذ الإجراءات فوراً لعقد جمعية تأسيسية تُنتخب عن طريق الاقتراع العام المباشر، على أن تجتمع في خلال شهر يوليو سنة ١٩٥٤، ويكون لها مهمّتان:

الأولى: مناقشة الدستور الجديد وإقراره . والثانية: القيام بمهام البرلمان إلى الوقت الذي يتم فيه عقد البرلمان الجديد؛ وفقاً لأحكام الدستور الذي ستقرّه الجمعية التأسيسية . وحتّى تجري الانتخابات للجمعية التأسيسية في جوّ تسوده الحرية التامّة؛ قرّر مجلس الثورة أن تُلغى الأحكام العرفيّة قبل إجراء الانتخابات للجمعية التأسيسية بشهر . وقرّر المجلس أيضاً إلغاء الرقابة على الصحافة والنشر ابتداء من يوم ٦ مارس/آذار، فيما عدا الشئون الخاصة بالدفاع الوطني».

ها هو عبد الناصر يستسلم استسلاما كاملاص. هل معنى هذا أنّه انهار؟ أم أنّه تأكيد لعبقرية سياسيّة فذّة تحوّل الهزيمة إلى نصر؟

مساء يوم الخامس من مارس/آذار، ردّ بمدخل بيته على مجموعة أسئلة طرحها عليه الصحفي الفرنسي جان لاكوتير: «هل تنوي أنت ورفاقك مواصلة مسيرتكم السياسيّة أمام الانتخابات؟» ضحك عبد الناصر، وقال: «بعضنا سيعود إلى ثكناته بينما سيدخل آخرون إلى حلبة السياسة».

مع مرور الأيام، أطلق سراح بعض المعتقلين، فابتهج الطلبة، وتنفّست الصحافة الصعداء، وزادت جرأتها على توجيه سهام نقدها للجيش، مطالبةً بإلحاح بعودة الحياة النيابية.

وجازف الصحفيان أحمد أبو الفتح وإحسان عبد القدوس، رئيس تحرير روز اليوسف، بنشر افتتاحيات حادّة اللهجة، تنتقد العسكر علناً. بل بلغ الأمر بصحيفة المصري أن نشرت رسالة وجّهتها إلى اللواء نجيب، لم يكن كاتبها غير حسن الهضيبي المرشد الأعلى للإخوان، والذي كان ما يزال معتقلاً. وردت فيها عبارات نارية كقوله: «تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين».

أثار وعد نجيب بإقامة برلمان حركة محمومة في كل الأوساط السياسيّة. وبدأ الانشغال بوضع القوائم الانتخابية، وانطلقت عمليات الحشد والمساومات.

وراح عبد الناصر يراقب هذه الجلبة بصمت، لكنّه كان قد شرع في الكواليس، وبسريّة تامّة، في نسج اللوحة التي كان ينوي أن يسجن فيها اللواء نجيب ذا الشعبية الكبيرة، والذي كان يشكّل حجر عثرة أمام مواصلة الأهداف المسطّرة للثورة.

أمر بوصفه رئيس المجلس بتنقيل عقيدين غير مرغوب فيهما، ورقّى خمسة عشر لواء. ثمّ وضع النقابات أمام خيارين: إما سلطة الجيش أو عودة البشوات وامتيازاتهم. فهل غامر الثوار بحياتهم للقضاء على فاروق من أجل السقوط من جديد بين أيدي البشوات؟!

وفي السابع من مارس/آذار عيّن صديقه زكريا محيي الدين في منصب وزير الداخلية. كان يعلم أنّ الرجل، بخلاف أخيه خالد «الشيوعي»، من أكبر المخلصين له. فبفضله سيضمن ولاء الشرطة.

وفي حوالي الثامن من مارس/آذار، سيعتقل أحمد حسين زعيم حركة القمصان الخضر، وعبد القادر عودة، الرجل الذي لوح بالمنديل الملطّخ بالدم يوم المظاهرة التي قامت تأييداً لنجيب. ولقي مجموعة من قادة المظاهرة نفس المصير.

وفي الرابع والعشرين من مارس/آذار، وصل ملك السعودية إلى مصر. وقد خصّه الجنرال نجيب باستقبال مهيب. وفي الخامس والعشرين من نفس الشهر، سيُقدم عبد الناصر على لعبة فيها مخاطرة كبيرة. دفع مجلس قيادة الثورة لتبنّي اقتراح يتمثّل في حلّ هذا الجهاز يوم الرابع والعشرين من يوليو/تموز، أي غداة الذكرى الثانية للانقلاب. لقد نجحت الثورة في البقاء، والأمر الآن بِيَد الأحزاب السياسيّة. عمّت البهجة حزب الوفد، في حين راح الشيوعيون يفركون أيديهم. أمّا الإخوان، فحمدوا الله، وأكبّوا بهمّة على صياغة مشروع دستور ثيوقراطي، بنيّة أن ينافسوا به المشروع المدني المستلهم من الغرب، الذي كان يعدّه علي ماهر وأصحابه.

وفجأة شرعت في صبيحة يوم السادس والعشرين من مارس/آذار ـ وكأنّ الأمر يتعلّق بسحر ساحر ـ صفوف طويلة من المتظاهرين، يرتدي معظمهم بذلة «الحرس الوطني»، وهي ميليشيا يتحكّم فيها أتباع عبد الناصر، تجوب شوارع القاهرة وهي تنادي: «تحيى الثورة... لا حزبية!»، «حافظوا على مجلس الثورة!»، ورافق الحركة سلسلة من الاستقالات الوزارية.

وفي السابع والعشرين من مارس/آذار، شلّت دعوة إلى الإضراب البلد. توقّفت كلّ وسائل النقل العموميّة: القطارات والترام والأتوبيسات، ومضى السائقون والمراقبون يوزّعون مناشير كتب عليها: ينبغي «منع الأحزاب من أن تتشكّل من جديد»، «ليواصل مجلس قيادة الثورة مهامّه»، «قاطعوا الحملات الانتخابية»، وسرعان

ما شرع التجار في مختلف الأنحاء يغلقون محلاتهم كما لو أنّ العدوى أصابتهم. وأغلقت محطّات الوقود أبوابها، وراح الجميع يردّد: «لتسقط الديمقراطية، لتسقط الحرية»، «لا أحزاب لا برلمان»، «يسقط المثقفون».

وفي يوم الأحد ٢٨ مارس/آذار، حاصر حشد هائل من المتظاهرين رئاسة مجلس الثورة، معلنين ولاءهم للمجلس.

لاح عبد الناصر على عتبة الباب، وهو أمر لا ندري ما إذا كان مخطّطاً له أم عفوياً، فرفعته الحشود، وحمله المتظاهرون على أكتافهم. لم يستطع العودة من جديد إلى مكتبه إلا بعد أن داروا به دورة شرفية. وتواصلت المظاهرات حتّى المساء.

وفي حوالي منتصف الليل، علم نجيب بأنّ مؤامرة دبّرت ضدّه، وأنّ حياته في خطر. ورغم أنّ الخبر لم يكن أكيداً، فقد ساوره الخوف. ترك فيلّا الزيتون فوراً، وتوجّه مسرعاً إلى قصر الطاهرة حيث كان يقيم الملك سعود منذ أربعة أيام، وبادره والفزع باد عليه: «جئتك طالباً حمايتك».

استدعى الملك سعود عبد الناصر رغم أنّ الوقت كان متأخّراً ليلاً، وطلب منه توضيحات. لم يتمالك البكباشي نفسه من الضحك. لم يخطر لأحد يوماً أن يتآمر على حياة نجيب. إنّ الاتهام لا معنى له. حرّك الملك سعود رأسه. مهما يكن فالأمر يتعلّق بقضية داخلية.

في اليوم الموالي، توجّه العاهل السعودي إلى المطار عائداً إلى بلده، وسبقه نجيب وعبد الناصر ومسئولون آخرون لتوديعه. كلّ من رأوا اللواء نجيب، لاحظوا شحوبه الشديد. كان يبدو منهكاً. رافق الملك حتّى مدخل الطائرة عند أعلى السلم، بل حتّى قمرة الطائرة حيث اختفى لدقائق.

لمّا ظهر من جديد مترنّحاً، بدا كما لو أنّه سيتهاوى على درجات السلم. وتهاوى بالفعل، لكن عند أسفله.

نقل على وجه السرعة إلى القاعة الشرفية بالمطار. حلّ وزير الصحة الدكتور نور الدين وفحصه. نودي على سيارة إسعاف، لكنّ نجيب استعاد وعيه. انفرجت شفتاه، وسُمع وهو يهمس ونظراته تائهة: «لعنة الله عليك يا جمال عبد الناصر! لعنة الله عليك يا جمال عبد الناصر!»

أعيد إلى بيته بعد ساعة من ذلك حيث وجد في انتظاره حشداً من الأطباء في حالة تأهّب قصوى. أهو التعب والإنهاك؟ أم هي أزمة عصبية أم قلبية؟ وبينما كان نجيب مستلقياً في فراشه محطّماً، كان يقع بمجلس الدولة حيث يشتغل أكبر رجل قانون في مصر، الدكتور عبد الرازق السنهوري، حادث خطير. لم يكن يخفى على أحد أنّ الرجل يشجب الانقلاب على الديمقراطية، ولم يكن يدّخر جهداً في الدفاع عن النظام البرلماني، وانتقاد التدابير التي كان يتّخذها مجلس قيادة الثورة.

كانت الساعة تشير إلى حوالي الثانية عشرة زوالاً لمّا هدّد متظاهرون لا يعلم أحد من أين جاءوا، بمحاصرة مجلس الدولة. هرع ضابط إلى مكتب السنهوري وقد تملّكه الفزع واقترح عليه أن يتكلّم إلى حشد المتظاهرين حتّى يعيدهم إلى رشدهم. فهتف به السنهوري:

- أنا أتكلّم إلى هؤلاء؟ أنت الضابط وتطلب منّي تهدئتهم بينما بإمكانك طلب تدخل القوات بالهاتف لتفرقتهم؟!

أشار إلى الهاتف وأمره:

- هيّا، اتصل!

لكن الضابط لم يمتثل.

كسر الحشد أبواب البناية، ودخلوا إلى باحتها الرئيسة، وفجأة، دفع الضابط السنهوري إلى الأمام وألقى به إلى الخارج ثمّ أشهر مسدّسه وأطلق رصاصتين في الهواء. أكانت تلك إشارة متواطأ عليها لتعيين رجل القانون للمتظاهرين حتّى ينتقموا منه؟ وانهالت الضربات والشتائم على الرجل المسكين إلى أن شارف على الموت. ولولا تدخّل العقيد صلاح سالم الذي حلّ بالمكان، لكان قُتل.

وواصل الجنون الذي حلّ بالمدينة انتشاره.

ثمّ حلّ دور جريدة المصري لتكون هدفاً للمرتزقة. وتعالت أصوات تطالب برأس رئيس تحريرها الذي جهر فيما كان يكتب من أعمدة باستهجانه الصريح لتصرفات صديقه السابق جمال عبد الناصر. وصاح المتظاهرون: «الموت للخائن!» «الموت لأبي الفتح!» لم يكن المتمرّدون يعلمون أنّه ترك مصر إلى لبنان منذ الرابع عشر من مارس حين استشعر دنوّ العاصفة.

في هذه الأثناء أذاع مجلس قيادة الثورة بلاغاً جاء فيه أنّ كلّ القرارات التي اتّخذت في الخامس من مارس/آذار (إجراء انتخابات حرّة، إلغاء الرقابة...) قد أُلغيت لفترة انتقالية تدوم ثلاث سنوات.

في السابع من أبريل/نيسان أعلن العقيد صلاح سالم حلّ نقابة الصحفيين، وفي الثامن عشر مثل الإخوة أبو الفتح الذين يملكون صحيفة المصري: أحمد ومحمود وحسين أمام محكمة الثورة. حكم على محمود بعشر سنوات سجناً وغرامة قدرها ٣٦٥٠٠ جنيه، وحكم على حسين بخمس عشرة سنة موقوفة التنفيذ. وسحب منهم ترخيص الجريدة، وطرد العاملون بها من مقرّها ومن المطبعة. أمّا إحسان عبد القدوس، رئيس تحرير روز اليوسف، فكان نصيبه بضعة شهور من السجن على سبيل الإنذار.

وفي الثامن عشر من أبريل/نيسان، استقال نجيب من رئاسة مجلس قيادة الثورة لصالح عبد الناصر، لكنّه ظلّ رئيساً رغم عزلته المأساوية.

لم يعد بين ابن موظف البريد ببني مرّ وبين السلطة المطلقة إلا خطوة واحدة، لكنّه ما زال لم يقدم عليها حتّى ذلك الحين. كان ما يزال أمامه منافس عليه أن يزيحه من طريقه، وهو منافس قوي: إنّه بريطانيا. فلكي يعزّز سلطته في أعين الشعب، كان عليه مجابهة العدو الموروث، والانتصار عليه حيث أخفق سابقوه.

في أواخر شهر نوفمبر/تشرين الثاني من سنة ١٩٥٢، أيّ بعد مضيّ ثلاثة أشهر على الانقلاب، كان قد أعلن لجريدة نيويورك هيرالد تريبيون: «إننا على أتمّ استعداد لأن نكون معقولين، ولكن الإنجليز مثلاً قد وعدونا طيلة السبعين عاماً الماضية أن يخرجوا من منطقة قناة السويس ولم يخرجوا. إنّ مصر لا تستطيع اليوم أن تطيق مزيداً من المماطلة والتسويف، فإذا شعرت حكومة العهد الجديد ـ بعد هذه الجهود المتصلة التي نبذلها ـ بأنّنا لم نصل إلى تخليص بلادنا من الاحتلال البريطاني؛ فثقوا بأنّ قوّاد الثورة سوف ينسحبون من الحكومة ليستعدّوا لقيادة الشعب في حرب ضدّ الإنجليز، ولن تكون هذه الحرب رسميّة وإنما ستكون حرباً فدائية، سوف تكون حرب عصابات.. سوف تُلقى القنابل اليدوية في جنح الظلام.. سوف يغتال الجنود الإنجليز في الشوارع.. سوف تنتشر أعمال الفدائيين بطريقة تشعر الإنجليز أنهم يدفعون ثمناً غالياً لاحتلال بلادنا.

وعلى أسوأ الحالات سيكون كفاحاً أشبه بقصة «شمشون» التي روتها التوراة. سوف نحطّم المعبد على رؤوسنا ليصيب رؤوس أعدائنا القائمين بيننا أيضاً».

على أنّ قوّات صاحبة الجلالة ظلّت مرابطة سنتين إضافيتين على ضفّتي القناة التي كان قد صمّمها مهندس فرنسي يدعى فيرديناند دو لسيبس، وحفرها ما يقارب مليونا ونصف مليون عامل مصري، قضى منهم ١٢٥٠٠٠ شخص بسبب الكوليرا. ودشّنتها الإمبراطورة أوجيني. وما كادوا يفرغون من شقّها، حتّى صارت إنجلترا لا تفكر إلا في الاستيلاء عليها، مقدّرة أنّ هذا الممرّ الذي يبلغ ١٦٠ كلم طولاً، الرابط بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، يهدّد «طريقها إلى الهند». واستطاع الإنجليز أن يصبروا ويضبطوا أنفسهم، لكن ليس طويلا. لم يدم صبرهم غير ثلاث عشرة سنة، إذ استولت قوات صاحبة الجلالة على الممرّ المائي صباح ذات يوم من أيام سنة ١٨٨٢. وها قد مرّ اثنان وسبعون عاماً وهي ما تزال مرابطة هناك.

وإذا كان عبد الناصر غير قادر على استرجاع القناة، فإنّه لم يدّخر جهداً لدفع المحتلّ إلى الرحيل. وبينما كان البلد في العاشر من يوليو/تموز يعيش اضطراباً عاصفاً، انطلقت المفاوضات مع وفد بريطاني.

وجد الإنجليز أنفسهم في مأزق. لم يكن مخاطبهم هذه المرّة ملكاً ضعيفاً، بل رجلاً قوياً ومصمّماً، يدعمه الجيش. وأدركوا أنّ اللحظة لم تعد تقبل المراوغة والمماطلة. كما أنهم أخذوا تهديد عبد الناصر: «علي وعلى أعدائي»، بمأخذ الجد. لم يكن أمامهم من خيار سوى الاستسلام.

بعد سبعة عشر يوماً من ذلك، غداة ذكرى تنازل الملك فاروق عن العرش، وقّع محمد نجيب وأنطوني هيد، وزير الحربية البريطاني، اتّفاقاً تقبل بمقتضاه بريطانيا سحب قواتها من الأراضي المصريّة بعد مهلة تدوم عشرين شهراً. أمّا قاعدتها العسكرية

الموجودة بمنطقة قناة السويس ومطارها، وكذا مخزن معدّاتها وآلياتها ستظلّ هناك لسبع سنوات أخرى، لكن سيسهر على صيانتها مدنيون بريطانيون. وبإمكان القوات البريطانية إعادة استعمال القاعدة العسكرية في حال هجوم من قوّة خارجية، سواء ضدّ مصر أو تركيا أو أحد البلدان العربيّة. وما كادت شروط الاتفاق تعلن، حتّى أثارت سخط الإخوان المسلمين وبقايا حزب الوفد المحتضر. وتعالت الأصوات تشجب الخيانة والغبن الذي لحق المصريين.

استدعى عبد الناصر في اليوم نفسه رفاقه إلى «استراحة الهرم»، وطلب منهم إبداء رأيهم في النازلة. انهالت الانتقادات كالعادة، وتوالت المناظرات الخطابية والمزايدات، إلى أن تدخّل السادات ووضع حدًّا للجدل: «ما الذي يمكن مناقشته؟ ١٢٠٠ خبير ليسوا عسكريين وتحت حراستنا نحن المصريين؟ هل هذا يخيفنا؟ فليكونوا عشرة آلاف خبير ـ وليبقوا بدلاً من السبع السنوات سنوات عشراً ـ ما قيمتهم وقد حصلنا على استقلالنا وأصبحت إرادتنا حرّة؟ أيّ سياسي أبله يرفض هذا الحلّ لمشكلة عمرها فوق الخمسة والسبعين سنة؟»

تمّ التوقيع النهائي على الاتفاق يوم التاسع عشر من أكتوبر/ تشرين الأوّل من سنة ١٩٥٤ في البهو الفرعوني بالبرلمان المصري. نُصبت مائدة ضخمة بالمناسبة مكسوّة ببساط أخضر عند قدمي تمثال رمسيس الثاني البازلتي.

كان عبد الناصر حاضراً إلى جانب ممثّل وزارة الخارجية البريطانية أنطوني نوتينغ. لمّا تناول القلم الذي ناولوه إياه، تهلّل وجهه، وتهيّأ لمن رآه أنّ شعوراً بالعزّة غمر نفسه. لقد نجح، هو ابن موظف البريد، في ما لم ينجح فيه أحد قبله: إنهاء ما يزيد عن نصف قرن من الاحتلال البريطاني.

لمّا انتهت المراسيم، اكتسى وجهه رزانته المعهودة. لعلّه قال في نفسه وهو يغادر البرلمان إنّ القضاء على الاحتلال الأجنبي أسهل من إنهاض بلد منهك. فالدولة التي يتأهّب لحكمها بمفرده دولة على حافّة الهاوية.

وحين ظهر بعد أيام من ذلك، أي يوم ٢٦ من أكتوبر/تشرين الأوّل على شرفة بورصة الإسكندرية، خاطب الحشود خطاب الظافر. كان الميدان غاصًا بالناس، وانخرط في خطبة من خطبه الطويلة التي لا تنتهي، والتي لا يملك سرها إلا هو. وسُمعت فجأة طلقات نارية. لعلع الرصاص على بعد سنتمترات من المنبر، وتحطّم مصباح كان يتأرجح فوق رأسه. حلّ الذعر، لكن الشرطة تدخّلت بسرعة، وألقت القبض على الرجل الذي أطلق النار: شخص يدعى عبد اللطيف، وكان يشتغل سمكرياً. اعترف عند التحقيق معه بأنّ الإخوان هم من جندوه.

عاد عبد الناصر إلى المنبر بعدما كان قد تراجع بخطوة، وتناول الميكرفون وهتف: «أيّها المواطنون... فليبق كلّ منكم في مكانه... إنّ وقع لي مكروه، ستستمرّ الثورة... لأن كلاً منكم جمال عبد الناصر...»

واستأنف خطبته كما لو أنّ شيئاً لم يقع. واستبدّ الحماس بالجماهير، فتعالت الأصوات معبّرة عن وفائها له. وفي ليلة السابع والعشرين، شرع جهاز الشرطة بقيادة المقدّم زكريا محيي الدين في مطاردة جماعة الإخوان ثانية، واعتقل منهم خمسة آلاف عضو، أحيل ألف منهم على المحكمة العسكرية. وقد مثل سبعة من قيادييهم، من بينهم عبد القادر عودة وحسن الهضيبي، أمام محكمة الشعب. كانت آثار التعذيب بادية عليهم. وحكم على ستة منهم بالإعدام، نفّذ فيهم يوم الثامن من دجنبر/كانون الأوّل سنة ١٩٥٤.

ولم ينج منهم غير مرشد الجماعة. وقد أدلى شيخ الأزهر بتصريح لا يخلو من تنبؤ قال فيه إنه لمّا علم بمحاولة الاغتيال، دعا الله ألا يكون الفاعل من الإخوان...

هذه الكلمات التي قيلت منذ نصف قرن يتردّد صداها اليوم على نحو غريب.

وفي الرابع عشر من نونبر/تشرين الثاني، أيّ بعد مرور خمسة أشهر، استسلم نجيب بعد أن أصابه الإرهاق، فوقّع استقالته وغادر القصر الرئاسي محفوفاً بضابطين، والغليون الشهير في يده. وما هي إلا ساعة حتّى وُضع تحت الإقامة الجبرية، وبذلك خلا المجال لعبد الناصر، وصار سيّد مصر الوحيد.

(١٨)

صار الطريق إلى السلطة سالكاً، وهو نفس الطريق الذي يقود إلى القمع أيضاً.

بين عشيّة وضحاها، تضاعف عدد المحاكم العسكرية. ويوماً بعد يوم، كانت الدولة البوليسية تُحكم قبضتها على البلد. هكذا طُرد عدد كبير من ضباط المدرّعات من وظائفهم بالجيش، كما حكم على خالد محيي الدين الذي كان مسئولا على محاولة الانقلاب لصالح نجيب، بالمنفى القسري بسويسرا. وزُجّ بمئات المناضلين اليساريين، معظمهم من الشيوعيين، في المعتقلات.

وقد كان عبد الناصر يمقت الشيوعيين مقته للإخوان المسلمين.

سأله المؤرخ بينوا ميشان سنة ١٩٥٧ : «هل أنت شيوعي؟» فردّ بشكل فوري وحازم: «كلا أنا لست شيوعياً أنا قومي عربي ومسلم.. ما عساني أفعل بالبروليتاريا العالميّة أو المادية الماركسية؟»

كان عبد الناصر يؤمن بالأمة العربيّة، وكان مقتنعاً بأنّ أمامها مستقبلاً زاهراً، لكن شريطة أن تتّحد. وكما سيشير إلى ذلك لاحقاً، فهو لو لم يقدّر له أن يكون قومياً بالاقتناع، لصار قومياً لدوافع تكتيكية، لأنّ الشيوعيين كانوا سيتجاوزونه، ويخلقون حركة تزعم بأنّها أكثر وطنية منه. وبذلك لم يكن قراره بحلّ الحزب الشيوعي المصري عبثاً.

مهما يكن، فعبد عبد الناصر كان خلال شهر نوفمبر/تشرين الثاني

قد عقد العزم على استئصال كلّ أشكال المعارضة، وهو أمر لم يخفه.

قال البكباشي لأمين سرّه أبو الفتح قبل اضطراره للهجرة إلى لبنان بأسابيع:

- ها هي مؤامرة جديدة! تصور! لقد اكتشفنا أنّ ضابط صف يدعى رفعت شلبي يدبّر انقلاباً. هل سمعت به؟

أجاب أبو الفتح أنّ لا علم له بالخبر، وسأل عبد الناصر كيف علم بذلك.

- نجح عملاؤنا في التسلل إلى شقة شلبي، وثبّتوا فيها أجهزة تسجيل مكّنتهم من التقاط كلّ ما كان يدور في الاجتماعات التي يعقدها هذا المتآمر. بل اكتشفنا بين هذه التسجيلات إعلاناً معدًّا لكي يذاع على الشعب المصري.

كان ذلك إيذاناً بملاحقات طويلة لخصوم النظام.

شجّع هذا النجاح النظام على جلب كميات كبيرة من أجهزة التنصت المتطورة كالساعات المسجِّلة، وهي عبارة عن آلة تسجيل توضع في جيب السترة الداخلي وتوصل بساعة اليد. وسرعان ما صار خدم الفنادق والنوادي التي ترتادها البورجوازية القاهرية يستعملون هذه الساعات، كما صار يستخدمها كثير من المدنيين في المصانع والإدارات والجامعات.

هكذا نشأت شبكة استعلامات واسعة أطلق عليها اسم المخابرات، كان يرأسها زكريا محيي الدين.

وصار التنصّت على المكالمات الهاتفية شائعاً، وقد كان أبي أحد ضحاياه خلال حادث مفتعل سنتطرق له لاحقاً. لم يكن النظام يترك

أحداً: وزراء وكبار موظفي الجيش وصحفيين وأساتذة جامعيين ونقابيين. ولتثبيت دعائم شبكته، لم يتردّد محيي الدين في تحويل ـ بواسطة المال ـ السائقين وماسحي الأحذية ونادلي المقاهي وخدم الفنادق، وبوابي العمارات بطبيعة الحال، إلى جواسيس. حتّى النساء وُظّفن في هذه العملية الضخمة.

همس أبي وهو يهوي على الأريكة:

- انتهى الأمر. لقد وضعوا الأختام على الإسكارابيه. قطعوا مصدر رزقنا.

نهاية مارس/آذار ١٩٥٥: عاد أبي إلى البيت واجماً لا ينبس بكلمة. اختفت الابتسامة الأبدية التي لم تكن تفارق محياه.

كنت قد أكملت ثماني سنوات. سمعته يتكلّم. ماذا تعني حكاية الأختام هذه؟

أمّا أمّي ففهمت، وشعرت بالانهيار.

- لا شيء يا صغيري، لا شيء... لا تقلق. هيّا اذهب لغرفتك لتلعب.

انصرفت على مضض، لكنّني أرهفت السمع لعلّي ألتقط ما يدور بينهما.

هكذا علمت أنّ جنوداً حضروا إلى النادي فجرا، كسروا الأبواب، وأفرغوا الخزانات التي كانت تحوي ملفات المحاسبة، وانصرفوا بعد أن وضعوا أختام الشمع على كلّ الأقفال. قال الضابط المسئول: «خلاص! انتهى. لن يدخل أحد هذا المكان النجس بعد اليوم».

انقطع مورد الرزق ولم يعد ثمّة عمل ولا مستقبل.

لكن كان ثمّة ما هو أدهى. تهدّج صوت والدي وهو يقول:

ـ حكموا عليّ بالإقامة المحروسة على غرار بوللي، ولست أعلم كم ستدوم.

قالت أمي مذعورة:

ـ سيأخذونك؟! إلى أين؟

ـ لن يأخذوني. سأظلّ حبيس المنزل.

ـ لماذا؟ بماذا اتّهموك؟

ـ بصداقة الملك والتواطؤ مع القصر... اجلسي.

الإقامة المحروسة. عبارة أخرى لم أفهم معناها، لكن دلالتها ستتّضح لي لمّا سألاحظ بعد بضعة أيام وصول جنديين مكلّفين بحراسة باب شقّتنا. وما يدعو للسخرية أنّهم أجبرونا على إيوائهما وإطعامهما. كنت أراقبهما بطرف عيني. لماذا يحملان السلاح؟ كان أبي طيلة حياته يكره الأسلحة. ماذا يظنّان نفسيهما؟ لم يكونا يخيفانني ببزّتيهما الواسعتين، وأكمامهما التي تتجاوز أيديهما، وياقتيهما البالغتي الاتّساع. كان يبدو عليهما الارتباك أكثر من أيّ شيء آخر، وكانا يعتذران لأمّي عن الإزعاج، فكانت تجيبهما بابتسامة متعبة وهي تشير إلى غرفة الضيوف التي قضيا فيها سنة كاملة. كان أحدهما يصحبني كلّ صباح حتّى باب المدرسة، وينتظرني عند الخروج ليرافقني إلى البيت.

نسيت اسم هذا الجندي، لكنّني لم أنس وجهه. كان شاباً لم يجاوز العشرين. ومع مرور الأيّام، صرت أستلطفه. وجدت فيه، وأنا الولد الوحيد، رفيقاً مخلصاً. لم نكن نتحدّث أبداً في الأمور الجادّة. لم أكن ألمس في نفسي القدرة على ذلك. كان يداعبني ويحدّثني عن

عائلته. وكان يغبطني على أنّي أدرس في أشهر مؤسسة بالبلد: ثانوية العائلة المقدسة، وهي الثانوية التي زوّدت مصر، على مدى نصف قرن، بثلّة من قادتها، درسوا على يد اليسوعيين.

استقبلت أوّل فوج من تلامذتها سنة ١٨٧٩ (وكان تعدادهم حوالي ثلاثين تلميذاً) بقصر بوغوص الذي شيدته شخصية أمريكية راقية كانت قد خدمت في عهد محمد علي. وبازدياد عدد التلاميذ المطّرد في السنوات الموالية، كان من اللازم البحث عن مكان آخر أوسع.

وفي سنة ١٨٨٢، راح الأب جوليان (وقد ذكره شاتوبريون في رحلته)، أوّل ناظر يبحث عن قطعة أرض، ووقع اختياره على حقل لَفْت يقع بحي الفجّالة، وكانت ما تزال آنذاك ضاحيّة من ضواحي القاهرة. لم تكن محطة القطار القائمة الآن قد شيّدت بعد. كانت ما تزال في طور البناء. وفي السادس عشر من سبتمبر/أيلول من سنة ١٩٨٤، خلف الأب أنطوان فوجول الأب جوليان. وصل إلى مصر بنيّة التخلّي عن المشروع نظراً لانعدام الإمكانيات. وبعد أن حلّل القسيس الوضع، ارتأى أنّ الإعراض عن مشروع بديع كهذا سيكون خسارة. واستمات في المرافعة عن القضية لدى رؤسائه حتّى حصل منهم على الاعتمادات اللازمة.

هكذا وضع الحجر الأساس للبناية في الثاني والعشرين من أبريل/نيسان من سنة ١٨٨٨ بحضور الوزير الأوّل نوبر باشا، والهيئة الدبلوماسية والأعيان.

وأعلن الأب فوجول أمام الحضور بفخر: «هنا سيُقام حصن التربية والتعليم، حصن مُسالم سيكون مِلككم جميعاً، لكلّ واحد منكم الحقّ فيه. أردنا أن نردّ لمصر شيئاً من كرم ضيافتها وذلك

بتمكينها من مؤسسة تربّي أطفالها على العلم ومكارم الأخلاق. ستغمرنا السعادة إن استطعنا إهداءها قريباً جيلاً من المثقفين الطيبين، وطائفة من الشباب يسخّرون ذكاءهم وعلمهم وأذرعهم لخدمة وطنهم...»

أوّل ما يستقبل الداخل إلى الثانوية تمثال للعذراء منصوب على حوض من الزهور، يستند على مدخل ذي أدراج يقود إلى البناية الرئيسة. خُصص الطابق الأول وكذا ثلث الطابق الأرضي لقاعات الدرس. أما الطابق الثاني فيضمّ غرف القساوسة وقاعة التمريض وكذا مكتب الأب ناظر المدرسة والأب المدير. وتوجد بالهيكل الرئيس نوافذ ضخمة مجهّزة بقضبان. وعلى بعض الأسقف، كانت ما تزال بعض الخطاطيف ظاهرة تشهد على العهد الذي كان الناس يستضيئون بقناديل الغاز.

كنا نشتري اللوازم المدرسية بداية كلّ سنة دراسية من دكّان موجود بالثانوية. لم تكن الأغلفة البلاستيكية قد ظهرت بعد، لذلك كان التلاميذ يستعملون أغلفة من ورق أزرق يغلّفون بها الكتب والكراريس. كما أن البذلة الموحدة ـ المكونة من سروال رمادي وقميص أبيض وربطة عنق وسترة رياضية ممهورة بشعار CFC ـ كانت إلزامية.

لم يكن يُسمح للتلاميذ في الفسحة بالانعزال. هم ملزمون بالمشاركة في ألعاب جماعية. كان لنا الاختيار في القسم الرابع، المكوّن من الصف السادس والخامس، بين ثلاثة ألعاب: عكازات البهلوان ومعارك التروس ثمّ جولات العَلَم. أما عكازات البهلوان فكان اللاعب فيها يحاول أن يضرب بشدّة عكازة خصمه إلى أن يسقطه أرضاً.

في حين كانت لعبة التروس أكثر إثارة، بحيث تقسّم ساحة المدرسة نصفين يفصل بينهما نهر وهمي يعلوه جسر صغير من خشب. وكانت تتواجه فرقتان مجهّزتان بتروس من صفائح معدنية، وتتقاذف بكريّات صغيرة من القماش. فإذا ما أصابت كرة لاعباً يغادر الميدان، وهكذا وذواليك إلى أن يغادر جميع لاعبي أحد الفريقين، فتنتهي الجولة. وتنبغي الإشارة إلى أنّ هذه الكريات كانت في صلابة كرة مضرب، ومن ثمّة كان حريًّا باللاعب ألا تصيبه في وجهه.

أما جولات العلَم فكان يلعبها أيضاً فريقان. كانا يحملان أسماء طيور جارحة: النسور والعقبان. يُرْكَز علمان، أحدهما أحمر والآخر أزرق، في طرفي الساحة. وتقضي اللعبة أن تعيّن كلّ فرقة بالتناوب «مبعوثاً» ترسله لجلب علم الفرقة الأخرى، فإذا اعترضه الخصوم، ألقى بالعلم أرضاً وعاد، فينطلق لاعب آخر لإنجاز المهمّة، وهكذا.

كانت دروس الإنشاد اختيارية، لكنّني تسجّلت فيها طمعاً في أن أكون من بين أعضاء الجوقة الكورالية. وقد كانت تلك وسيلة من بين وسائل أخرى للترويح عن النفس. لكنّني طُردت منذ الحصة الأولى بدعوى أنّ إنشادي ينشز عن المجموعة. يساورني الضحك لما أتذكّر أنّني انخرطت (من دون وعي منّي) بعد سنوات من ذلك بباريس في مشروع لدراسة الغناء وكتابة الأغاني. وهو مشروع ما لبث أن أُجهض، لكنّني مع ذلك توفّقت في تسجيل بعض الأسطوانات... وكانت قمّة النجاح لما فُزت بالمسابقة التي نظمتها أوروبا ١. وكانت مكافأة هذا التتويج أنّني غنّيت على خشبة الأولمبيا. تمنّيت ذلك المساء لو أن الأب الذي طردني من الكورال كان حاضراً.

كان مدير الثانوية هو الأب بريفو، وهو رجل بالغ الأناقة

الجسدية والمعنوية. أما الأب المحافظ، فكان من أبغض الناس الذين كُتب لي لقاؤهم. كان اسمه رفائيل خزام، وهو مصري من الأقباط الكاثوليك. لم يُصبني أحد بمثل ما أصابني هو من رعب. كانت قاعة الدرس التي نجتمع فيها لإنجاز فروضنا مكوّنة من مصطبة عالية ينتصب فوقها الحارس العام، وقد أطلقتُ عليها اسم «برج المراقبة». كان ثمّة في جانبي القاعة صفّان من القمطرات السوداء ببابين كنا نرتّب فيها لوازمنا المدرسية. وكان يمنع علينا منعاً تامًّا وضع الأقفال عليها. كثيراً ما كان الناظر يحلّ على حين غرّة، ويروح يفتش لوازمنا كما يفعل رجال المخابرات.

كانت كلّ حصة تبدأ بصلاة قصيرة، يُمنع فيها بالطبع النبس ببنت شفة. كانت أبسط إغفاءة أو طرفة عين مشبوهة تساوي العقاب فوراً. وفي حال الشرود، كانت العقوبة تتراوح بين كتابة مئة سطر والحجز أو الركوع على الركبتين فوق البلاطة مع شبك اليدين لمدّة معيّنة. كانت العقوبات الجسدية شائعة، وكانت من حيث المبدأ تقتصر على ضربات بالمسطرة على راحة اليد، أو ضربات بالبركار الخشبي الذي ترسم به الدوائر على اللوح الأسود. ما زالت أردافنا وبطات أرجلنا تذكر ذلك.

كان موعدنا كلّ سبت (وكان يوم الجمعة يوم عطلة) مع اللحظة التي يهابها الجميع: الإعلان عن علامات الأسبوع المنصرم. كان المحافظ يدخل حجرة الدرس بخطى عسكرية، فيعلن الناظر عن مجيئه بقرع الجرس، ويسارع إلى ترك مكانه له. بعد أن يلقي نظرات واجمة على الصفّ، ويتفحّص الوجوه التي شحبت، يدعونا للجلوس، ويبدأ إشهار العلامات، تتخللها تعليقات ساخرة في الغالب، ونادراً ما تكون إطراء. كانت هذه الدقائق الثلاثين تنتهي بالنسبة إليّ، مرّة كلّ أسبوعين، بعبارة: «ستُحجز لساعتين».

كان لكلّ قسم أستاذ مفوّض يدعى «الأب الروحي». كانوا يوزّعون علينا كلّ أسبوع «أوراق اعتراف» يكتب عليها المذنبون منّا، بالفعل أو بالقوة، أسماءهم. وقد كنت من أوائل المترشّحين لصلاة التوبة، لا لأنّني كنت من المنذورين للحرمان الكنسي، بل لأنّ ذلك كان يتيح لي فرصة التغيّب عن الدروس طيلة الفترة التي يستغرقها الاعتراف. كنت أحرص على أن أمضي أطول مدّة هناك حتّى لو تطلّب الأمر منّي الاعتراف بأكثر الذنوب شذوذاً.

كان إيقاع العمل قاسياً على الصبيان. علينا أن نصل إلى قاعة الدرس قبل الساعة السابعة والربع، فنتوجّه إلى المصلّى لإقامة القداس. يا له من قداس! سيظل يتردّد في مسامعي طيلة حياتي. نعم «سأظل أسمعه» ما حييت. يقف الحارس العام متصلّبا تحت المنبر، يمسك بين يديه شيئاً من الخشب شبيهاً بكتاب الصلاة، يفتحه ككتاب حقيقي. كنّا نسمي أداة التعذيب تلك «المصفق». لمّا يصفقه مرّة، يقف الجميع، وحين يصفقه مرّتين، نجلس جميعاً. فإذا صفقه ثلاث مرّات، جثونا على رُكَبنا. وكانت هذه الصفقات الجهنّمية تدوم طيلة القداس. ما زال صوتها يتردّد في سمعي إلى اليوم. وما زلت حتّى اليوم كلّما سمعت أذناي صوتاً شبيها بها، أجلس إن كنت واقفاً، وأجثو إن كنت جالساً.

في الثامنة والربع يشرع درس الفرنسية، ثمّ يتلوه درس اللاتينية. وعند العاشرة نخرج أخيراً للفسحة. وفي العاشرة والربع، نصطفّ ونعود للدرس. وكان هذا ديدننا إلى الساعة السابعة مساء، حيث يكون الإرهاق قد أخذ منا مأخذه. وحتّى هذه الساعة لا يكون العمل قد انتهى. فعند العودة إلى البيت كان علينا أن نراجع دروسنا.

رغم ما قد يبدو في الأمر من تناقض، ورغم أنّني كنت أجد هذا

النوع من الانضباط آنذاك شاقّاً وغير محتمل، إلا أنني مقتنع بأنّ لهذا الأسلوب مزيّة، وهي أنّه يجعل الشخص يقدّم أفضل ما عنده، وينمّي لديه شيمتين اثنتين: الصبر على الشدائد والرغبة في تجاوز الذات.

رافقني حارسي إلى البيت. كانت تطفو على المدينة رائحة أشبه برائحة الكبريت. أبي جالس إلى مكتبه. تنبعث من المذياع أنغام كلاسيكية. دنوت منه، فرفع عينيه نحوي ومدّ لي ذراعيه.

- هل أنت بخير؟

حرّكت رأسي بفتور. وبينما كنت أشدّ نفسي إليه، ألقيت نظرة على المكتب، فأبصرت أوراق اللعب منشورة.

- أتلعب؟

- نعم، ألعب لأزجّي الوقت...

- كيف؟

حرك رأسه بأسى، وقال:

- ألعب بمفردي.

كان قد مضى شهران على سجنه في البيت، وكانت المرّات النادرة التي سُمح له بالخروج فيها هي الحضور إلى مصالح المخابرات. كانت الأسئلة التي يطرحونها عليه في التحقيقات لا تتغيّر: ما علاقتك بفاروق؟ كم مرّة كان يتردد على النادي ليقامر؟ هل سمعت عن عمليّات تحويل أموال إلى مصارف أجنبية؟ وأنت، كم حوّلت إلى الخارج؟ هل تعلم أن هذا الأمر يسمّى: تهريب رؤوس الأموال؟ وقد يكلّفك عشر سنوات سجناً؟ من صالحك أن تتكلّم.

مسكين أبي! آه لو علم معذبوه بأنّه لم يتمكّن طيلة حياته من توفير مليم واحد. فما كان يفضل له من مال كان يقامر به، أو يوزّعه على المحتاجين من أصدقائه. وقد كانت أمّي تتدبّر أمرها لتدّخر بعض المال للأيام العصيبة. ولولا هذه المدّخرات، لما استطعنا العيش كلّ تلك المدّة التي أوقفوه فيها عن العمل.

وقد آل أنطوان بوللي إلى نفس المصير. احتجز هو أيضاً في بيته الذي يوجد على بعد بضعة شوارع من مسكننا. فبعد أن نكدوا حياته ولاحقوه، عاش محاصراً، يراقبه العسكر ليل نهار، وذاق مرارة الوحدة الرهيبة. أمّا زوجته وابنه ماريو، فطردا من البلد. وقد سعوا بكل الوسائل لأن ينتزعوا منه معلومات عن «كنز» الملك الشهير: الترهيب والتهديد. أفلت من شيء واحد هو التعذيب. لكنّه ثبت ولم يبح بكلمة واحدة. أنكر كلّ شيء جملة وتفصيلاً، فحكم عليه بألا يغادر مصر أبداً. ولم يُرفع عنه هذا المنع إلا مرّة واحدة، وذلك لتمكينه من لقاء زوجته التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة بإيطاليا.

اليوم على كلّ حال، ليس من المستحبّ أن يجهر المرء برأيه في شوارع القاهرة، ومن ثمّة يتواسى الناس بين جدران المنازل، وفي عتمة المقاهي بتبادل النكت التي سمحت للعامة بالاستمرار في الحياة رغم الجوع والخوف، كما لو أنّ كلّ هذه المصائب لا تعنيهم.

- أتعلم آخر الأخبار؟ تقدّم بالأمس ثعلب مصري من الحدود الليبية، فسأله الجمركي: لماذا ترغب في مغادرة مصر؟

فأجابه الثعلب:

- لأنّهم يرمون بالجِمال في مصر في المعتقلات!

- أنت ثعلب، ولست جملاً!

- صحيح، ولكن الله وحده يعلم كم يلزمهم من الوقت ليدركوا ذلك!

يبدو أنّ النكتة أضحكت عبد الناصر كثيراً لما بلغت أعضاء مجلس قيادة الثورة، لكنّ الشعب كان يضحك ضحكة مغتصبة...

(١٩)

كان سفير الولايات المتّحدة بالقاهرة، كافري، أوّل من ربط الاتصال بالنظام الجديد. كان ردّ فعل العم سام غداة الانقلاب هو محاولة الاستفادة من الوضع الجديد وذلك برفع عدد دبلوماسييه بشكل ملموس، والذين كانوا في معظمهم (وهو أمر لم يكن يعلم به أحد آنذاك) ينتمون إلى وكالة المخابرات الأمريكيّة. وقد وظّفت هذه الجماعة كلّ وسائل الإغراء، حتّى أكثرها غرابة، لاستمالة القادة المصريين الجدد. والوقائع شاهدة على ذلك.

بينما كان عبد الناصر وقادة مجلس الثورة يتداولون صباح ذات يوم من أيام سبتمبر/أيلول ١٩٥٢ حول مشروع تشييد برج يستعمل للاتصالات الدولية، قال له أحد العسكريين الحاضرين:

- لا يشكّل هذا عقبة أمامنا بما أنّنا نتوفّر على الموارد المالية.

فبادره البكباشي مستغرباً:

- كيف؟! عن أيّ موارد تتحدّث؟ ليست هناك أموال مرصودة في الميزانية لهذا الأمر.

وتهلّل وجه العسكري:

- المال جاء من اعتماد أمريكي خاص.

كانت هذه هي أوّل مرّة يسمع فيها بوجود اعتماد خاص. قيل له عندئذ إنّ وكالة المخابرات الأمريكيّة وضعت تحت تصرّف اللواء

محمد نجيب ثلاثة ملايين دولار. كان المبلغ قد تسلّمه ضابط في المخابرات المصريّة يعمل كضابط اتّصال بين المخابرات المصريّة ووكالة المخابرات الأمريكيّة. وقد تمّت العملية في شقّة بحيّ المعادي، على بعد ثلاثين دقيقة من القاهرة.

دهش البكباشي، وقال:

- وأين هو هذا المبلغ الآن؟

- في مكتب الرئيس، بخزانة اللواء نجيب.

قفز عبد الناصر من مقعده، وهرع إلى الجنرال الذي أكّد له الخبر مع إضافة تفصيل مهمّ:

ليس للمخابرات الأمريكيّة علاقة بهذا المبلغ، هو هبة من الحكومة الأمريكيّة.

سأل عبد الناصر:

- ما الغاية منه؟

- إنّها اعتمادات مالية توضع عادة رهن إشارة قادة بعض الدول لتمكينهم من تمويل مكافحة الشيوعية.

طلب عبد الناصر، وقد سيطر عليه الذهول، أن يودع المبلغ بخزينة إدارة المخابرات، وأمر بعدم صرف أيّ شيء منه إلا بإذن من مجلس قيادة الثورة.

وفي الأشهر اللاحقة، بدأ يلوح على ضفاف النيل برج غريب من الإسمنت المسلّح. كان من المقرّر في بادئ الأمر أن يكون برجاً بسيطاً وعملياً، يعلوه هوائي لاسلكي، لكنّ عبد الناصر كان له رأي آخر. قرّر أن يبنيه كنصب يشهد على حماقة وكالة المخابرات

الأمريكيّة، فاستخدم الثلاثة ملايين دولار لبناء برج فخم مزركش، يعلوه مطعم دوّار يطلّ على القاهرة بكاملها. وقد لقي البرج انتقاداً شديداً عند تشييده لأنّ الناس لم يكن بوسعهم أن يفهموا سبب إهدار المال في بنائه. من يستطيع أن يخمّن مصدر هذه الأموال؟ أمّا هندسة المطعم الباذخة، فعدّت إهانة للمخابرات الأمريكيّة.

قبل وفاة عبد الناصر بقليل بقليل، وقف على شرفة فندق هلتون وتطلّع إلى برج القاهرة، وقال لصديقه المخلص محمد هيكل: «لا تتكلّموا. حذار. إنّنا موضع مراقبة»، فسأله هيكل: «لكن ممّن؟» فأجاب مشيراً إلى البرج: «من وكالة المخابرات المركزية الأمريكيّة».

هكذا أقدم العقيد الذي صار رئيساً، في ظلّ هذه الأجواء الخاصة، على سلسلة من الخطوات ستكون عواقبها حاسمة، سواء بالنسبة لمستقبل البلد أم بالنسبة لمستقبل المنطقة والعالم بأسره. لفهمها، لا بدّ من العودة قليلاً إلى الماضي.

بعد مضيّ ثلاثة أشهر على الانقلاب، واطمئنان عبد الناصر إلى الموقف الأمريكي منه، عبّر للبيت الأبيض عن رغبته في شراء أسلحة.

كان أوّل ردّ فعل للسلطات الأمريكيّة هو الاستغراب. أخبروا البكباشي أنّ عقداً كان قد وُقّع مع الملك فاروق غداة حريق القاهرة بمبلغ خمسة ملايين دولار. بل إنّهم توصّلوا بلائحة الأسلحة المرغوب فيها. وعند مراجعة تلك اللائحة، لاحظ عبد الناصر أنّ الأسلحة المطلوبة لا تتناسب بتاتاً مع حاجيات الجيش المصري. كان الأمر يقتصر على تجهيزات موجّهة للأمن الداخلي. ففاروق قدّم هذا الطلب استشعر قدوم العاصفة.

استدعى عبد الناصر إذن في الأسبوع الأول من شهر أكتوبر/

تشرين الأوّل سفير الولايات المتّحدة جيفيرسن كافري، وأخبره بأنّ قائمة الأسلحة المطلوبة تحتاج إلى مراجعة. وشرح له بأنّ أحد بواعث الثورة هي حالة الجيش المصري البئيسة. فما تحتاجه مصر هو سلاح يؤمّن حدودها. وإذا ما استجابت الولايات المتّحدة لطلب مصر، فإن ذلك سيبوّئها مكانة متميّزة ليس في مصر فحسب، بل في كل المنطقة. وختم البكباشي حديثه بأنّه يلتزم رسمياً بعدم استعمال ذلك السلاح إلا في الدفاع الشرعي عن النفس.

بعد ثمّانية أيّام من ذلك، التمست وزارة الدفاع الأمريكيّة من الحكومة المصريّة أن توافيها بقائمة جديدة من الأسلحة عوض الأولى. فلبّى المصريون الطلب.

في الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني، وصل آلين ويلش دالاس الذي كان نائب مدير وكالة المخابرات الأمريكيّة آنذاك إلى القاهرة، ودعا عبد الناصر للعشاء بمقرّ السفارة الأمريكيّة.

كان اللقاء بديعاً وهادئاً، وبدا دالاس ودوداً ومتفهّماً. درس لائحة الأسلحة المطلوبة وأشّر على المواد التي يمكن بيعها، وبحث في طريقة الدفع، وقال إنّ أمريكا قد تتنازل عن بعض المستحقّات إذا تطوّرت العلاقات بين البلدين. وفي نهاية السهرة اقترح دالاس أن تسافر بعثة مصرية إلى أمريكا لتقوم بجولة في القواعد العسكرية، وتتحدّث إلى المسئولين عن تزويد الأسلحة وتهيئة شحنها. وبذلك غادر عبد الناصر السفارة بمزاج رائق.

تألّفت منذ اليوم الموالي بعثة برئاسة علي صبري، وغادرت مصر في مهمة كان الجميع يتوقّع لها النجاح.

عدا أن بعض المشاكل التي قد تبدو هينة يمكن أن تعرقل مجرى الأمور.

كان الأمريكان والبريطانيون قد اقترحوا على مصر قبيل عزل فاروق دخول حلف دفاعي يدعى «منظمة حلف الشرق الأوسط» METO، ولكن الفكرة سرعان ما قوبلت بالسخرية، وسمّاه البعض تندّراً me too (أنا أيضاً)، وقد اشتهر باسم «حلف بغداد». وكانت الفكرة التي يقوم عليها هذا الحلف هي إنشاء معاهدة تحالف بين بريطانيا والولايات المتّحدة والعراق وباكستان وتركيا وإيران، تقضي بإقامة قواعد عسكرية إنجليزية وأمريكية، ومن ثمّة خلق ضغط استراتيجي على الاتحاد السوفييتي.

ما كادت البعثة تحطّ على الأرض الأمريكيّة حتّى تلقّفها اللواء أولمستيد، مدير برنامج المساعدة العسكرية الخارجية. انخرط أولمستيد، حتّى قبل الخوض في الغاية من الزيارة، في خطاب محموم رافع فيه بحماسة عما يمكن أن تجنيه مصر من انضمامها إلى حلف الشرق الأوسط.

وأشار إلى أنّ الأمر يتعلّق في المقام الأوّل بحلف «إسلامي». وبينما كان يتحدّث أزاح ستاراً يغطّي خريطة للعالم كبيرة، مثبّتة على جدار مكتبه، مليئة بالدبابيس والأعلام. والتقط مؤشّراً طويلاً وبدأ يشرح معنى الدبابيس والأعلام، ثمّ أشار إلى منطقة وضعت فيها دبابيس قليلة وقال: «يجب أن نضع بعض الأعلام والدبابيس هنا. هناك فراغ ها هنا!» ولم تكن تلك النقطة التي أشار إليها غير المنطقة التي كان من المفروض أن يشملها الحلف المقترح. اكتفى أعضاء البعثة بتحريك رؤوسهم مجاملة وانسحبوا.

لم يتمكّن علي صبري من التداول في الموضوع الأساس، وهو بيع السلاح، مع اللواء عمر برادلي إلا في اليوم اللاحق. وأنشئت لجان فرعية للبحث في التفصيلات الفنيّة.

كان عبد الناصر يتابع تحرّكات البعثة لحظة بلحظة، وبينما كانت تصله الأخبار، وكانت في مجملها إيجابية، لم يعد يساوره شكّ في نجاح العملية.

كان واثقاً من النجاح إلى درجة أنّه أبلغ الوحدات العسكرية بأنّها ستتلقّى أسلحة جديدة من أمريكا، وأنّ الشحنات الأولى ستصل قريباً. وأصدر الأوامر لتهيئة المطارات حتّى تصبح جاهزة لاستقبال الطائرات المقاتلة.

انتهى تشرين الثاني، وحلّ عيد الميلاد في نهاية ديسمبر/كانون الأول ثمّ كانون الثاني، ولم تصل طائرات ولا بنادق.

بدأ صبري وبعثته يشعرون بخيبة أمل. وقيل لهم لا يمكن اتّخاذ أيّ قرار لأنّ هناك تغييراً وشيكا في الحكومة. كان ذلك في بداية يناير/كانون الثاني من سنة ١٩٥٣، وكان إيزنهاور على وشك تسلّم زمام الرئاسة من ترومان، وأنّه لا يمكن عمل شيء قبل تنصيب الرئيس الجديد. وطمأنوهم بأنّ الطلب المصري موضوع على مكتب الرئيس الجديد، وأنّه سيكون من بين الملفّات الأولى التي سيبتّ فيها. وما لبثت شخصية أخرى أن ظهرت على مسرح الأحداث. إنه جون فوستر دالاس، الأخ الأكبر لويلش دلاس. ثلاثة أيام بعد تنصيب اللواء إيزنهاور يوم ٢٣ يناير/كانون الثاني، عيّن جون فوستر دالاس في منصب وزير الخارجية. بعد أسابيع من ذلك، في شهر ماي/أيار من سنة ١٩٥٣، وصل إلى العاصمة المصريّة.

وفي تلك المناسبة جلس يتناول العشاء مع عبد الناصر. وبادر عبد الناصر بفتح موضوع الأسلحة على الفور.

ـ ماذا جرى؟ لماذا هذا البطء؟

صمت دالاس لحظة قبل أن يجيب:

ـ تشرشل...

ـ تشرشل؟

ـ اتّصل تلفونياً بالرئيس إيزنهاور، وحثّه على ألا يبيعكم السلاح. من غير اللائق، بحسبه، أن يشرع رئيسنا فترته الرئاسية ببيع أسلحة قد تتسبّب في قتل جنود إنجليز، خدم بعضهم تحت إمرته في الحرب العالميّة الثانية.

توقف دالاس عن الكلام برهة قبل أن يضيف:

ـ لا أخفيكم أنّ هذا الرجاء أثّر في إيزنهاور تأثيراً عميقاً، فطلب قائمة الأسلحة التي طلبتموها، وعندما درسها وجدها تحتوي في المقام الأوّل على أسلحة خفيفة يمكن استخدامها في حرب عصابات تشنّ على المدنيين البريطانيين الذين ما زالوا موجودين في منطقة قناة السويس.

خيّم الصمت، ثمّ سأل البكباشي:

ـ والآن، ماذا ستفعلون؟

ـ حفظ إيزنهاور ملفّكم مع الملفات المجمّدة.

من سخرية القدر أنّ لا أحد منهما ـ وهو تفصيل لا يقدّم ولا يؤخّر ـ كان يعلم آنذاك أنّ القائمة التي تسلّمها لإيزنهاور هي تلك التي وضعها فاروق. ثمّ قال فوستر دالاس بأنّه سينظر للطلب المصري بعين العطف، وأنّه سيبذل قصارى جهده لحلّ المشاكل العالقة بين إنجلترا ومصر.

بعد الفراغ من هذا الموضوع، انتقل دالاس من جديد إلى

موضوع معاهدة الدفاع «الإسلامية» (METO). حاول أن يثبت لعبد الناصر، من خلال سوق مجموعة من الحجج، الفوائد التي ستجنيها مصر بانضمامها إلى المعاهدة. فلمّا أنهى عرضه، تناول البكباشي الكلمة وسأله:

- أنصتّ إليك جيّداً يا سيد دالاس، لكن ما زال ثمّة أمر يستغلق على فهمي: هذه المعاهدة هي معاهدة دفاع، أليس كذلك؟

أجاب دالاس مؤيداً.

- ضدّ من ستدافع هذه المنظمة؟

- ضدّ الاتحاد السوفيتي بالطبع!

- ضدّ الاتحاد السوفيتي؟ ولماذا؟ الاتحاد السوفييتي يبعد عنّا ٧٠٠٠ ميلاً، ولم تقم قط مشاكل معه، كما أنّه لم يهاجمنا أبداً. ولم يكن له قطّ قاعدة في مصر بينما لا تزال بريطانيا تحتلّ مصر.

- لا بأس... لكنّ الإنجليز الذين سيبقون هنا في ظلّ هذا الحلف سيبقون في القاعدة تابعين للحلف. سيكونون معكم في نفس الحلف.

لم يتمالك عبد الناصر نفسه، فانفجر ضاحكاً، وردّ قائلاً:

- هل تتخيّلني أعلن لشعبي أنّ وضع البريطانيين هنا سيتبدّل، وأنّهم سيتحوّلون من محتلّين إلى شركاء؟ كيف أستطيع أن أتوجّه إلى الناس وأقول إنني أغضّ الطرف عن قاتل في قناة السويس يسدّد إلي مسدّساً من مسافة ٩٠ ميلاً لأنّني قلق من شخص يحمل مدية على بعد ٧٥٠٠ ميل من حدودنا؟

ثم قال عبد الناصر بنبرة آسفة:

- آسف يا مستر دالاس. لست مستعدًّا لتوقيع أيّ معاهدة قبل أن يخلي الإنجليز منطقة القناة تماماً، وإلا فسيبدو أنّني أتصرّف تحت الضغط. أمّا عن قضية الشيوعيين، فإنني لا أعتقد أنّ الهجوم الشيوعي سيأتي عبر حدودنا، لأنّه ليست لنا حدود مع الاتحاد السوفييتي، لكنّه سيأتي عبر جبهتنا الداخلية، ولذا فإنّ ما نحتاج حقًّا إلى الدفاع عنه ضدّ الشيوعية هو جبهتنا الداخلية، وليس حدودنا.

وبما أنّ دالاس لزم الصمت وراح يتأمّل، واصل عبد الناصر كلامه بنبرة أحدّ:

- إنّنا ندخل، كما ترى، مرحلة تؤذن بانتهاء الاستعمار، وعالم الغد سيعرف مواجهة بين معسكرين: الشيوعيين من جهة والرأسماليين من جهة ثانية. فإذا ما انحزنا لأحد الطرفين، سخَّرَنا لمصلحته. تيقّنوا أيضاً أنّ أيّ تّحالف بين قوة عظمى وبلد ضعيف ينتهي بهيمنة القوي على الضعيف.

لم يعلّق دالاس بشيء. طوى منديله، وشرب جرعة ماء، ودعا ضيفه إلى الصالون.

وفي الأخير، لم تتجاوز الأسلحة التي تسلّمتها مصر مسدّسي «الكولت» عيار ٣٨ ملليمتراً، مطلّيين بالفضة، أهداهما دالاس للواء محمد نجيب. ولمّا سمع تشرشل بخبر المسدسين، اتّصل بالرئيس إيزنهاور من جديد، واحتجّ على رمزية تلك الهديّة. وقال إنّها علامة سيّئة، ومن شأنّها أن تشجّع المصريين!»

ومضت سنتان.

في شهر فبراير/شباط من سنة ١٩٥٥، وقع حادث زاد من نفاذ

صبر عبد الناصر وفريقه، وعمّق شعورهم بالإحباط. في فجر يوم ٢٨ من ذلك الشهر، وردًا على الفدائيين الفلسطينيين الذين كانوا يناوشون الكيبوتسات، تسرّب كوماندو إسرائيلي إلى غزّة التي كانت ما تزال تحت الحكم المصري، وفجّر الخزّان الذي يزوّد المدينة بالمياه، وأطلق النار بمحطّة القطار. كانت نتيجة الاعتداء: مقتل ضابط وخمسة عشر جندياً مصرياً وعشرة مدنيين بوغتوا أثناء نومهم. وقد صادف الكوماندو أثناء انسحابه شاحنات تحمل جنوداً مصريين، فأمطرهم بوابل من الرصاص، ولم يترك لهم الوقت للنزول من الشاحنات، وكانت الحصيلة ٢٢ قتيلاً. لم يردّ الجيش المصري على الاعتداء لأنّ وضعه لم يكن يسمح بذلك.

كان توقيت ذلك الاعتداء سيّئاً للغاية. فقبل ذلك بأربعة أيّام، أيّ يوم ٢٤ فبراير/شباط، انضمت تركيا والعراق إلى «حلف بغداد» الشهير، ثمّ لحقت بهما باكستان وإيران، وبذلك وجد عبد الناصر نفسه في مأزق. أدرك أنّ مصر الضعيفة العزلاء صارت مهدّدة بالعزلة عن جيرانها أكثر فأكثر. إنّها بحاجة إلى السلاح.

حاول اقتناء أسلحة من بلجيكا، لكنّ الصفقة لم تنجح. وتوفّق في الحصول على بضع رشاشات من إيطاليا، وجرّب السويد وإسبانيا. حمل بريطانيا على تسليمه الدبابات العتيقة التي كانت الحكومة المصريّة تعاقدت على شرائها قبل الثورة وسدّدت ثمنها. فأرسل البريطانيون ستّ عشرة دبابة ووعدوا بتسليم الباقي (ثلاثين دبابة) شرط أن توقف مصر حملاتها على حلف بغداد.

ثمّ قام البكباشي بمحاولة أخيرة مع الأمريكان، إذ طلب منهم من جديد عن طريق هنري بايرود، السفير الأمريكي الجديد بمصر، أن يزودوه بالسلاح. قال له: «افهموني، يتعلّق الأمر بتأمين حدودي.

لعلّكم تدركون أنّ تعرّض رجالي للاعتداء قبل أيّام يمثّل إهانة أخرى لجيشي. فأنتم تغدقون على إسرائيل الأسلحة الأكثر تقدّماً، وتمنحونها المعونات المالية التي تقدر بملايين الدولارات، لكنكم تتركون مصر لقدرها».

نقل بايرود الرسالة لجون فوستر دالاس، لكنّها ظلت بلا جواب، أو بالأحرى، كان الجواب: لا تنظر الولايات المتّحدة بعين الرضا لمشاركة مصر المرتقبة في مؤتمر دول عدم الانحياز المزمع عقده في شهر أبريل/نيسان من سنة ١٩٥٥ في بوندونغ باندونيسيا. ذلك أنّ ما يناهز ثلاثين بلدا آسيوياً وإفريقياً حديثة العهد بالاستقلال قرّرت أن تلتئم وأن تبذل ما في وسعها من أجل مساعدة الشعوب التي ما تزال مستعمرة. وقد كانت هذه الخطوة إيذاناً بدخول العالم الثالث إلى الساحة الدولية.

في الثامن عشر من أبريل/نيسان، استقلّ عبد الناصر الطائرة إلى جزيرة جاوة. كان توقّفه في رانجون متزامناً مع توقّف قائد آخر حظي نضاله بإعجاب الشعوب المستعمرة: إنّه جواهر نهرو. استقبلهما عند وصولهما وزير برمانيا الأوّل «يونو» وكذا رئيس وزراء الصين شوين لاي، ونشأ إعجاب متبادل بين الزعيمين على الفور.

اختلى القائدان إلى بعضهما في نفس اليوم، وأسرّ عبد الناصر لجليسه بانشغالاته الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، فقال له شوين لاي على سبيل الدعابة إنّ الصين تستطيع أن تستهلك كلّ القطن المصري بمجرّد أن تطلب من كلّ صيني تطويل سترته بخمسة سنتمترات.

وفي ثنايا الحديث، سأل البكباشي: «هل تعتقد أنّ الاتحاد السوفييتي على استعداد أن يبيع السلاح لمصر؟»

ووعده شوين لاي بأن يسأل القادة السوفييت في الموضوع، واستدرك محذّراً من أنّه إذا وافق الروس على بيعه الأسلحة، فإنّ موافقتهم ستخلق لمصر كثيراً من التعقيدات مع الدول الغربية، ولاسيما مع الولايات المتّحدة. وقد أتاح مؤتمر بوندونغ لعبد الناصر أن يضع المعالم الأولى لمشروعه: حشد الدول العربيّة للاستقلال السياسي في ظلّ تعايش سلمي بين الشرق والغرب.

بعد مرور شهر على عودته إلى مصر، وبعد تدخل شوين لاي، اتّصل به السوفييت عبر دانييل سولولد، سفيرهم في القاهرة، وأخبروه باستعدادهم لبيعه السلاح فوراً، بلا شرط أو قيد. غير أنّ إبرام الصفقة سيكون بطريقة ملتوية وذلك حتّى لا تثير ردود أفعال الدول الغربية. ذلك أنّ تشيكوسلوفاكيا يمكن أن تكون بمثابة غطاء. وهكذا ضربوا له موعداً يوم الثاني والعشرين من ماي/أيار من سنة ١٩٥٥، قصد إعداد قوائم الأسلحة المطلوبة والاتفاق على الأسعار.

لم يكن عبد الناصر راضياً في قرارة نفسه على لجوئه للسوفييت. كان يتمنّى، بسبب عدائه الغريزي للشيوعيين، لو يتقرّب من البيت الأبيض عوض الكرملين. لعلّ هذا هو ما جعله يتّصل يوم ٢١ من ماي/أيار، أيّ ليلة قبل توقيع الاتفاقية مع الروس، بالسفير الأمريكي بايرود، وأخبره بأنّه تلقّى عرضاً من السوفييت بخصوص السلاح، فسارع بايرود إلى إخبار رؤسائه في نفس اليوم، لكن دالاس ردّ باستخفاف: «إنّها مجرّد مناورة». وهي واقعة تشهد على عجز الأمريكان الدائم عن فهم، بل محاولة فهم العالم الذي يوجد خارج حدودهم.

مرّت أربعة أشهر، وفي السابع والعشرين من سبتمبر/أيلول، زار عبد الناصر معرض القوات المسلحة لتدشينه. دُعي للقاء حوالي ستين

شخصية، بينهم مصوّرون وصحفيون بطبيعة الحال، وفجأة وقف الرئيس، وطلب من الحاضرين أن يصمتوا، ثمّ أعلن بنبرة مهيبة:

- لقد رفض الغرب أن يعطينا الحقّ في الدفاع عن أنفسنا، لهذا قبلت بتوقيع اتفاقية تجاريّة من أجل أن تموّننا تشيكوسلوفاكيا بالسلاح.

فدوّى المكان بالتصفيقات.

كان لهذا الخبر وقع الصاعقة على الخارجية الأمريكيّة. بعث فوستر دالاس مبعوثاً إلى القاهرة فورا وهو لا يكاد يصدّق. سبقت المبعوث سمعته السيئة، إذ يتعلّق الأمر بكرميت روزفلت، ابن ثيودور روزفلت. عمل كرميت بوكالة المخابرات، وانتخبته التايمز ماغازين «شخصيّة السنة» بسبب نجاحه، بواسطة الأموال، في إعادة شاه إيران إلى العرش بعد أن كان وزيره الأول مصدّق، الرجل القومي الشرس، قد أسقطه سنة ١٩٥٣. كما أنّه ساهم في إحلال نظام قمعي، أشبه بالنظام النازي في غواتيمالا، محلّ النظام الديمقراطي الذي كان قائماً.

ما كاد كرميت يحطّ على أرض مصر حتّى أعلن أنّ دالاس في غاية الغيظ، وأنّه يطلب إلغاء الاتّفاقية الموقّعة مع تشيكوسلوفاكيا فورا، وإلا فإنّ الولايات المتّحدة ستقطع كلّ علاقاتها الدبلوماسية بمصر، وتفرض على البلد حصاراً يحظر على السفن شحن السلاح إليه. لكن عبد الناصر رفض الاستجابة للتهديد.

أمام هذه المقاومة، بعث دالاس مبعوثاً ثانياً هو جورج آلن. ترددت شائعة مفادها أنّ آلن يحمل رسالة حرّرت في شكل استدعاء، وهو ما جعل عبد الناصر يتناول الهاتف فوراً ويتّصل بكرميت روزفلت، وقال له: «اعلم أنّه إن صحّت هذه الإشاعات

التي تروج من أن السيد آلن ينوي تسليمي إنذاراً أخيراً، سأدق الناقوس الموجود على مكتبي وسآمر رئيس تشريفات الرئاسة بأن يطرده. إثر ذلك سأخرج شخصياً وأبلغ مراسلي الصحف أنّني قطعت العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتّحدة».

هرع روزفلت وبايرود مذعورين إلى المطار، واعترضا جورج آلن الذي كان قد حطّ من توّه. وبينما كان يستعدّ للحديث إلى الصحافة، رجواه في آخر لحظة بأن يلطّف تصريحاته، وهو ما استجاب له.

في اليوم الموالي، ذهب آلن إلى مقرّ الرئاسة ملتزماً أقصى درجات الحذر. قال لعبد الناصر:

- سيدي الرئيس، إنّ السيد دالاس منزعج جداً.

فرد البكباشي:

- إن كان منزعجاً، فشعبي مهدّد!

عندئذ غيّر آلن موقفه تماماً:

- إن قبلتم بإلغاء الاتفاقية التي وقّعتموها مع الشيوعيين، فنحن مستعدّون لكي نحلّ محلّهم، ونزوّدكم بالأسلحة التي تحتاجونها.

رفض عبد الناصر العرض بقرف بإشارة من يده، وقال:

- فات الأوان يا مستر آلن. قل لكاتب الدولة إنّ الأوان قد فات...

في غضون ذلك شاع الخبر في العالم، فأثار لدى الشعوب العربيّة موجة من الحماس أصابت المعسكر الغربي بالذهول.

في نفس اليوم الذي أعلن فيه الخبر، كتب أحد مراسلي أسوشايتد بريس: «لم يحدث أبداً أن جهر قائد عربي بتحدّيه للقوى الغربية كما جهر بها عبد الناصر. بعد خمسة وعشرين قرنا من الهيمنة

الخارجية، يمكننا القول إنّ مصر صارت من الآن فصاعداً بلداً حرًّا».

هكذا تجاوزت شعبية عبد الناصر فجأة الحدود لتعمّ العالم العربي قاطبة. لقد صار بالنسبة إلى الجماهير بطلاً حقيقياً. غمرت البهجة قلوب اللاجئين الفلسطينيين المكدّسين في المخيّمات. لم يكن يساورهم شكّ في أن الريّس سيلقي قريباً بالإسرائيليين في البحر، وتعالت أصوات تردّد بأمل: «سنعود إلى ديارنا في الصيف القادم!»

لقد جعل البكباشي أبناء هذا الشعب الذي استعمر طويلاً يتخيّلون بأنّ ثمّة طريقاً أخرى غير تلك التي فرضها عليهم الغرب منذ عقود. بدأت تباع في شوارع عمان وبيروت ودمشق وبغداد صور الريّس. وشرع التّجار يزيّنون بها محلاتهم، وراحت النساء الحوامل تختزن إطلاق اسمه على أطفالهن. وقد لاحظ أحد الدبلوماسيين الأمريكان عابساً: «لو تقدّم عبد الناصر اليوم للانتخابات الرئاسية في لبنان وسوريا والأردن، بل في أيّ بلد عربي، لانتُخب بالإجماع».

راحت روسيا تحشر نفسها يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع في الفجوة التي تركتها الولايات المتّحدة. وهكذا توصلت مصر بـ ٣٠٠ طائرة ميغ و٥٠ قاذفة قنابل إليوشين، وبين ٢٠٠ و٣٠٠ دبّابة من نوع ستالين، ومدافع ورشاشات وأسلحة خفيفة وزارعات ألغام وسفناً حربية...

لم يبق من الإنجليز على ضفتي القناة غير بعض المدنيين، لكنّ مقامهم لم يطل. بدأت تتوالى يوماً بعد يوم معارض تجارية من رومانيا وهنغريا والصين، وبدأت تشيّد جسور تحمل العلامات التجارية الهنغارية، وتصل إلى البلد رافعات بلغارية وسيارات بولونية. وأنشأ الاتحاد السوفيتي أوّل مختبر للفيزياء النووية،

وصارت الصين، كما وعد شوين لاي، أكبر مستورد للقطن المصري. وحلّت حفلات البالي الرومانية والتشيكية والبولونية والروسية محلّ الفرق الموسيقية الباريسية. هكذا تحوّلت أرض الكنانة بين عشية وضحاها إلى المعسكر الشرقي. وكان من نتيجة هذا التحوّل: اختفاء السلع الغربية من الأسواق. لم تعد توجد شفرات حلاقة ولا كريمات ولا مشروبات ـ باستثناء مشروب الكوكا كولا ـ ولا ألبسة ولا أحذية ولا أسطوانات فونوغراف (لم تكن الأقراص المدمجة قد ظهرت بعد)... وبذلك صارت الطلبات تنهال على أيّ مسافر قادم من الغرب: هذا يرجوه أن يُحضر له حذاء رياضياً لابنه، وذاك يتوسّل إليه ليحضر له ترانزستور، وثالث قطعة غيار لسيارته البوجو القديمة.

ستُدشن هذه الخيبة سلسلة مواعيد أخطأها عبد الناصر مع الغرب. كان ذلك بمثابة القطعة الأولى من لعبة دومينو لم تسقط بشكل متوازن على قاعدتها، وظلت مترنّحة، إذ تكفي هبة نسيم خفيفة لتسرّع بسقوطها. لم تكن هذه الهبّة سوى السدّ العالي.

(٢٠)

«مصر هبة النيل»، هذا ما كتبه هيرودوت قبل المسيح بأربعة قرون. فلولا هذا النهر، لما كان للحضارة الفرعونية، ولا للمدن من وجود، ولكانت أرض مصر مجرّد صحراء قاحلة. لكنّ هذا النهر لا يمثل غير خيط من الماء، محصور بين مساحتين صحراويتين شاسعتين. على بعد بضعة كيلومترات من الضفتين، تعاني القرى من العطش، والأرض غير صالحة للزراعة بأيّ حال من الأحوال. يكفي أن ينهار أحد السدود الصغيرة، أو تتوقّف ناعورة لكي تموت قطعة من مصر. فالماء يعني بالنسبة إلى الفلاحين الحياة.

لم تكن تمثّل الأراضي القابلة للزراعة في سنوات الخمسينيات غير ٤٪ من مجموع مساحة مصر. وفي مساحة ٤٪ هذه يتكدس ٩٩٪ من السكان.

يمثّل نمو ساكنة مصر المطرد ـ وهو جرحها الثامن ـ مأساة حقيقية: انتقل عدد السكان من ثلاثة ملايين نسمة في بداية القرن التاسع عشر، إلى خمسة ملايين سنة ١٨٧٠، ليصير تسعة ملايين بعد ذلك بثلاثين سنة، وليبلغ ٢٤ مليوناً سنة ١٩٥٩، ثمّ ليقفز إلى ٧٠ مليوناً سنة ٢٠٠٦. أمّا في القاهرة فانتقل تعداد السكان من ٢٥٠٠٠٠ سنة ١٨٠٠، إلى حوالي ١٣ مليوناً في مطلع الألفية الثالثة. يتعيّن تلبية حاجات هذا العدد السكاني الهائل من الأغذية،

ولتلبيتها، تلزم حقول قابلة للزراعة. «لو كنت حاكم هذا البلد، لن أترك نقطة واحدة من هذا النهر تضيع في البحر».

هذا ما قاله اللواء بونابرت في دوسي خلال حملة نابليون على مصر.

بعد خمسة أيام على الانقلاب، أيّ في الثلاثين من يوليو/تموز، اقتحم مقر القيادة العامة بالقبّة، حيث كان يجتمع الضباط الأحرار، رجل ذو شعر طويل أشعث، فاستقبله علي صبري.

تفحّص صبري الرجل بشيء من الريبة. لم يكن أنيق الملبس، وكانت تظهر عليه آثار توتّر غير عادي.

بادره قائلا:

- اسمي دانينوس، أندريان دانينوس. أنا مهندس زراعي من أصل يوناني، ولدت بمصر. أودّ تسليمك مشروعاً سيكون نفعه كبيراً على بلدنا. وألتمس منك أن تدرسه بعناية.

دعاه صبري لمواصلة حديثه رغم تحفّظه، وهو لم يفعل ذلك إلا لأن اسم دانينوس لم يكن خافياً عليه. فهو مرتبط بإحدى أشهر الأسر اليونانية التي استقرت بمصر في بداية القرن التاسع عشر. أبوه، ألبير دانينوس، كان من الأثرياء، رقّاه الملك فؤاد إلى مرتبة باشا.

استأنف دانينوس كلامه قائلاً:

- أتوسّل إليك ألا تفعل مثلما فعل مصريون وأوروبيون آخرون، حين حسبوني، لمّا سلّمتهم مشروعي، مصاباً بمسّ. كنت أملك مئة فدان، وقد بعتها عن آخرها لكي أتفرّغ لتهيئ هذا التصميم الذي أعرضه عليك. كما أنّني سافرت إلى أوربا مراراً لعرض

مشروعي على الحكومات الأجنبية، وإقناعها بأن تنفّذه، لكن من دون جدوى. ولم يكن حظي أفضل مع وزراء فاروق. اتّهموني بالجنون، واعتبروني مخبولاً... أفهمت مرادي؟

أومأ صبري بأنّه فهم، لكن كلام الرجل كان مستغلقاً عليه.

- تفضّل، تابع كلامك.

- لقد تغيّر كلّ شيء في مصر منذ أسبوع. وقد أعطتني الثورة بصيصاً من الأمل، وهذا هو ما دعاني لزيارتك.

وضع دانينوس ملفًّا سميكاً على مكتب مخاطبه، واستطرد قائلاً:

- هذا كلّ عملي. حُلمي الوحيد هو أن أراه يتجسّد في الواقع. سيكون ذلك هو العزاء الذي سينسيني التضحيات التي فرضتها على نفسي حتّى الآن.

ووعده صبري بأن ينقل هذا المشروع الغريب، لكنّه سأله:

- قل لي على الأقل ما فحوى مشروعك؟

- بناء سدّ، أكبر سدّ في العالم!

- سدّ!

بعد انصراف المهندس اليوناني، قرّر صبري، مدفوعاً بحدس باطني، أن يعهد بالملف إلى مهندسي القيادة العامة، وكان بينهم المهندس محمود يونس. بعد دراسة سريعة، أعلن يونس أمام دهشة مجلس الثورة، بأنّ مشروع دانينوس ليس مشروعاً طوباوياً.

والواقع أنّ الملابسات التي سبقت البدء في تنفيذ المشروع لجديرة بأنّ تشكل بمفردها موضوع رواية. لمّا أخبر دانينوس سنة ١٩٤٦ مهندسي ذلك العهد، ردّوا عليه بتهكّم: «كيف يُقام خزّان ماء

بسعة ١٠٠ مليار متر مكعب في أعلى النيل، فوق سدّ أسوان الحالي؟ هذا مستحيل!» ونبّهوه إلى أنّ ضفتي النهر في تلك المنطقة ليستا مرتفعتين بما فيه الكفاية لاستيعاب هذه الكمية من المياه.

لم يستسلم دانينوس، ولم يعبأ بالانتقادات، بل اتصل بمهندس إيطالي مرموق، من مدينة ميلانو، يدعى جاليولي، والتمس منه الحضور إلى مصر للقيام بمسح طوبوغرافي للمنطقة. ولمّا حلّ بمصر في شهر سبتمبر/أيلول من سنة ١٩٤٧، علم أنّ وزارة الأشغال العمومية غير مستعدّة لأداء الكلفة المرتفعة للمسح الطوبوغرافي الجوي للمنطقة التي يفترض إنشاء الخزان بها. رغم ذلك قرّر جاليولي مواصلة استقصائه. زار المنطقة، ولاحظ أنّها مناسبة تماماً لإقامة سدّ. بعد مجهود مضن، تمكّن من وضع التصاميم، وحساب كميّة المياه التي يمكن تخزينها، وتحديد الوسائل التقنية التي ينبغي استعمالها، وتقييم جدوى المشروع الاقتصادية. فالبحيرة الاصطناعية إن أنجزت، ستسمح بمضاعفة كمية المياه المنذورة سنوياً للفلاحة المصريّة، هذا فضلاً عن إنتاج ما يفوق ١٤ مليار كيلواط ساعة من الطاقة الكهرومائية في السنة.

قبل أن يسافر جاليولي إلى ميلانو والأرجنتين لمتابعة أشغاله، وقّع عقداً مع دانينوس، ثمّ عهد إليه بنتائج أبحاثه، وكلّفه بإقناع السلطات المصريّة. ومضى دانينوس يبحث بهمّة عن رجال أعمال يموّلون الأبحاث اللازمة المتبقيّة، لكن جهوده لم تثمّر. لم يرغب أحد في الإنصات لكلامه، واعتبروه مجرّد هذيان، إلى أن حلّ ذلك اليوم من أيام سنة ١٩٥٢. لكن لا شيء مضمون حتّى تلك اللحظة، وقبول المشروع ما زال مستبعداً.

إن أبعاد السد الذي صمّمه دانينوس هائلة: يبلغ من الطول ٤٠٠٠ متر، بسمك ٩٥٠ متراً عند قاعدته، و٤٠ متراً عند القمة، وسيتجاوز

ارتفاعه مئة متر، وستنشأ عنه بركة اصطناعية تمتد على مدى ٥٠٠ كلم بعرض عشرة كيلومترات، وبقدرة استيعابية تقدر بـ ١٥٧ مليار متر مكعب من الماء.

ثلاث سنوات بعد زيارة المهندس اليوناني لمقر قيادة الثورة، شرع عبد الناصر في الاتصال بالبنك الدولي للإنشاء والتعمير، وكان جوابه أنّه يتعذّر عليه تمويل مثل هذا المشروع الضخم من دون موافقة مساهميه ورضاهم: أيّ الولايات المتّحدة وإنجلترا.

في السابع عشر من أكتوبر/تشرين الثاني من سنة ١٩٥٥، كُلف أحمد حسين، سفير مصر بواشنطن، بجسّ نبض الإدارة الأمريكيّة، فوجد نفسه من جديد بمواجهة فوستر دالاس. شرح له بالتفصيل المملّ مدى أهميّة بناء هذا السد بالنسبة إلى المصريين، وعبّر له عن أمل مصر في الحصول على مساعدة الولايات المتّحدة. وأشار حسين إلى أنّ القرار ينبغي أن يتّخذ على نحو عاجل، لأنّ أيّ تأخير قد يتسبّب في المسّ بصورة الرئيس والحكومة.

وفي نوفمبر/تشرين الثاني من سنة ١٩٥٥، توجّه الدكتور عبد المنعم القيسوني، وزير المالية المصري، إلى لندن وواشنطن لإجراء محادثات حول المشروع مع الحكومتين البريطانية والأمريكيّة والبنك الدولي.

وقدّرت تكاليف بناء السد آنذاك بحوالي مليار دولار، منها ٤٠٠ مليار بالعملات الأجنبية. وقد عرض البنك الدولي أن يقدّم نصف هذا المبلغ إذا تعهّد البريطانيون والأمريكيون بتوفير النصف الآخر.

وفي نهاية هذه المحادثات التي امتدّت إلى بداية شهر ديسمبر/كانون الأول، أبدت الولايات المتّحدة وبريطانيا استعدادهما لمساعدة مصر بسبعين مليون دولار، وهو المبلغ الذي سيكفي لتغطية مصاريف السنة الأولى من بناء السدّ.

لم يستطع عبد الناصر إخفاء خيبته. فقد بدا له أنّ الانخراط في مشروع سيدوم عشر سنوات على الأقل، باحتياط مالي يغطي سنة واحدة، أمر لا يخلو من مجازفة. ذلك أنّ أيّ تقلّب في مزاج المموّلين، سيترك مصر تتدبّر وحدها أمر كومة هائلة من الصخور والأتربة والحجارة.

توصّل دالاس برسالة في الموضوع، ولم يتأخّر جوابه: قال إنّه لا يمكنه أن يتوجّه إلى الكونجرس للحصول على التزام طويل الأمد. فقد كانت هناك ميزانية سنوية للمساعدات يجب التصويت عليها عاماً بعد عام، وأضاف أنّ الكونجرس، فضلاً عن ذلك، سيتجدّد ثلاث مرّات خلال الفترة التي يستغرقها بناء السد العالي، وأنّه ليس في وسع أيّ كونجرس أن يُلزم سلفاً الكونجرس الذي يعقبه. وبذلك اتّخذت القضية منحى سيّئاً.

في الوقت ذاته، كانت مصر تواجه مشاكل مع البنك الدولي. فقد طلب البنك حقّ الإشراف على ديون مصر الخارجية (ولاسيما الروسية). كما أنّ سعر الفائدة المقترح، وهو ٥,٥٪، يمثّل نسبة مرتفعة جدًّا. وكانت نقطة الخلاف الأخيرة تتعلّق برغبة البنك في أن يرسل إلى مصر «إعلان نوايا» بأنّه يعتزم تمويل مشروع السد العالي عوض توقيع كتاب يتضمن معنى الالتزام.

لكن بعد أيام من المفاوضات مع أوجين بلاك محافظ البنك الدولي، تمّت أخيراً تسويّة النقاط الخلافية، بحيث خفض سعر الفائدة إلى ٥٪، ووافق بلاك على توجيه كتاب التزام بدلاً من كتاب بإعلان النوايا.

هكذا تنفّس المصريون الصعداء، لكنّ الأمور ما لبثت أن تعثّرت من جديد.

في نهاية ماي/أيار، كان أحمد فهمي يتأهّب للعودة إلى مصر لكي يتدارس الموقف مع عبد الناصر، فإذا بمساعد كاتب الدولة هربرت هوفر الابن يستدعيه عشيّة مغادرته واشنطن. كان يريد أن يبلغه رسالة من دالاس: تشترط الولايات المتّحدة شرطين لكي تقدم على تمويل السد العالي. الأوّل هو أن تلتزم مصر رسمياً امتناعها عن عقد مزيد من صفقات السلاح مع السوفييت، والثاني هو أن يمارس عبد الناصر نفوذه وزعامته في الشرق الأوسط ليعقد صلحاً بين العرب وإسرائيل.

أصيب أحمد حسين بالذهول.

لم يشكّ لحظة في أنّ هذا التحول في موقف الولايات المتّحدة مردّه إلى تأثير اللوبي الإسرائيلي على النواب وأعضاء الكونغرس.

وأضاف هوفر بنبرة آسفة لا تخلو من تصنّع أنّ الولايات المتّحدة تتعرّض لضغوطات إنجلترا وفرنسا حتّى لا تساعد في تنفيذ المشروع. أمّا الإنجليز، فبسبب مهاجمة عبد الناصر لحلف بغداد، ولأنّ تعزيزه للقومية العربيّة في الأقطار العربيّة الأخرى يهدّد مصالحهم في الشرق الأوسط، بينما الفرنسيون ناقمون على البكباشي بسبب دعمه للوطنيين العرب في شمال إفريقيا، ولاسيما في الجزائر.

وصل أحمد حسين إلى القاهرة ساخطاً، وتوجّه رأساً إلى مصيف برج العرب الساحلي، على بعد حوالي خمسين كيلومتراً من الإسكندرية، حيث كان عبد الناصر يستجمّ قبل السفر إلى يوغوسلافيا لحضور مؤتمر بريوني مع نهرو وتيتو.

حكى له حسين آخر التطورات، واستعرض العراقيل التي نجمت عن تجديد أعضاء الكونغريس، وركّز على الخصوص على الشرطين المبدئيين اللذين اشترطهما دالاس.

فاستوقفه عبد الناصر:

- إنّني لن أخوض في التفاصيل، لكن عندي الدليل القاطع على أنّك حتّى لو عدت وقبلت بشروطهم كلّها التي تريحهم، فإنّهم لن يموّلوا السدّ العالي.

وتمسّك أحمد برأيه قائلا:

- لا يا سيادة الرئيس... المشكلة في الواقع هي الكونجرس...

فقاطعه عبد الناصر قائلاً:

- حسناً سأعطيك الفرصة لكي تثبت شيئاً من أجل مصر يا أحمد، ترجع لدالاس وتقول له إنّك قبلت بجميع شروطه، ثمّ راقب ردود فعله؟

دهش أحمد حسين وقال:

- ألا تريد تعديل أيّ من الشروط...

فقال عبد الناصر:

- لا. إنّي أعطيك تفويضاً كاملاً. اذهب وقل له: إنّنا قبلنا بكل شروطهم.

ولم يكن أمام حسين إلا الامتثال.

عندما وصل أحمد حسين إلى لندن أدلى بتصريح للصحافة قال فيه إنّ مصر تقبل بجميع المقترحات الغربية بشأن السد العالي.

علم دالاس على الفور بتصريحات أحمد حسين، فأدرك المقلب. هو يعرف أنّ عبد الناصر لاعب شطرنج ماهر. وها قد جاءه الدليل. لقد وضعه في موقف بالغ الحرج، ولكن لا بأس، فهو يعرف الرّد.

في الساعات اللاحقة، وصل أحمد حسين إلى وزارة الخارجية الأمريكيّة للاجتماع بدالاس، ولم تمض دقيقة واحدة على دخوله باب مكتب دالاس، حتّى أصدر لنكولن هوايت ـ المتحدّث الرسمي باسم وزارة الخارجية ـ بياناً إلى المراسلين الذين كانوا في الانتظار، يعلن سحب العرض الأمريكي بالمساعدة في بناء السدّ العالي.

في مكتب دالاس، سلّموا حسين، الذي كان لم يكن يعلم شيئاً، نسخة من البيان.

ـ سنصدر بياناً يا سيادة السفير... إنّني آسف يا سيادة السفير لأنّنا لن نساعدكم على بناء السدّ، وأنّ بلادي قرّرت سحب عرضها.

وتردّدت كلمات عبد الناصر فجأة في رأس حسين: «إنّني لن أخوض في التفاصيل، لكن عندي الدليل القاطع على أنّك حتّى لو عدت وقبلت بشروطهم كلّها التي تريحهم، فإنّهم لن يموّلوا السدّ العالي».

فقال حسين متلعثماً:

ـ هل يمكن أن تقدّموا لي على الأقل سبب هذا التغير المفاجئ في الموقف؟

ـ بالطبع، بعد تفكير ملي، قدّرنا أنّ الاقتصاد المصري أضعف من أن يتحمّل مشروعاً بهذا الحجم، وبذلك فإنّ مصر قد لا تكون قادرة على أداء ديونها.

وهمّ السفير بأن يحتجّ، لكن دالاس لم يترك له الوقت لذلك.

ـ إننا مقتنعون بأنّ من يبني السدّ العالي سيجرّ على نفسه كراهيّة الشعب المصري... لأنّ العبء سيكون ساحقاً. ليس في وسع الشعب المصري أن يتحمّل عبء تنفيذ مثل هذا المشروع

الضخم. فمتطلباته تتجاوز ما تستطيع مصادر مصر احتماله، وخاصة بعد التزاماتها اتّجاه شراء الأسلحة. إنّنا لا نريد أن نكون مكروهين من مصر، ولذا سنترك هذه المتعة للاتحاد السوفييتي.

وأثبت الأمريكان من جديد قصور نظرهم، بل عماء بصيرتهم.

كلّ الدلائل كانت تشير مع ذلك إلى أنّهم لو كانوا أكثر تبصّراً، لمّا ارتمت مصر بين أحضان الدّبّ السوفييتي. فقد شرح عبد الناصر خلال حوار له مع بينوا ميشان سنة ١٩٥٧ أنّه عندما وصل إلى السلطة، كان في خدمتهم، يتكلّم لغتهم ويقرأ مجلاتهم. كان معجباً كل الإعجاب بتقدّمهم التقني وبطريقتهم في العيش، ومبهوراً بمناهضتهم للاستعمار. لكنّه لمّا تعامل معهم، وتفاوض مع ممثّليهم، أصابه الإحباط والسخط، وشعر بالخذلان والإهانة. وانتهى به الأمر إلى الاقتناع باستحالة التفاهم مع الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

كان محصول سنة ١٩٥٦ كارثياً، وكان من اللازم تدبّر الغذاء لإطعام الشعب؛ ذلك أنّ الجوع قد يدفع عشرين مليون فلاح إلى الانتفاض. كان عبد الناصر قد سأل السفير الأمريكي قبل شهر من ذلك ما إذا كانت الولايات المتّحدة مستعدّة لأن تبيعه القمح، فأجابه السفير: «بكلّ تأكيد».

فسأله عبد الناصر: «بأي سعر؟»، ـ «بسعر السوق العالميّة؟»، «كيف سيكون الأداء؟»، «بالدولار»، «وما آجال التّسليم؟»، «بين شهر وستّة أسابيع».

وجد عبد الناصر أنّ أقل ما يمكن أن يُقال عن هذه الشروط هو أنّها شروط قاسية، لكن في غياب خيار آخر، لم يجد بدًّا من القبول بها. لكن وهو يهمّ بإبرام الصفقة، طلب السفير السوفييتي لقاءه.

ـ علمت أنّك تبحث عمّن يبيعك القمح. روسيا مستعدّة لذلك.

ـ بكم؟

ـ أقل من أسعار السوق العالمي بعشرين في المئة.

ـ وكيف سيكون الأداء؟

ـ بالقطن. ويكون الدفع على مراحل.

ـ متى ستتوصّل به؟

ـ لدينا مجموعة سفن متوجّهة إلى كولومبو. نستطيع أن نأمرها بتغيير اتّجاهها إذا كانت الصفقة تهمّك. يمكن تفريغ الشحنات الأولى من القمح في غضون ثلاثة أيّام في مرفأ الإسكندرية».

كيف له أن يرفض عرضاً كهذا؟ لاسيما أنّ راديو موسكو الناطق بالعربيّة كان قد أخبر المصريين فوراً بأنّ قائدهم المحبوب فضّل شراء القمح الأمريكي بسعر السوق العالميّة، وأداء ثمنه بالدولار، بدل شراء القمح الروسي الذي يقلّ ثمّنه بعشرين في المئة عن السعر العالمي، والمؤدّى بالقطن.

لم تحسن الولايات المتّحدة قطّ قراءة خريطة العالم، ولاسيما خريطة الشرق الأوسط..

لمّا علم البكباشي ذلك المساء بخبر رفض الولايات المتّحدة، كان على متن الطائرة مع نهرو في طريق العودة من بريوني. صرّ على أسنانه، وتذكّر أنّه ينحدر من الصعيد، من قرية بني مرّ، القرية التي يحيل اسمها على «المرارة». وبذلك فالثأر بالنسبة إليه، وعلى غرار كلّ الصعايدة، أمر مقدّس.

نحن في الثامن عشر من يونيو/ حزيران ١٩٥٦. لم يكن قد فضل للاحتفال بعيد الثورة غير أسبوع.

(٢١)

روما، حزيران ١٩٥٦.

قال فاروق وقد علت وجهه ابتسامة ماكرة:

ـ خذي... هذا لك...

التقطت إيرما كابيسي مينوطولو بسرعة الشيك الذي مدّه لها الملك، وعلا وجهها العبوس فوراً.

كانت تنتظر أن تقرأ عليه عدداً يضم عشرة أصفار، لكنّها اكتشفت أنّه لا يحمل غير عدد: «٣٦٥ يوما» وهو مسحوب من «بنك السعادة».

كان الملك المنفي يعيش أيّاماً عصيبة، إذ إن موارده آخذة في التراجع يوماً بعد يوم، وهو ما اضطرّه لتقليص نفقاته وتغيير نمط حياته بشكل ملحوظ. لكنّ لا يبدو أنّ غوايته للنساء تأثرت بذلك. فرغم ضخامة بطنه وصلعه، وإخفاء عينيه خلف النظارات السوداء، ورغم كونه ملكاً مخلوعاً، استمرّ في سحر النساء.

أثبت هذا الإغواء فاعليته منذ وقت غير بعيد، بينما كان على يخت المنتج الأمريكي سام سبيغيل بمدينة كان الفرنسية. نظّم سام سهرة على شرف الأميرة الشابة شارميني. ذلك أن هذه الأميرة السيلانيّة كانت قد تدخّلت لدى سلطات بلادها لتسمح لسبيغيل بالحصول على ترخيص لتصوير أحد روائعه السينمائية: جسر نهر كواي.

كانت شارميني في ذلك الوقت إحدى أجمل عشرة نساء في العالم. كانت ترتدي ساريا أسود مطرّزا بخيوط الذهب، فلمّا رآها فاروق ذلك المساء، شقّ عليه ألا يركع أمام جمالها الباهر. ومهما بدا هذا غريبا، فشارميني اقشعرّت بدورها من نظراته.

تقول: «سحرني على الفور، مع أنّ الملكيّة لم تكن شيئاً غريباً عنّي. كان فاروق مدهشا حقًّا. كان بديناً، ويلبس سموكينغ بالغ الضيق، لكن كانت تنبعث منه ثقة بالنفس رائعة، ثقة رجل شاب وسيم ورشيق، ذي عينين ساحرتين».

طلب الملك أن يجلس بجوار الأميرة، وهو ما أثار تذمّر سام سبيغل. تخيّل هذا المخرج نفسه فورا يعلن لوالدي الأميرة النافذين أنّ ابنتهما اختفت بصحبة ملك مصر السابق.

وفي اليوم الموالي، بعث فاروق بباقة ورد ضخمة للأميرة، واتّصل بها هاتفياً، لكنّه لم يجدها. ذلك أنّ المنتج الأمريكي بعث بها إلى نيس على سبيل الحذر، حيث أجّر لها جناحاً بفندق نغريسو باسم مستعار. وبذلك لم يرها فاروق قط بعد ذلك، لكن طول المنفى وتضاؤل موارده المالية، سيضعفان تدريجياً هذا السحر وهذه الجاذبية.

كتبت باربارا سكيلتون، عشيقته الفاتنة سابقاً، في مذكّراتها: «صرت منذ ذلك الحين مثل عضو من أعضاء أسرة فاروق، وبذلك وجدت نفسي مراراً أقوم بدور المربية المكلّفة بالسهر على إيرما لمّا يخرج لجولاته الليلية. لمّا كنت أصل أحياناً بعد الظهر، أجد فاروقاً يلتهم قطعة لحم ضخمة من لحم الضأن بينما كان عليه أن يتبع حمية غذائية. فقَد روح الدعابة، وصار قليلاً ما يضحك، ولم يعد يدعى للحفلات إلا في مناسبات قليلة».

كان مجتمع روما في الحقيقة قد أبعد الملك المنفي، لا بسبب أخلاقه، بل لأنّه لم يعد يسلّي أحداً. كانوا يجدونه مملا، ولعلّ الملك أيضاً كان يبادلهم نفس الشعور مع فارق بسيط: هو أنّ الملل عند فاروق صار أبلغ تعبير عن اللامبالاة.

(٢٢)

الإسكندرية يوم ٢٦ يونيو/حزيران من سنة ١٩٥٦ على الساعة السابعة مساء.

ميدان المنشية، ميدان محمد علي سابقاً، محتشد بالجماهير، والجوّ في غاية اللطف بالنظر إلى شهر يوليو/حزيران. نفذ صبر الجماهير، فهي تريد أن ترى الرجل الذي تجاسر على مواجهة الغرب، تريد أن ترى بطلها. انبعثت صيحة فجأة، وراحت يد تشير إلى المنصّة العالية. ها هو يظهر! ها هو الريّس! عبد الناصر! وتعالت الهتافات باسمه، كما تعالت الزغاريد نحو السماء بدأت تتلألأ فيها طلائع النجوم.

أجل، إنّه عبد الناصر. بدا في منتهى الهدوء. حيًّا الجماهير بحركة من يده، ثمّ تناول المكروفون:

- أيّها المواطنون... نحتفل اليوم باستقبال العيد الخامس للثورة.. باستقبال السنة الخامسة للثورة، بعد أن قضينا أربع سنوات نكافح ونجاهد ونقاتل؛ للتخلّص من آثار الماضي البغيض.. للتخلّص من آثار الماضي الطويل.. للتخلّص من آثار الاستعمار الذي استبدّ بنا قروناً طويلة، وللتخلّص من آثار الاستبداد الذي تحكّم فينا، وللتخلّص من آثار الاستغلال الأجنبي والاستغلال الداخلي. إنّنا اليوم أشدّ عزماً، وأمضى قوة، وأشدّ إيماناً. لقد اتّحدنا وثرنا وكافحنا وقاتلنا وجاهدنا وانتصرنا.

ودوّت التصفيقات، فاسترسل عبد الناصر يقول:

- واليوم ونحن نتّجه إلى المستقبل نشعر أنّ معاركنا لم تنته، فليس من السهل.. ليس من السهل أبداً.. مش سهل أبداً أنّ احنا نبني نفسنا في وسط الأطماع.. الأطماع الدولية المتنافرة، والاستغلال الدولي، والمؤامرات الدولية.. مش سهل أبداً أنّ احنا نبني نفسنا.. نبني وطنا، ونحقق استقلالنا السياسي، ونحقق استقلالنا الاقتصادي. قدّامنا - أيها الإخوة - معارك طويلة سنكافح فيها.. قدّامنا معارك طويلة لنعيش أحرار، لنعيش كرماء، لنعيش أعزاء.

وتعالت هتافات الحشود: «احنا معك يا ريّس، احنا معك!»

أما هو فابتسم ابتسامة قاسية، واستطرد يقول:

- منذ أن أعلنت مصر سياستها الحرّة المستقلّة، وبدأ العالم ينظر إلى مصر ويعمل لها حساب.. بقوا يعملوا لنا حساب.. بدأوا يعملوا للعرب حساب، وللقومية العربيّة حساب. كنّا زمان نتلّطع على مكاتبهم؛ مكاتب المندوب السامي والسفير البريطاني، النهار ده بعد تحقيق حريتنا السياسيّة وبعد إعلان مبادئنا، وبعد تكاتفنا وإقامة جبهة وطنية متحدة من جميع أبناء هذا الشعب ضدّ الاستعمار، وضدّ الطغيان، وضدّ التحكم، وضدّ السيطرة، وضدّ الاستغلال، وضدّ التدخل الأجنبي؛ النهار ده قيمة مصر في المجال الدولي كبرت، وقيمة العرب في المجال الدولي كبرت وعظمت.

وراح البكباشي يستعرض مجمل ما تمخّض عنه المؤتمر الذي شارك فيه بـ«بريوني»، في يوغوسلافيا، وأشار إلى انضمام نهرو وتيتو إلى سياسة الحياد. ثمّ تطرق إثر ذلك إلى قضية استقلال مصر الاقتصادي، ومشاكل الإنتاج والدخل القومي ورغبته في أن يقود

البلاد إلى سبيل غير سبيل التسوّل والاستجداء، ثمّ وصل إلى قضية شراء الأسلحة.

- ابتدينا في سنة ٥٢ نتكلّم على تموين الجيش المصري بالأسلحة، قالوا لنا: ما نديكمش سلاح إلا إذا وقّعتوا معنا ميثاق الأمن المتبادل. تعرفوا ميثاق الأمن المتبادل معناه إيه؟ معناه انه تيجي بعثة أمريكية تقعد في مصر هنا تمشّي أمور الجيش المصري. قلنا لهم أنّ احنا لنا تجارب مع البعثات العسكرية. أنّ هدفهم الأول هو إضعاف الجيش المصري. قلنا لهم: مستعدّين نشترى أسلحة بفلوس، ما بنطلبش منكم معونة، لكنّهم رفضوا... ما رضيوش يدونا أبداً أي حاجة، لا مجّاناً ولا بالفلوس إلاّ أن نمضي؛ نمضي صكّ كرامتنا، ونمضي صكّ عبوديتنا.

ثمّ صمت ليستأنف بنبرة أحدّ:

- وبعدين استطعنا أنّ احنا نشترى سلاح من روسيا... باقول من روسيا مش من تشيكوسلوفاكيا... من روسيا... اتّفقنا مع روسيا على أنّها تمدّنا بالسلاح، ووافقت روسيا على أن تمدنا بالسلاح، وتمّت صفقة الأسلحة، وبعدين حصلت ضجة كبرى... إيه الغرض من الضجة دي؟ بيقولوا: دا السلاح الشيوعي، مش عارف أنا فيه سلاح شيوعي وسلاح غير شيوعي؟! أنا أعرف السلاح اللي ييجي هنا في مصر يبقى سلاح مصري. بعدين قالوا: إنهم عاملين خطة للحفاظ على ميزان التسلح في الشرق الأوسط ـ زي ما هم فاهمين هذا الكلام ـ ٧٠ مليون عربي ومليون صهيوني... أما يدوا الـ ٧٠ مليون عربي بندقية، حيدّوا للمليون صهيوني بندقيتين؛ علشان باستمرار يكونوا متفوّقين على

العرب، ويكونوا عامل تهديد لهم .حفظ التوازن، يدّوا الدول العربيّة كلّها طيارة... أيّ دولة عربيّة يدوها طيارة ويروحوا لإسرائيل يدوها طيارة، ويقولوا: دا حفظ التوازن في المنطقة... أي توازن؟! ومين اللي عملوكم أوصياء علينا علشان تحقّقوا التوازن في هذه المنطقة؟ هل احنا طلبنا منكم الوصاية؟!

لم تكن للنبرة وللغة المستعملة علاقة بما ألفه المصريون حتّى ذلك الحين. فهذا رجل من أرضهم، من لحمهم ودمهم. إنّها أول مرّة منذ قرون يقود فيها الشعبَ المصريَّ رجلٌ من أصل مصري. شخص يتحدّث مثلما يتحدّثون، يتكلّم« *بلدي*»، يتكلّم لغة رجل الشارع، لغة الكاوي والبواب، لغة الناس البسطاء.

فمن كثرة ما استعبد الفلاح المصري وخدع بكلّ الطرائق ـ وآخرها الأحزاب السياسيّة التي كانت تعبث به بواسطة خطاباتها الجوفاء ـ انتهى به الأمر أن صار يشكّ في كلّ شيء، ولا يهتمّ ـ وهو ما ساعدته عليه القدَرية الشرقية ـ بشيء. لا شكّ أنّه كان غارقاً في البؤس، لكنّه كان يفضّل أن يموت بصمت. إنّه المكتوب. كانت جدران كوخه الطينية، ونظرة جاموسته الوديعة الغامضة، وصومعة مسجده، تشكّل مبرّر وجوده وأفق حياته. أمّا الوطن، فكان بالنسبة إليه فكرة مجرّدة لا وجه لها. ولمّا كان يمرّ عليه موكب سيارات الكاديلاك الملكية اللامعة، لم يكن يصرخ ولم يكن يصفر، لم يكن يعبّر حتّى عن امتعاضه: يصدّ عنها باستخفاف رسمته قرون من الخضوع على محيّاه.

لكن الأمر هذه الليلة مختلف. وجدت الحشود هذا المساء من يتحدّث باسمها. فعبد الناصر بالنسبة إليهم ليس قائدهم، بل هو أبوهم وأخوهم الذي التقط آلامهم وبؤسهم، وقذف بها في وجه العالم.

أومأ بيده ليسكت الحشد، واستطرد يقول:

- وبعد هذا بدأ الكفاح في القنال، وكلّكم تعرفون مقدار التضحيات التي قدمناها، وعدد من سقطوا في ميدان الشرف خلال معارك القنال تلك. حلف بغداد وقف زي ما هو.. اتجمد.. ما قدروش يضموا له أيّ دولة عربيّة؛ بفضل الوعي العربي، وبفضل القومية العربيّة، وبفضل الرأي العام العربي. فيه معارك في الوطن العربي كلّه... الاستعمار عاون فرنسا في الجزائر وفي تونس وفي مراكش. بلدان الحلف الأطلسي نسوا المبادئ التي صرحوا بها في البداية، ونقلوا قواتهم لمحاربة الجزائريين. لكن القومية العربيّة ستنتصر هنا أيضاً!

ثمّ أثار موضوع السدّ العالي:

- حينما وصل «بلاك» - اللي هو مدير البنك الدولي - وابتدأ يتكلّم معايا في تمويل السد العالي وقعد يقول: أن احنا بنك دولي، احنا ما احناش بنك سياسي. وابتدأت أنظر إلى «مستر بلاك» - اللي هو قاعد على الكرسي - وكنت أتخيّل أن أنا قاعد وقاعد قدامي «فرديناند ديلسبس»، رجع بي التفكير إلى سنة ١٨٥٤. ولكي يتنازل ديلسبس عن بعض الامتيازات، كان على مصر أن تؤدي. بعد ذلك اشترت إنجلترا أسهم القناة بأربعة ملايين جنيه. لغاية دلوقت لم تخضع لقوانين البلاد ولا عرفها، بل تعتبر نفسها دولة داخل الدولة. التاريخ يعيد نفسه، ولا يمكن مطلقاً أن يعود التاريخ مرّة أخرى. احنا النهارده ما بنكررش اللي فات، احنا النهارده بنقضي على اللي فات.

صمت فجأة، وجال بعينيه في الحشد، وبدا أن الكلمات التي سيتفوه بها على قدر من الخطورة.

وأطبق بأصابعه على المكروفون، وأعلن:

- لن نقبل بأن تكون القنال دولة داخل دولة! مش عيب أبداً أن أنا أبقى فقير، ولكن العيب أن أنا أمتص دماء الشعوب وأمتص حقوق الشعوب... دا العيب. نستعيد حقوقنا في قنال السويس. هذه الأموال أموالنا، هذه القنال ملك لمصر؛ لأنّها شركة مساهمة مصرية، حفرت قنال السويس بواسطة أبناء مصر، ١٢٠ ألف مصري ماتوا وهم بيحفروها. «ديلسبس» أما جا هنا كان جاي زي ما جا «بلاك» علشان يتكلّم معايا، نفس العملية... مليون جنيه كل سنة بتاخدها شركة القنال.. ناخدها احنا لمنفعة مصر. النهار ده واحنا بنستقبل العام الخامس للثورة وزي ما طلع فاروق، النهار ده بتطلع قنال السويس في نفس اليوم. الآن.. دلوقت.. إخوة لكم بيستلموا شركة القنال.. شركة القنال المصريّة... مش شركة القنال الأجنبية... قاموا دلوقت ليستلموا شركة القنال، ومرافق شركة القنال، ويديروا الملاحة في القنال!

وسرت بين الحشود موجة من الهستيريا. وبينما راح عبد الناصر يضحك ضحكة مغتصبة، كانت إذاعة صوت العرب تنقل خطابه إلى العالم المذهول.

لندن في هذا المساء، في نفس اللحظة.

كان ضيوف أنطوني ينهون عشاءهم بمقرّ رئاسة الوزارة البريطانية، رقم ١٠ دوانںج ستريت. كان من بين الحضور فيصل، ملك العراق، ونوري السعيد رئيس وزرائه إلى جانب عدد من الساسة والقادة العسكريين البريطانيين. تحدّثوا كثيراً عن الشرق الأوسط، وتساءلوا أيضاً عن ردود أفعال عبد الناصر بعد رفض طلب مساعدته في بناء السد العالي.

قال إيدن وهو يبتسم:

ـ لقد انهزم عقيدنا المنبوذ! هزم شرّ هزيمة!

أيّده الملك فيصل في رأيه، واستغرب المساندة التي يلقاها عبد الناصر في العالم العربي، وعلّق قائلاً:

ـ أتساءل عمّن سيخلفه بعد سقوطه يا ترى...

لكن دخول إحدى السكرتيرات قاطعه. اقتربت من إيدن وقد بدا عليها الارتباك، وسلّمته قصاصة من ورق. امتقع وجه رئيس الوزراء البريطاني على نحو لافت للنظر.

سأله أحد الضيوف بقلق:

ـ ماذا جرى؟ هل وصلك خبر سيّء؟

لزم إيدن الصمت لحظة، ثمّ أعلن بصوت حانق:

ـ كيف يُقدم على فعل ذلك؟ كيف يُقدم؟

وسأل الملك فيصل بدوره:

ـ ماذا جرى يا سير إيدن؟

ـ ما وقع يا صاحب الجلالة هو أن عبد الناصر أعلن قبل قليل عن تأميم القناة!

لم يصدق الضيوف الخبر. وراح إيدن يردّد: مستحيل! وما كادت لحظة الصدمة تمرّ حتّى مال رئيس الوزراء البريطاني نحو نوري سعيد وقال له:

ـ ما رأيك؟

فردّ الوزير الأوّل العراقي:

- لم يبق أمامكم سوى سبيل واحد للعمل هو: اضربوا الآن، واضربوه بشدّة، وإلا سيفوت الأوان. إن هو نجح في مسعاه، ستتضاعف شعبيته!

علّق إيدن وقد استعاد هدوءه الإنجليزي:

- على كلّ حال، لقد ارتكب حماقة. فمصر غير قادرة على إدارة القناة. فهي تفتقر لمن يقودون المراكب، كما تعوزها الأطر ذات الكفاءة. سينهار كل شيء في غضون بضعة أشهر.

كان إيدن مخطئاً، إذ دخل رسول جديد يحمل رسالة أخرى تقول إنّ عبد الناصر أمر جميع الخبراء الأجانب الذين يديرون القناة بالبقاء وأداء واجبهم.

زمجر إيدن غضباً:

- يا له من سلوك شنيع! يأخذ المواطنين الإنجليز رهائن؟!

قام من مقعده، واعتذر لضيوفه وهرع إلى هاتفه. ولمّا عاد إلى قاعة الأكل، بدا أكثر هدوء. لقد استدعى كلّ وزرائه لاجتماع طارئ.

قال وهو يبتسم:

- سنهزمه. سنجعله يفهم أنّ السياسة لا تحتمل الارتجال.

قال نوري السعيد مؤيّداً وقد علاه الوجوم:

- آمل ذلك، لأنّكم إن تركتموه يتمادى في عمله، سيقضي علينا جميعاً!

لو قيض لإيدن الاطلاع على ما يجول في ذهن عبد الناصر، ما كان له أن يذكر كلمة «ارتجال». ذلك أنّ البكباشي درس خطّته لفترة طويلة، وقلّبها من كلّ أوجهها. بدأ التفكير فيها منذ أن أخبره سفيره

بالشروط المهينة التي سعت الولايات المتّحدة لفرضها عليه. بل حتّى ذكر ديلسبس مرّات عديدة في خطبته، لم يكن صدفة.

انعزل في مكتبه منذ عودته من بريوني، ووضع قائمة بالعواقب التي يمكن أن تترتّب عن تأميم القناة. وقد عنون هذه القائمة بـ«لو كنت مكان إيدن».

١ ـ سيتصرّف إيدن بعنف.

٢ ـ سيتّخذ هذا العنف شكل عمل عسكري. سوف يلجأ إلى العنف لأنّه يشعر بأنّ موقفه ضعيف. فالعنف لا ينمّ عن القوة، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل؟ غزو شامل؟ أستبعد ذلك. ربّما حاول أن يشقّ طريقه بالقوة المسلحة عبر قناة السويس بإدخال سفن حربية إلى القناة. ماذا لو دفعنا بقافلة من السفن في الاتجاه الآخر لمقابلتهم، وتسدّ ممرّ القناة. هل باستطاعة البوارج ساعتها التراجع إلى الخلف؟

٣ ـ إن احتمال استخدام العنف سيكون بنسبة ٨٠٪، وسوف يتوقّف ذلك على عدد القوّات البريطانية الجاهزة للتدخّل بسرعة من البحر الأبيض المتوسط وعدن وقبرص ومالطة.

٤ ـ المرجّح أن إيدن سيحاول أن يجرّ فرنسا معه، أو ربّما جرت فرنسا إيدن. لكنّ فرنسا سوف تشترك بالتأكيد في أيّة عملية ضدّنا.

٥ ـ ستبقى الولايات المتّحدة صامتة مع أنّها ستبارك هذه الخطوة همساً، ولم لا؟ أليست هي المسئولة عن كلّ هذا. هل يستطيع أحد أن يدرس الآثار الممثلة لحركة الانتخابات المقبلة؟

٦ ـ إن موقف روسيا سيكون حاسماً. هل نخبرهم بخطّتنا؟ هل

نفاجئهم؟ وإذا أخبرناهم، فهل سيعني ذلك أنّنا نطلب الإذن منهم؟ وإذا باغتناهم، فهل معنى هذا أنهم لن يشعروا بأيّ التزام اتّجاهنا؟ أو ربّما إذا أطلعناهم، فإنهم سيحاولون ثنينا عن عزمنا بكلّ تلك الحسابات الحذرة التي يفرطون فيها عادة... الأفضل ألا نخبرهم. ماذا سيكون موقفهم؟ التدخل المباشر في حالة وقوع غزو؟ البقاء بعيداً من المشكلة؟ الدعم السياسي؟ هذا هو الأرجح.

٧ ـ الأمم المتّحدة؟ تحال هذه النقطة على الدكتور فوزي، وزير الخارجية المصري، لدراستها تفصيلاً.

٨ ـ فرص نجاح الغزو؟ صعبة جدًّا. ولكن ما هي الاحتمالات؟ هل يمكن أن يهاجموا الإسكندرية من ليبيا؟ إنّ هذا يحتاج إلى قوّات ضخمة لأنّه سيكون عليهم المضي حتّى القاهرة. هل يمكن أن يقصفوا الإسكندرية من البحر كما فعل الأميرال سيمور عام ١٨٨١؟ إنّ هذا مستحيل تماماً. إنّ الرأي العام العالمي لن يسمح بذلك فضلاً عن أنّه أمر لن يؤدي إلى شيء على كل حال. عمليّة إنزال ثمّ احتلال القناة؟ محتمل. وعلينا تدعيم القيادة الشرقية.

٩ ـ إخلاء سيناء. (التحدّث في هذا الحكم مع عبد الحكيم عامر). لا يجب أن تترك أكثر من القوّات الضرورية فقط.

١٠ ـ إسرائيل. يستبعد اشتراك إسرائيل في هذه العملية. إيدن لن يقبل. إسرائيل قد تحاول، لكن إيدن لن يقبل. إنّه يفضّل أن تبقى العملية أوروبية خالصة.

١١ ـ الحرس الوطني. أين يجب تركيزه؟ يحال الموضوع على كمال الدين حسين (قائد الحرس الوطني).

١٢ـ الوقت الملائم للتدخل؟ يجب أن يكون فوريًا. يجب أن يبدو كردّ فعل مباشر. إذا تأخّر إيدن فإن الضغط عليه سوف يزداد.

١٣ـ هل نستطيع أن نكسب وقتاً؟ (إعداد رسائل إلى تيتو ونهرو وسوكارنو).

١٤ـ هل تغامر إسرائيل بمفردها وتهاجم سوريا أو الأردن؟ (رسالة إلى السوريين والأردنيين... الأفضل... الأفضل أن يبقوا صامتين. إنّنا في حاجة إلى تقدير مفصّل من لجنة التقديرات في جهاز المخابرات.

الاستنتاج. اللحظة التي يكون فيها الخطر على أشّده، أيّ بنسبة ٨٠٪، هي بداية أغسطس، وسيتدرّج في الهبوط بمرور الأسابيع بفضل العمل السياسي. كيف يمكن أن نحوّل الموقف لصالحنا؟ هذا أمر يمكن أن يتكلّف به فوزي. فهو خبير بإرهاق الخصم قبل سحقه بالضربة القاضية. في الأسبوع الثاني من أغسطس، سينخفض الخطر إلى ٦٠٪، وفي الأسبوع الثالث إلى ٥٠٪، وفي الأسبوع الرابع إلى ٤٠٪. أمّا في آخر سبتمبر/أيلول، فسيصير ٢٠٪.

هل يمكن أن نربح شهرين بواسطة المناورات السياسيّة؟ إذا نجحنا، سنكون قد خرجنا من المأزق. هناك أشياء كثيرة تتوقّف على فوزي.

تلقّى الصحفي محمد حسنين هيكل هذه الملاحظات في نفس المساء عبر الهاتف. وفي يوم ٢٤ يوليو/تموز، طلب عبد الناصر من المهندس محمود يونس أن يزوره، وأسرّ له بقراره تأميم القناة، وكلّفه بإعداد تقرير فني مفصّل في ثمان وأربعين ساعة حول العملية المزمع تنفيذها. وفي صباح يوم ٢٦ يوليو/تموز، سلّمه الخطط الكاملة المتعلّقة بالإشراف على إدارة القناة، فقال له عبد الناصر:

- اذهب إلى الإسكندرية حالاً، وتابع عبر الراديو الخطاب الذي سألقيه هذا المساء من الإسكندرية، وبمجرّد ما أذكر اسم ديلسبس، اشرع في تنفيذ الخطّة.

كان اسم ديلسبس هو كلمة السرّ... وقد خشي عبد الناصر ألا يسمعه يونس، لذلك كرّره ثلاث مرّات من باب الاحتراز.

بدت أرض الكنانة في ليلة ٢٦ يوليو/تموز تلك كما لو أصابها مسّ. سرى في البلد بكاملها شعور عارم بالعزّة. كان الشعب مقتنعاً بأنّ يداً خفيّة كسّرت السلاسل التي كبّلته منذ زمن سحيق. أمّا العواصم الغربية، فخيّم عليها جوّ مختلف، مفعم بالريبة.

صبّ كلّ من إيدن ولويد (Lloyd) وجي موليه (Mollet) وبينو (Pineau) جامّ غضبهم بلندن وباريس، على «هتلر الجديد»، على هذا «المخرب الوقح»، هذا «الدكتاتور اليائس».

كان محيط البكباشي في القاهرة مندهشاً من كلّ تلك الفظاظة: ما العيب في تأميم شركة القناة، أليست شركة مصريّة؟ ماذا تخسر فرنسا من التأميم؟ مالكو الأسهم؟ سيعوّضون بسعر ممتاز. حرية الملاحة؟ مصر هي الخاسر الأوّل إن لم تضمن حريّة الملاحة. ليس في هذه العملية ضمّ لأرض ولا سفك لدماء، ولا تهديد لاستقلال شعب من الشعوب. هذا فضلاً عن أنّ الجميع يغفل، في خضم هذا الفزع الشامل، عنصراً في غاية الأهمية: هو أن السيد ديلسبس حصل على امتياز استغلال القناة لمدّة مئة سنة، لم يفضل منها سوى خمس عشرة سنة. فابتداء من ١٩٦٨، ستنتقل القناة إلى مصر على كلّ حال، ستستعيد حقّ ملكيتها، ولن تدفع مليماً واحداً للمساهمين في شركة استغلالها. فإذا ما فكّر المرء مليًّا، سينتهي إلى أن هذا التأميم يمثل بالنسبة إليهم صفقة مربحة.

فلماذا كل هذه الجلبة إذن؟

ألم يؤمّم دوغول موارد فرنسا الطاقية ومصانع رونو؟ وبريطانيا، ألم تؤمّم بنك إنجلترا ومناجم الفحم والطيران المدني؟

وفي يوم ٢٩ يوليو/تموز، اجتمع إيدن بممثلي الحكومتين الفرنسية والأمريكيّة، فبعث فوستر دالاس، وقد كان مصاباً بداء السرطان، أحد معاونيه، هو روبيرت مورفي.

في تلك الأثناء، حذّر سفير فرنسا بواشنطن كوف دو ميرفيل دالاس قائلاً: «لقد قضيت سنوات بالقاهرة وأعرف عبد الناصر جيّداً. توخّوا الحذر في محادثاتكم».

وجد سفير مصر نفسه بلندن معزولاً إلى حدّ ما، ولم يكن يصله إلا قليل من المعلومات حول ما يحاك ضدّ مصر. اتّصل عبد الناصر بصديقه محمد هيكل ليعرف مضمون ما تحمله برقيات الوكالات من لندن. لكنّه أجابه بأنه لم يتوصّل بشيء، ووعده بأن يعاود الاتصال به حالما تصله الأخبار. فأجابه البكباشي:

- لا تزعج نفسك. أنا ذاهب إلى السينما. ولماذا أجلس مشدوداً في انتظار ما يقولون؟ فسأعرف بالأمر حالما يصدرون بلاغاً عن الاجتماع.

لحظات بعد ذلك، انتهى المؤتمر الذي عقده إيدن. كان القرار الذي اتّخذوه هو تجميد الأصول المصريّة في الخارج، والاتفاق على عقد لقاء يجمع الدول الاثنين والعشرين التي تستعمل القناة، وذلك يوم ١٦ أغسطس بمدينة لانكاستر الإنجليزية. وسيمثل فيه فوستر دالاس الولايات المتّحدة الأمريكيّة، بينما سيمثل كريستيان بينو فرنسا. وقد دعيت مصر للمشاركة.

قبلَ عبد الناصر الدعوة عملاً بنصيحة نهرو وتيتو. فهذا المؤتمر سيسمح له على كلّ حال بكسب الوقت. فلنتذكّر ملاحظاته: «*اللحظة التي يكون فيها الخطر على أشدّه، أي بنسبة ٨٠٪، هي بداية أغسطس، وسيتدرج في التراجع بمرور الأسابيع بفضل العمل السياسي*».

كان رئيس الوزراء البريطاني حانقاً على عبد الناصر. فقبل وصوله بأيام، شنّ عليه حملة شخصية شعواء في أحد البرامج التلفزية. وجّه انتقادات له لاذعة، وختم كلامه ملوّحاً بورقة في يده أمام الكاميرا وهو يقول:

- هذا هو سجلّ عبد الناصر الأسود!

لمّا علم عبد الناصر بذلك، اكتفى بأن هزّ كتفيه وقال: «هذا الرجل يمثّل، لقد تحوّل من رئيس وزراء إلى ممثّل»

وألغى سفره إلى إنجلترا. لا ينبغي إغفال أنّه صعيدي.

أنهى مؤتمر لانكاستر أشغاله يوم ١٦ أغسطس/آب بإعلانٍ - من وحي فوستر دالاس - يقترح أن تسهر على إدارة القناة ومراقبتها هيئة دولية. لكن عبد الناصر أعلن أنّ الأمر مرفوض تماماً.

وأرسلت بعثة إلى القاهرة بقصد إعادة البكباشي إلى رشده، لكن من دون جدوى. قال للبعثة التي كان يرأسها رئيس الوزراء الأسترالي منزيس:

«إنك تعتقد أنّ الإدارة الدولية ستنهي المتاعب، لكنّني أعتقد بأنّ الإدارة الدولية ستكون بداية المتاعب».

انحنى منزيس فوق مكتب الرئيس بينما عقد حاجبيه وقال بنبرة تشي بالوعيد:

- يا سيادة الرئيس إنّ رفضك للإدارة الدولية هو الذي سيكون بداية المتاعب.

وأغلق عبد الناصر الملفات الموضوعة أمامه على المكتب بعنف وقال:

- إنّك تهدّدني. حسناً. لقد انتهى ما عندي، ولن يكون هناك المزيد من المناقشات. انتهى كلّ شيء، إنّني أقول إن قبولي للإدارة الدولية سوف يكون بداية المتاعب، وأنت تقول إنّ رفضي لها سيكون بداية المتاعب، وإذن فإنّ المتاعب قادمة في كلّ الأحوال، وإذا كان الأمر كذلك، فلنواجهها منذ هذه اللحظة، وأنا لست مستعدًّا لقبول تهديدات.

امتقع منزيس واحتقن وجهه بحمرة شديدة. حاول بقيّة أعضاء البعثة تهدئة الجوّ، وقال منزيس مستدركاً:

- آسف، لم أقصد إلى تهديدك.

على أنّ البكباشي لم يلن، وظلّ وفيًّا لطبعه الصعيدي. ردّ في غضب شديد:

- إنّ قولك لي إنّ رفضي القبول بإدارة دولية سيكون بداية المتاعب الحقيقية هو تهديد، ولن أفاوض تحت التهديد.

كانت تلك نهاية بعثة منزيس.

في يوم الثامن والعشرين من أغسطس، أعلن فوستر دالاس في مؤتمر صحفي بواشنطن كلاما مبهماً: «إنّ قناة السويس ليست من أولويات الولايات المتّحدة»، وهو ما كاد يقتل إيدن كمداً.

واجتمع يوم ٢٢ أكتوبر/تشرين الثاني في سرية تامة سلوين لويد، ممثل بريطانيا، وكريستيان بينو، وزير الشئون الخارجية الفرنسي،

وبن غوريون مرفوقا بشمعون بيريز وموشي دايان، وذلك بفيلا سيفر. وتتلخّص الخطة التي صاغوها في ثلاث نقاط:

- يشرع الإسرائيليون يوم ٢٩ أكتوبر/تشرين الثاني بمهاجمة مصر. إنّها عملية «كاديش».
- توجّه فرنسا وبريطانيا إنذاراً شكليًّا إلى كلّ من مصر وإسرائيل لمطالبتهما بوقف إطلاق النار.
- ثمّ تهاجم فرنسا وبريطانيا بدورهما، وتحتلان منطقة القناة. وهذه هي عملية «الفرسان».

قد نتساءل عن مشاركة إسرائيل في هذا المشروع. لم يكن ذلك فعلاً مرتجلاً كما قد يظهر. فبعد جلاء القوات البريطانية عن مصر، وجدت إسرائيل نفسها وجهاً لوجه مع جيش عبد الناصر بعد اختفاء القوات العازلة، إذ كانت بمثابة ضامن لأمنها. ثمّ هناك من جانب آخر غارات الفدائيين الذين يهاجمون الكيبوتزات، وما تخلقه هذه العمليات من ضغط يتصاعد باستمرار مع ارتفاع عدد الضحايا. فقد انتقل هذا العدد من ١٣٧ إلى ٢٣٨ قتيلاً بين سنتي ١٩٥١ و١٩٥٥. يضاف إلى هذا الإعلان الذي أصدره عبد الناصر، والذي وعد فيه بتشديد الحصار على خليج العقبة، الواقع شرق شبه جزيرة سيناء، وغرب شبه الجزيرة العربيّة، وهو المنفذ الوحيد للسفن الإسرائيلية على البحر الأحمر.

هكذا أبدت الدولة اليهودية استعدادها للمشاركة في العملية، بما يخدم استراتيجيتها القائمة على «الحرب الوقائية».

ثمّ طرحت قضية السويس يوم ٥ أكتوبر/تشرين الأول أمام مجلس الأمن الذي عقد جلساته لمدّة تسعة أيام، وانتهى إلى إقرار ستّة مبادئ بالإجماع، يمكن أن تقوم عليها التسوية.

وفي ٢٥ أكتوبر/تشرين الأوّل طرحت قضية قناة السويس على مجلس الأمن، كما لو أنّه لا وجود لاتفاق سري. وبعد تسعة أيّام متتالية من النقاش، تمّ تبنّي ستة مبادئ بالإجماع، ستكون بمثابة مقدّمة للتسوية. وتقرّر عقد مؤتمر بجنيف يوم ٢٩ أكتوبر/تشرين الأوّل.

عند الخروج من المؤتمر، اقترب داج همرشولد، الأمين العام للأمم المتّحدة، من الدكتور فوزي، وزير الخارجية المصري، وهمس له:

- إنّها نتيجة ممتازة. فبعد أن أنهى البريطانيون استعداداتهم العسكرية ضدّكم، مرّ القطار وفات المحطّة.

كان همرشولد مخطئاً في حكمه. فقد كان القطار على وشك دخول المحطّة.

في يوم ٢٩ أكتوبر/تشرين الثاني على الساعة الثامنة والنصف، انطلقت عملية «الفرسان»، واندفعت المدرعات الإسرائيلية في الأراضي المصريّة.

(٢٣)

يوم ٢٩ أكتوبر/
تشرين الأوّل على الساعة التاسعة مساء.

بينما كان عبد الناصر في بيته يحتفل بعيد ميلاد أحد أولاده، جاءه رسول مسرعاً ليخبره بأنّ إسرائيل هجمت.

غادر عبد النصر الحفلة، واستدعى معاونيه. وصدرت الأوامر للقوات المصريّة المكلّفة بحماية القناة بترك مواقعها، والتحرّك نحو سيناء، وبذلك بقيت منطقة القناة من دون حماية.

وفي الثلاثين من أكتوبر/تشرين الأوّل، أعلن إيدن ومولیه، كما يقضي الاتفاق، آخر الظهيرة، في برلمان دولة كلّ منهما، بأنّهما قدّما مهلة للمتحاربين، وطالباهما بالانسحاب ١٥ كلم عن ضفتي قناة السويس، والسماح بوصول القوات البريطانية الفرنسية إلى بورسعيد والإسماعيلية والسويس، وإلا فسيجري احتلال هذه القواعد بالقوة.

حدّدت المهلة في اثنتي عشرة ساعة.

لم يفهم عبد الناصر شيئاً ممّا وقع. لماذا هذا الطلب بينما ما زال الإسرائيليون ـ في هذا الطور من العمليات ـ بعيدين من ضفّة القناة بحوالي ستين كيلومتراً؟ إنّ تنفيذ شروط المهلة معناه سحب القوات المصريّة الموجودة في سيناء، ومطالبتها بعبور القناة، والتمركز على

بعد ١٥ كيلومترا من ضفتها الغربية. أمّا بالنسبة إلى إسرائيليين، فكانت المهلة تدعوهم ببساطة إلى مواصلة تقدمهم حتّى لا يعود بينهم وبين القناة غير عشرة أميال. إنّه العبث بعينه!

لكنّه كان يجهل كلّ شيء عن مفاوضات سيفر السريّة.

مهما يكن، لا مجال للانصياع للإنذار.

وفي يوم ٣١ أكتوبر/تشرين الأوّل على الساعة الخامسة وخمسين دقيقة مساء، لاحت في سماء مصر أولى طائرات القوّات المسلحة الملكية. ولم يكن ما تدبّره فرنسا بعيداً.

في السادسة والربع مساء سقط وابل من القنابل على المطارات، مصيباً أولى الطائرات التي اشتراها المصريون من الاتحاد السوفييتي.

كانت القوات الفرنسية البريطانية قد خطّطت ليومين من القصف المكثّف، وذلك لشلّ الطيران المصري. لكن يوماً واحداً كان كافياً. ذلك أنّ مصر لم تكن تملك حينئذ غير ثلاثين طائرة تقريباً، كان معظمها معطلاً. أمّا المدرّعات، فسحبت من سيناء، وكانت تحاول المقاومة بكلّ ما أوتيت. وفي نفس الآن، جرى إغراق زوارق مشحونة بالإسمنت وخردة الحديد لتعطيل الملاحة بالقناة، بحيث لم يعد من الممكن عبور أي سفينة. ارتفعت نداءات المؤذنين في سائر البلدان العربيّة بالدعوة للجهاد.

دوّت صفّارات الإنذار، فهرعتُ إلى الشرفة لعلّي أرى الطائرات الحربية البريطانية والفرنسية. لم أكن الوحيد. كان معظم المارّة في الشارع ينظرون إلى السماء. قيل لي إنّ أضواء السيارات صبغت بالأزرق حتّى لا تظهر من السماء في الظلام. في الليل أيضاً تعالت نداءات الناس وهم يصيحون: «أطفئوا النور!»

كنت في التاسعة من عمري. لم أفهم شيئاً من هذه الحرب. لكنّني كنت أرى التوتّر بادياً على والديّ. استبشر وجه أبي. علّق قائلاً: «سيصل الفرنسيون والإنجليز، وهذا أمر جيد». وفي الوقت ذاته، هزّ رأسه كما لو أنّه يريد إظهار استنكاره: «إنّه أمر مُخز. كان من الممكن أن يعالجوا الأمر بكيفية مختلفة». لم أفهم هذا التناقض، لكن لا بأس! كانت الحرب تعني بالنسبة إليّ أمراً واحداً: المدرسة تغلق أبوابها.

ومع مرور الأيام، تمكّنت من فهم كلام والدي على نحو أوضح. فهؤلاء الناس الذين استقرّوا بمصر منذ أجيال، والذين كانوا في معظمهم مسيحيين ويونانيين ويهوداً، لم يستبشروا خيراً بوصول عبد الناصر إلى الحكم، لكنّهم أحسّوا فجأة، أمام هذه الهجمة، بالتضامن مع الرجل الذي كان إلى عهد قريب، مصدر قلقهم. كانوا يرون أنّ هذه الهجمة لم تكن موجّهة لعبد الناصر، بل لأرض مصر. طلب الجيش من عائلة سرسق التي كانت تملك قصراً مقابل جسر استراتيجي، وضع مدافع مضادة للطائرات وكذا بعض الدبابات في حديقتها، فقبلت بصدر رحب. وهرعت هيلين سرسق إلى المستشفيات حتّى تكون جاهزة لاستقبال الجرحى.

أما عبد الناصر، فلجأ إلى مكتبه القديم الذي كان يشغله أيام كان رئيساً لمجلس الثورة. لم تكن القوات الفرنسية البريطانية في نظره بالعدد الكافي لاحتلال منطقة في شساعة مصر، وبذلك فكلّما تقدموا، زاد ضعفهم. ليس أمامه على كلّ حال سوى انتظار الإنزال. ثمّ إنّ الفرق العسكرية المصريّة المتناثرة تقاتل باستماتة، وهو مستعدّ لنقل مركز القيادة العامة إلى الصعيد، وخوض حرب عصابات إذا لزم الأمر. أبداً لن يستسلم! لاسيما لعدوّ مثل أنطوني إيدن.

وقد عبّر عن ذلك بقوله:

«لو جاء إيدن بالأسطول البريطاني وحاول غزو مصر لكان المصريون سامحوه ونسوا الأمر حال انتهائه، بل حتّى لو جاء مع الفرنسيين لقلنا لعلّه كان في حاجة إلى حليف. ولكن أن يزجّ بالإسرائيليين في مغامرة ضدّ العرب، فهذه هي قمّة الحماقة. فقد كنّا معتادين كره السياسة البريطانية، لكنّنا بدأنا نحتقرها. إنّني آسف إذا استخدمت كلمة احتقار، لكنّها الكلمة الوحيدة التي تنطبق على هذا التصرف. يمكن أن أتوصّل إلى تسوية مع عدوّ أكرهه، ولا يمكن أن أفعل ذلك مع عدوّ أحتقره»

استشاط الرئيس إيزنهاور غضباً بواشنطن، إذ اعتقد أنّه خدع. وفي الأمم المتّحدة جرى التصويت على مقترح أمريكي بسبعة أصوات مقابل صوتين، هما صوتا بريطانيا وفرنسا، لكن هاتين الدولتين سرعان ما استعملتا الفيتو ضدّ هذا المقترح.

سأل نواب حزب العمال إيدن: «هل نحن في حالة حرب مع مصر، أم في حالة سلم؟» فكان جوابه: «لست مستعدًّا لتقديم تفاصيل لهذا المجلس». لكن أمام الإلحاح في السؤال، اعترف بأنّ العدوان قد انطلق.

هتف جيتسكيل زعيم حزب العمال المعارض: «باتّخاذ هذا القرار، تكون الحكومة قد ارتكبت حماقة كارثية، سوف نندم لسنوات طويلة على عواقبها المأسوية. أجل سنندم على ذلك جميعاً، لأنّها ستصيب صورة بلادنا وسمعتها بخسارة يتعذّر تداركها. بصنيعكم هذا، لم تكتفوا بإهمال المبادئ الثلاثة التي وجهت السياسة البريطانية الخارجية، وهي: التضامن مع الكومنولث والتحالف الأنجلو ـ أمريكي، واحترام ميثاق الأمم المتّحدة؛ بل ضربتم بها عرض الحائط...»

لهذه الكلمات صدى غريب. يتهيّأ لمن يسمعها أنّه ينصت للاعتراضات التي تعالت لحظة غزو الولايات المتّحدة للعراق سنة ٢٠٠٣.

لكن بينما كان النقاش محتدماً في البرلمان البريطاني، كانت العمليات العسكرية متواصلة: قصف مكثّف للمطارات المصريّة والمعسكرات والنقاط الاستراتيجية ومحطّات الإذاعة لإسكات صوت *العرب*، وكذا «تنظيف» أحياء بورسعيد، حيث كانت مهمة المظليين هي احتلال المرفأ الذي كان الأسطول الحربي البريطاني متوجّهاً إليه.

أُلقي ما يقارب المليون منشور من الأجواء المصريّة، موجّهة لأفراد الجيش المصري يتوعّدونهم فيها ثبوراً، ويحثّونهم على ترحيل أهاليهم من منازلهم وقراهم، وتدارك الخطأ الذي ارتكبوه وهو الثقة في عبد الناصر.

ألا يكرّر التاريخ نفسه إلى الأبد عائداً بوجه مقنّع؟ في شهر أغسطس/آب من سنة ٢٠٠٦، أُلقيت منشورات شبيهة على جنوب لبنان، ومن جديد سقط العديد من القتلى الأبرياء...

وفي الثاني من نوفمبر/تشرين الثاني، صوّتت الجمعية العامة للأمم المتّحدة على قرار يقضي بوقف المعارك فورا، وانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء، وهو قرار قبله بن غوريون، لكنه رفض التخلّي عن سيناء.

نزلت القوات البريطانية والفرنسية، كما تقضي بذلك الخطة، عبر الجوّ بمدينة بورسعيد على نحو مستعجل. وبخلاف ما كان منتظراً، صمدت المدينة مُجبِرة المظليين على الاشتباك في حرب شوارع. وجاءت الأوامر من القاهرة بمواصلة الكفاح المسلّح، وطافت

شاحنات مجهّزة بمكبّرات صوت في الشوارع تدعو السكان إلى الصمود إلى آخر نفس، وَوُزّع السلاح على المدنيين، وهو ما أجبر السير شارلز كيغتلي، المسئول عن قوات الهجوم البريطانية، على تغيير خططه. كتب إلى حكومته يقول: «صار من الواضح منذ اليوم، الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٦، أنّ مدينة بورسعيد لا يمكن احتلالها وتنظيفها اعتماداً على المظليين وحدهم. ينبغي الشروع في إنزال قوّات أرضية».

بمقرّ الحكومة البريطانية بوايتهال، كما في ماتنيون بفرنسا، كانوا يترقّبون اتصالاً هاتفياً من القاهرة يعلن عن إسقاط الديكتاتور. لكن مع تواصل العملية العسكرية الأنجلو ـ فرنسية، كانت ردود الفعل الدولية تزداد حدّة. وتعرّضت العملة البريطانية للهجوم في كلّ الأسواق المالية من دون أن تتدخّل الولايات المتّحدة.

وفي الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني، جاء إعلان السوفييت بأنّهم سيتدخلون إن لم تتوقّف العملية. وأوضح الكرملين إمكانية اللجوء إلى السلاح النووي. حينذاك خرجت الولايات المتّحدة من صمتها، وأعلن إيزنهاور صراحة، وعلى نحو واضح: «أنّ المهزلة طالت أكثر من اللازم».

بدأ شعور إيدن بالعزلة يتزايد، وأصبحت تتراءى له ملامح أزمة سياسية. وفي السادس من نوفمبر/تشرين الثاني، بينما وصل الأسطول البريطاني الفرنسي إلى بورسعيد، وافق إيدن على وقف إطلاق النار، واضطر الفرنسيون إلى أن يحذوا حذوه، وبذلك جمع الجنود أغراضهم، وقفلوا راجعين لا يلوون على شيء. واضطر بن غوريون أيضاً، تحت ضغط الولايات المتّحدة، إلى سحب مدرّعاته من سيناء وغزّة.

كان نصر الرئيس العقيد نصراً مظفّراً. لكن يبقى أنّ قصف بورسعيد خلف مقتل أكثر ألف مدني.

لقد صرخت السيدة بيسي برادوك، النائبة البرلمانية عن الحزب العمالي، خلال جلسة من جلسات البرلمان البريطاني: «أنتم عصابة قتلة!»، فشحب لون إيدن.

غداة هذا الفشل الذريع، خلص الصحفي كلود بوردي في أعمدة فرانس أوبسيرفاتور إلى القول: «كلّ شيء على ما يرام، أليس كذلك سيدي رئيس المجلس؟ فنظام العقيد عبد الناصر هو اليوم أقوى من أيّ وقت مضى، ومشاعر المصريين وبقيّة الدول العربيّة نحو فرنسا، التي كانت غامضة بالأمس، هي اليوم تنضح كراهيّة. لن يوجد بعد اليوم في الشرق الأوسط معهد فرنسي ولا مدرسة فرنسية، ولن يشتري أحد السلع الفرنسية، ولن يوظِّف أحد تقنيينا. سيلقى المتمرّدون الجزائريون الدعم اليوم من كلّ الدول العربيّة.

«سيتحمّل فرنسيو مصر ردود فعل هذه العملية الغبية وغير العادلة، وهو أمر لا مفرّ منه. ستتحطّم حياتهم، وسيؤدّون من ممتلكاتهم الخسائر التي تسبّب فيها غيرهم. كلّ شيء على ما يرام. فقد قرّرت الولايات المتّحدة أن تركع فرنسا، وهي تملك القدرة على ذلك، وحلم الاستقلال الذي راود بينو للحظة، تبخّر. حتّى الروس فضلوا التعامل مع إيزنهاور على التعامل مع دمية بونابارت. كل شيء على ما يرام».

كان الصحفي محقًّا في ما قال. ففي الشهور الموالية، أمرت الحكومة المصريّة بإغلاق المدارس الإنجليزية والفرنسية. ستفتح أبوابها من جديد، لكن تحت الوصاية المباشرة لوزارة التعليم الحكومي المصري.

شهدنا كيف أخذ البوليس مدير المدرسة، الأب بيفو بقصد «التحقيق» معه، لكن أطلق سراحه فوراً بفضل تدخّل مسئولين حكوميين كبار. والسبب هو أنّ أبناءهم كانوا مسجّلين في الثانوية. لقد تلقى التأثير الثقافي الفرنسي في البلد ضربة مميتة بسبب ما سمي في مصر بـ«العدوان الثلاثي». لقد دُمّرت صورة فرنسا بأرض الكنانة.

(٢٤)

استقال إيدن من منصبه يوم التاسع من يناير/كانون الثاني من سنة ١٩٥٧، بعد أن فقد الحظوة، وهدّه المرض. لقد جعل بحماقاته من البكباشي بطلاً، وزعيم العرب بلا منازع. لكن الرئيس العقيد اضطرّ مع ذلك إلى تقديم بعض التنازلات: فتح باب المندب الذي كان قد أغلقه قبل عام من ذلك، وسمح بمرور السفن الإسرائيلية من جديد.

بين نوفمبر/تشرين الثاني ودسمبر/كانون الأوّل من سنة ١٩٥٦، اقترح دبلوماسي كندي يدعى ليستر بيرسون أن تخلق الأمم المتّحدة قوّة لحفظ السلام تحت إشرافها، تفصل بين المعسكرين، وسعى جاهداً لخلق هذه القوّة الجديدة. وبفضل ذلك نال جائزة نوبل للسلام.

هكذا حلّ وضع جديد من «اللاسلم واللاحرب» سيدوم عشر سنوات. لم تكن لعبد الناصر، على كل حال، الرغبة ولا الإمكانيات لخوض الحرب. ذلك أنّ المجهود المادي الضخم الذي استلزمه بناء السد العالي رهن كل قدرات البلد.

وفي يوم التاسع من يناير/كانون الثاني من سنة ١٩٦٠، وضع الحجر الأساس لهذا المشروع الجبّار، وذلك بحضور ملك المغرب ووزير الصناعة الروسي، نوفيكوف، وكذا الرئيس السوري شكري القوتلي.

لكن لم يكتب لعبد الناصر، للأسف، أن يشهد مشروعه الهائل

مكتملاً. فقد مات أربعة أشهر قبل نهاية الأشغال، وعاد شرف تدشينه إلى خلفه أنور السادات بمعيّة نكيتا خروشوف، لا صاحب فكرة المشروع، أندريان دانينوس. فمنذ أن تكفّل المهندسون السوفييت بالسدّ، أُبعد دانينوس. لكن عبد الناصر تعامل معه بشهامة مع ذلك، إذ استدعاه إلى مكتبه، وشرح له أنّ الوضع الجديد أملته مصالح مصر السياسيّة والماليّة. ثمّ منحه على سبيل المكافأة مبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه. إلاّ أن الرجل كان للأسف مثقلاً بالديون، إذ ما كاد يحصل على ذلك المبلغ، حتّى عاد إلى حياة الضنك، فأمر له عبد الناصر بمنحة مكّنته من العيش في الكفاف والعفاف. وقد مات ذلك المهندس الألمعي يوم الثالث والعشرين من سبتمبر/أيلول من سنة ١٩٧٦ عن سنّ يناهز تسعة وثمانين سنة.

لقد تطلّب بناء السدّ الذي يبلغ طوله أربعة كيلومترات تقريباً، وارتفاعه ١١١ متراً، وعرضه ٩٨٠ متراً، ٣٠٠٠٠ عامل، وأحد عشر عاماً من الأشغال. وهي نصف المدّة تقريباً التي استغرقها تشييد هرم خوفو قديماً، وهو معبد تطلّب بناؤه ٥.٢ مليون كتلة صخرية. لقد جرى حصر الماء بجدار عظيم لتنشأ عن ذلك بحيرة اصطناعيّة (أطلق عليها اسم عبد الناصر) تبلغ مساحتها ٦٥٠٠ كيلومتر مربع، أي أنّها تكبر بحيرة ليمان بإحدى عشرة مرّة.

وإذا كانت لهذا المشروع العملاق مزايا جمّة، بحيث زاد من مساحة الأراضي المزروعة، (مليون هكتار)، ورفع من إنتاج الكهرباء بخمسين في المائة، فإنه قد حجب الطمي عن الأراضي الواقعة تحته، علماً بأنّ هذا الطمي يمثل سماداً طبيعياً هو سرّ غنى وادي النيل. وقد اضطرّ ذلك الفلاح المصري إلى اللجوء للأسمدة الكيماوية للرفع من المردود. كما أنّ حجب الفيضانات جعل النيل غير قادراً على التخلّص من الملح القادم من البحر، ممّا أدى إلى

ارتفاع منسوبه في المياه الجوفية، وهو ما يهدّد على المدى البعيد بجعل جزء مهمّ من الأراضي المسقيّة غير صالحة للزراعة.

هكذا يتّضح أنّ السدّ العالي، على غرار البكباشي، له منافع جمّة، لكن له أيضاً مضارّا.

أمّا في سوريا... فلم يكن يمرّ شهر من دون أن تقع حوادث على حدودها مع إسرائيل. كانت الحكومة السورية مهووسة باحتمال أن تشنّ عليها إسرائيل الحرب، لذلك كانت تخصّص أكثر من نصف ميزانيتها السنوية لتعزيز جيشها. والواقع أنّ الباعث الرئيس لهذه المواجهات المستمرّة هو التحكّم في مياه المنطقة، ولاسيما نهر الأردن وبحيرة طبرية، اللذين استولت عليهما إسرائيل حسب تقسيم ١٩٤٧.

كما أن هذا الهجوم على السويس دفع بثلاثمئة ألف فلسطيني تقريباً إلى اللجوء إلى سوريا. وكردّ على هذا التهجير القسري، نصبت دمشق بطاريات مدفعية على هضبة الجولان.

كانت العلاقات مع الترك بالغة التوتّر أيضاً. ذلك أنّ السوريين لم يكون قد نسوا بعد إلحاق اسكندرونة (وهي المنطقة التي تتناسب تقريباً مع إمارة أنطاكية سابقاً) بتركيا. ذلك أن فرنسا كانت قد أهدتها بسخاء لأنقرة خلال فترة انتدابها. والحال أنّ هذا النزاع ما زال قائماً إلى اليوم.

لما شرعت تركيا في إجراء مناورات مقلقة على الحدود السورية خلال شهر أبريل/نيسان من سنة ١٩٥٧، استغاثت دمشق بمصر، فبادر عبد الناصر إلى إرسال كتيبة إلى اللاذقية.

كانت سوريا تعيش وضعاً صعباً. فإضافة إلى مشاكلها السياسيّة، كانت تتخبّط في أزمة اقتصادية خانقة.

حلّ بمصر خلال شهر ديسمبر/كانون الأوّل من سنة ١٩٥٧ مندوبان عسكريان من حزب البعث، وهو حزب النهضة العربيّة الاشتراكي الذي أسسه ميشيل عفلق في الأربعينيات كما تقدّم. كان البعثيون معادين لبريطانيا، لأنّها استعمرت مصر وفلسطين والأردن والعراق وليبيا، كما كانوا معادين لفرنسا بسبب احتلالها لشمال إفريقيا، ولإسبانيا، لأنّها كانت تستعمر منطقة الريف، ولتركيا بسبب ضمّها لمنطقة اسكندرونة، هذا فضلاً عن معاداتهم لإيران، لدمجها منطقة الأهواز، وللولايات المتّحدة بسبب تدخّلها في الشرق الأدنى. يعادي البعثيون أيضاً السوفييت، لأنّ الشيوعية ـ حسب ميشيل عفلق ـ «تعالج الشر بالشر»، وكانوا بذلك من دعاة عدم الانحياز على غرار عبد الناصر. كان عفلق يرى أنّ الانحياز لهذا المعسكر أو ذاك لا يمكن إلاّ أن يضرّ بالعرب.

يتلخّص مطلب الرجلين في أمر بسيط: تحقيق وحدة بين سوريا ومصر.

والواقع أنّها ليست المرّة الأولى التي تغازل فيها دمشق القاهرة. فقد سبق لرئيس جمهورية سوريا شكري القوتلي سنة ١٩٥٥ أن حيًّا في خطابه الافتتاحي قادة مصر وحماتها الذين يخوضون معركة مصيريّة ضدّ إسرائيل، وهي معركة الأمّة العربيّة قاطبة. وهو يرى أنّ الاعتداءات الإجرامية التي تقترفها إسرائيل في مختلف المناطق، تضرّ بالسلام في مختلف خطوط الهدنة التي كان يعتبرها جزءاً من جبهة عربيّة واحدة.

تشكّل إسرائيل مثاراً لمشاعر السخط والاستياء. فهي جرح لا يندمل في قلب هذا الشرق الباحث عن ذاته...

وفي السابع عشر من أبريل/نيسان من سنة ١٩٥٦، سيذهب

قوتلي أبعد حين صرّح بأنّ أجواء العالم العربي الحرّ ينبغي أن يرفرف فيها علم واحد: هو علم الوحدة العربيّة الشاملة. وقد كان هذا السوري يحلم منذ زمن بعيد بتجمّع كلّ القوميين العرب تحت لواء دولة قويّة. كما كان مقتنعاً أيضاً بأنّ السلطة المصريّة ستسمح بالقضاء على الخلافات السياسيّة والعسكرية الداخلية.

ويبقى أنّ عبد الناصر لم يول كلام الموفدين في البداية أيّ اهتمام. رأى أنّ طلب الاندماج هذا مرتجل، ولا يقوم على خطّة متماسكة، يعوزه المنطق ويمليه الوضع الهشّ الذي تعيشه سوريا.

واجهت دمشق هذه اللامبالاة بالإلحاح، إذ زار الرئيس القوتلي مصر شخصيًّا لكي يبدّد تحفظات البكباشي، وأعلن: «لم يعد أمامنا وقت نضيّعه، إمّا أن نقيم الوحدة الآن، أو لن نقيمها أبداً».

وانتهى الأمر بعبد الناصر إلى الموافقة، وهكذا وقّع القائدان منذ اليوم الموالي، أيّ في فاتح فبراير شباط ١٩٥٨، على الاتفاق الذي يقضي باندماج القطرين تحت اسم «الجمهورية العربيّة المتّحدة». وفي الثالث من نفس الشهر اقترح القوتلي ترشيح عبد الناصر لرئاسة هذه الدولة الجديدة. وفي الواحد والعشرين منه، أكّد استفتاء شعبي الاندماج، كما انتخب عبد الناصر رئيساً بأغلبية ساحقة. وفي الرابع والعشرين، سافر إلى دمشق حيث استُقبل استقبال الفاتحين.

لكن سرعان ما بدأت الأوهام تتبدّد. وما هي إلا سنة حتّى بدأت الخيبة تتسرّب إلى قلوب السوريين. كانوا جميعاً يؤمّلون أنفسهم بإنجازات وهميّة. فلكلٍّ بواعثه للانخراط في هذه الوحدة. كان البهوات الأثرياء وملاك الأراضي يرون فيها وسيلة لتجنّب الاشتراكية، وأمِلَت الطبقات الوسطى من خلالها في التحرّر من

تجاوزات الجيش السوري. في حين رأى المسحوقون والبروليتاريا الناشئة في النظام القادم من مصر فرصة لإعادة تشكيل البناء الاجتماعي. أمّا الطلبة والمثقفون، فظنوا أنّ الجمهورية الجديدة ستكون أوّل مرحلة نحو وحدة عربيّة شاملة. كانت هذه بعضاً من المعجزات التي كان أربعة ملايين سوري ينتظرونها من رجل واحد. لكن المهمّة كانت جسيمة، وتتطلّب وقتاً طويلا. لقد كان عبد الناصر واعياً بصعوبة الوضع، إذ صرح لوفد سوري: «إذا بعثنا لكم مصريين، ستقولون إنّهم جاءوا ليحكمونا، وإذا نحن لم نرسل أحداً، اتُّهمنا بإهمال سوريا!»

في غضون سنة ١٩٥٩، سيلتقي عبد الناصر بشخصية سيكون تأثيرها عليه عميقاً: إنه تشي غيفارا. فقد حلّ بمصر ليدرس الطرق التي اتبعتها مصر في الإصلاح الزراعي. كان فيديل كاسترو قد منحه الجنسية الكوبيّة قبل ذلك بقليل، وعيّنه وزيراً للصناعة. تداول الرجلان في مواضيع متنوعة إلى أن طرح عليه تشي هذا السؤال:

- كم عدد اللاجئين المصريين الذين أجبروا على مغادرة البلاد؟

أجاب عبد الناصر:

- عدد قليل، وهم في معظمهم من «المصريين البيض»، من فئة أصحاب الجنسيات الأجنبية الذين تمصّروا بحكم إقامتهم في مصر. هدفنا هو تصفية امتيازات طبقة معينة وليس تصفية أفراد تلك الطبقة.

لم يسعد جيفارا بهذا الجواب، فقال معلّقاً:

- هذا يعني أنه لم يحدث شيء كثير في ثورتكم. إنّني أقيس عمق التحوّل الاجتماعي بعدد الأشخاص الذين يمسّهم ويؤثر فيهم

بحيث يبدأون في الإحساس بأنّه لم يعد لهم مكان في المجتمع الجديد.

لا يسع من تابع أعمال عبد الناصر في السنتين اللاحقتين إلاّ أن يقرّ بتأثير أقوال التشي فيه.

وسيجري لقاؤه بتشي غيفارا للمرّة الأخيرة في تشرين الأوّل من سنة ١٩٦٥. لم يكن نفس الرجل. راح ينتقد نفسه وينتقد الثورة كذلك: «لقد تخبّطنا، وربّما كنت أنا المسئول عن هذه الأخطاء. فقد أمّمنا ٩٨٪ المائة من كلّ ما وجدناه، أمّمنا حتّى دكاكين الحلاقة، وبعد ذلك وجدنا أنّه كان علينا أن نترك بعض الناس خارج نطاق التأميم».

ثمّ أضاف أنّ أكبر مشكل واجهته الثورة الكوبيّة هو العثور على أشخاص مؤهّلين لإدارة المؤسسات المؤمّمة. أمّا الأشخاص الذين عيّنوا، فسرعان ما نسوا حماسهم الثوري في أحضان السكرتيرات الفاتنات، وعلى مقاعد سياراتهم الفخمة، وفي أجواء امتيازاتهم وبيوتهم المكيّفة الهواء. بل إنّهم وجدوا رجلاً يحتفظ في مكتبه بسبعة عشر جهاز تلفزيون!

كان تشي يرسم في الواقع، من دون وعي منه، صورة المجتمع المصري في المستقبل، المجتمع الذي كان عبد الناصر يضع لبناته.

وبعد ثلاثة أشهر، جاء دور كاسترو لكي يلتقي بالبكباشي، وكان ذلك في نيويورك. تقابل الرجلان بغرفة أحد فنادق حيّ هارليم، بعد أن فضّل كاسترو مغادرة الفندق الذي آووه فيه. وما كادا يلتقيان حتّى مدّ كاسترو لضيفه صندوقاً خشبياً موشّى بجلد تمساح. فتحه عبد الناصر فوجده فارغاً، فقال مازحاً:

- ظننته صندوق سيجار.

فاعتذر كاسترو قائلاً:

- لم أكن أعرف أنّك تدخن السيجار، لكنّني سأحرص على أن تصلك كميّة من السيجار، ولربّما أخطأت في إهدائك صندوقاً موشّى بجلد تمساح لأنّ النيل عندكم يعج بالتماسيح.

أجابه عبد الناصر:

- نعم عندنا... أربعة منها بالضبط!

وتطلّع إليه كاسترو مشدوهاً:

- كيف تيسّر لك أن تحصيها؟

- لأنّها جميعاً في حديقة الحيوان!

وفي ١٩٦١ سيتم الطلاق بين مصر وسوريا إثر انقلاب عسكري دبّره ضباط بسند من البرجوازية المحافظة. والواقع أن البعث والناصرية، رغم سعيهما معاً إلى وحدة العالم العربي، كانا في الواقع على خلاف بشأن معظم القضايا: فمقابل الاشتراكية العقدية التي كان يتبنّاها البعث، كان عبد الناصر يؤمن باشتراكية براغماتية. كان البعثيون ينادون بإدارة جماعية، قوامها التشاور بين القيادة والقاعدة، بينما كان عبد الناصر قائداً كاريزمياً يفرض قراراته. ثمّ إنّ عبد الناصر كان عسكرياً في حين كان البعث يعتبر نفسه تنظيماً مدنيًا. وقد كان البعثيّون يأملون مع نشأة الجمهورية العربيّة المتّحدة في أن يقيم عبد الناصر نظاماً ديمقراطياً في سوريا، لكنّه قام بالعكس.

هكذا بارك البعث السوري انقلاب الثامن والعشرين من سبتمبر/ أيلول ١٩٦١، والذي أنهى الوحدة المصريّة السورية. ومع أنّ الوحدة انتهت، ظلّت مصر تسمى الجمهورية العربيّة المتّحدة إلى

حدود سنة ١٩٧١، وهو التاريخ الذي تغيّر فيه اسمها إلى جمهورية مصر العربيّة.

والواقع أنّ هذا القرار أراح عبد الناصر وإن كان لم يبح بذلك. فهو لم يؤمن قطّ حقيقة بهذه الوحدة المرتجلة. بالمقابل، أزعجه هذا الانقلاب الذي تورطت فيه البرجوازية السورية. وفي غمرة جنون العظمة، راح يتخيّل نفس السيناريو يحدث عنده في مصر، وبذلك أخذ قراره: ينبغي أن يندثر أثرياء البلد، ينبغي القضاء عليهم عاجلاً.

أنشأ سنة ١٩٦١ لجنة سُمّيت «لجنة تصفيّة الإقطاع»، وهي آلة جهنميّة كانت وراء اختطاف أربعين ربّ أسرة من منازلهم قسراً، وأودِعوا السجن. حلّ ضباط الجيش بمنزل سرسق بالجيزة لاعتقال خليل، لكنّهم لم يجدوه. لم يأبهوا لذلك، واعتقلوا أخاه حبيباً، ثمّ أقفلوا البيت ووضعوا عليه الأختام، ولم يتركوا لأصحابه إلا بضع ساعات للمّ أغراضهم وإخلاء المكان. هكذا صودر ذلك المسكن الفاخر من دون أيّ تعويض.

وبمرور الأسابيع، جرت سلسلة من مصادرات الممتلكات من دون عوض، اللهم «نفقة» صُرفت لأصحابها من دون محاكمة، وبكيفية تُذكّر بأحلك أيام ستالين.

صاحت إحدى ضحايا هذا السطو المسلّح، وقد كان كذلك فعلاً: «ماذا؟! يريدونني أن أتلقّى نفقة كما لو كنت امرأة مطلّقة؟!»

كان هذا هو مصير كلّ العائلات الثريّة في كلّ المحافظات. صودرت ممتلكاتهم العقارية وحساباتهم البنكية، واعتقل أبناؤهم على نحو أعمى. جرى تركيع ما يناهز ٦٠٠ «رأسمالي رجعي» من أبناء العائلات المصريّة الثريّة، تلك العائلات التي طالما عملت من أجل صالح البلد. أولئك المسيحيون واليهود والمسلمون أيضاً،

الذين يشكّلون جزءاً لا يتجزّأ من ميراث مصر. لم يتركوا أسلوباً إلا استعملوه: غيّروا الضريبة التصاعدية لتصل إلى نسبة باهظة تبلغ ٩٠٪ على المداخيل التي تتجاوز ١٠٠٠٠ جنيه في السنة، ورفعت الضرائب المفروضة على بناء العمارات الباذخة، وأُممت جميع البنوك وشركات التأمين والشركات المجهولة الاسم وشركات الملاحة والصناعات الثقيلة والخفيفة والمتوسطة وصناعة النسيج. كما ألغيت الامتيازات الممنوحة لشركة الغاز لوبون وشركة تراموای القاهرة، وجرى نقل استغلالهما إلى هيئة حكومية. ولم يعد مسموحاً لأيّ وزير أو قطاع خاص أو حكومي بأن يسعى للحصول على قروض من الخارج إلا بترخيص مسبق من وزارة الاقتصاد والمالية.

ولم تسفر هذه العمليّة إلا عن قطع شريان حياة الاقتصاد، والقضاء على رجال الصناعة والمستثمرين ورجال الأعمال. ولم ترغب أيّ مؤسسة في تحمّل تلك الأعباء، فأجهضت كلّ المشاريع، وصارت المحاباة سارية سريان القانون، بل تحوّلت إلى مؤسسة. وغدت البيروقراطية غولا لا حدود لشهيته. وبهذا أقدم عبد الناصر على عمل جنوني. فهو لم يقض على الإنتلجنسيا فحسب، بل استأصل ذلك التمازج العرقي الذي كان سرّ غنى مصر الثقافي وقوام قوّتها.

وفي سبتمبر/أيلول سنة ١٩٦٢، سيقدم البكباشي على مبادرة سيكون لها وقع الكارثة، ملحقاً بذلك مزيدا من الدمار بالاقتصاد المصري.

وفي السادس والعشرين من سبتمبر/أيلول سيقوم اللواء السلال بانقلاب مباشرة بعد أن رقّاه الإمام بدر قائداً عاماً للقوات المسلحة، وأُعلنت في اليوم نفسه الجمهورية اليمنيّة العربيّة، وهو ما صفّق له

عبد الناصر. فلطالما مقت أولئك الأمراء والملوك الذين يتباهون بثرواتهم في قلب الجزيرة العربيّة.

لجأ الإمام الذي كان الجميع يعتقد أنّه قُتل إلى شمال البلاد، حيث آوته القبائل الموالية له. من هناك سيحارب من دون هوادة في سبيل استعادة عرشه، وبذلك دخل اليمن في حرب أهلية بين الجمهوريين من جهة، والملكيين مدعومين من الملك فيصل، ملك السعودية، من جهة أخرى.

لم يتردّد عبد الناصر في إعلان مساندته المطلقة للنظام الجديد. وفي الواحد والعشرين من أكتوبر/تشرين الثاني، أبرم اتّفاق دعم مع الحكومة الجمهورية برئاسة العقيد السلال، وصرّح بأنّ الاشتراكيّة العربيّة ستقضي على الأسرة السعودية الحاكمة، ثمّ تدخّل عسكرياً، إذ أرسل إلى اليمن قوّات تعدادها ٥٠٠٠٠ رجل. وهو ما أتاح للإنجليز الفرصة لكي يساندوا الملكيين بطبيعة الحال، ويقدّموا لهم دعما تقنيا ناجعاً.

امتدّت هذه الحرب، التي تشبه إلى حدّ كبير حرب فيتنام، على مدى خمس سنوات. وقد انضاف لهذا الوضع عامل في غاية الأهمية: ظهور العمل السياسي الفلسطيني. ذلك أنّ الجيل الفلسطيني الصاعد، الذي نما في المخيّمات صار يميل أكثر فأكثر إلى رفض الحلول التي تصدرها المؤسسات الدوليّة، ويتطلّع إلى استئناف الكفاح ضدّ إسرائيل. فأولئك الذين تابعوا دراساتهم بالجامعات العربيّة لم يعودوا يجدون أنفسهم في فكرة القوميّة العربيّة، بل صاروا يطمحون إلى مستقبل سياسي قريب من هويتهم. وهذا شأن ياسر عرفات، الذي درس بالقاهرة، حيث سبق أن تحمّل المسئولية بمنظمة الطلبة الفلسطينيين. وفي الثامن والعشرين من ماي

من سنة ١٩٦٤، أسّس منظّمة التحرير الفلسطينية بالكويت، وصرّح بأنّه قد يستشهد، لكن الأكيد هو أنّ أحد أبناء فلسطين أو بناتها سيلوّح بالعلم الفلسطيني على أسوار القدس وصوامعها وكنائسها.

إسرائيل وفلسطين، ذلك الجرح الذي لم يندمل قطّ، الجرح الذي مضت على تقيّحه ستون سنة، والذي يُتّخذ ذريعة لكلّ أشكال التطرّف ولكلّ أشكال الجنون القاتلة. الجرح الذي يحرص كلّ قادة العالم على أن يظلّ غائراً ومفتوحاً على الموت.

أصبح عبد الناصر يجد صعوبة متزايدة في توجيه هذا المدّ الفلسطيني الآخذ في التقوي يوماً بعد يوم، ولم يكن الموقف الأمريكي ليمدّ له يد العون. كان ما يزال متمادياً في عمائه.

في ماي/آيار من سنة ١٩٦٤، أكّد لندون جونسون بمناسبة زيارة ليفي أشكول، رئيس المجلس الإسرائيلي، أنّ الولايات المتّحدة ستدافع عن وحدة الدولة العبرية مهما كلّفها الثمّن. وفي سنة ١٩٦٤، علّق المساعدة الغذائية لمصر. وفي سنة ١٩٦٥، جهر باستعداد الولايات المتّحدة لتسليح إسرائيل في حالة السباق نحو التسلح. وقد كان من نتيجة هذه السياسة أن زاد الجفاء بين واشنطن ومصر التي صارت أشدّ تبعيّة للاتحاد السوفييتي أكثر من أيّ وقت مضى. زد على كلّ هذا الوضعية الاقتصادية الكارثية. فخطّة التنمية الصناعية كانت مغالية في طموحها، وبذلك وجد البلد نفسه على حافة الإفلاس.

ألفى الريّس نفسه بين المطرقة والسندان. كان باب الهاوية ينفتح تحت قدميه.

(٢٥)

أبريل/نيسان ١٩٦٠

كنت في الثالثة عشرة من عمري. استيقظت في سريري الملكي. أكان حلماً؟

كان التاج الصغير المنقوش على الباب قبالتي يتلألأ بما فيه الكفاية لأقنع نفسي بأنّني مستيقظ. قمت وألقيت نظرة إلى الخارج. كان الجسر خالياً، والشمس ترتفع ببطء في الأفق بين أشجار النخيل ومدارج الصحراء. غدا سنذهب إلى الأقصر.

هيّا، ينبغي أن أرتدي ملابسي بسرعة! فقبطان السفينة وعدني بأن يترك لي دفة القارب لبضع دقائق.

قاصد خير سفينة فاخرة. يبلغ طولها حوالي خمسين متراً، بيضاء اللون، تعلوها مدخنة، ومجهّزة بعجلتي تجديف. وهي تتكون من طابقين، وتحتوي على جناحين، أحدهما للملك والآخر للملكة، وعلى حوالي عشر غرف، من بينها غرف الأميرات. وعلى جانبيها يظهر شعار الملكيّة مطوّقا بحبل أحمر. وقد رأى هذا اليخت النور بحوض بناء السفن بـ«ليفيربول» حوالي سنة ١٩٢٦، بطلب من الملك فؤاد. كان بوسع الملك أن يبحر في النيل صعوداً إلى الصعيد. وبما أنّ السفينة كانت مخصّصة للإبحار في النهر، فقد نقلت إلى مصر قطعاً مفككة، وعُهد بتجميعها لمهندسين بريطانيين.

وقد ورث فاروق هذه التحفة بعد وفاة أبيه الملك فؤاد. على أنّ قاصد خير ظلّ راسياً بمكان ما على النيل، عرضة للرياح المحملة بالغبار ولبيوت العناكب منذ ١٩٥٢.

وفي سنة ١٩٥٩ توجّه أبي، الذي كانت تلازمه الأفكار المجنونة، إلى الحكومة، واقترح عليها كراء اليخت المهجور لتحويله إلى فندق ومطعم وناد ليلي. قلّة هم من كانوا يتخيّلون آنذاك إمكانية نقل السوّاح عبر النهر إلى الصعيد. وبعد مماطلة طويلة، وافقوا على طلبه. غير أنّ بعض أحلامنا لا تكون أحياناً في مستوى إمكانيّاتنا. فما كاد أبي يحصل على التراخيص حتّى اتّضح أنّ وضعه المادي لم يكن يسمح له بالانخراط في مشروع بهذا الحجم بمفرده. فتكاليف التعديلات التي ينبغي إجراؤها على السفينة لتتمكّن من استقبال الركاب باهظة. عندئذ توجّه إلى صديقه القديم أنطوان بوللي الذي كان قد سُمح له بحريّة التنقل في القاهرة، وكان غارقاً في الوحدة والسوداوية. أعجبه المشروع فوراً، لأنّه سيشغله وسيمنحه فرصة الغوص مجدّداً في قطعة من ماض حرمته الثورة منه.

ظلّت ليالي قاصد خير، على غرار ليالي الإسكارابيه، منقوشة في ذاكرة من عاشوها. كان ثمّة بمحاذاة المطعم ناد ليلي تعاقب على الغناء فيه فنانون من قبيل جاك بريل وشارل أزنفور.

ما زالتْ إلى اليوم تتراءى لي صورة بريل وهو يبكي أغنيته الشهيرة: «لا تتركني» أو يحاكي على نحو كاريكاتوري «الفلامنكيات». كان وقع صورة ذلك الرجل المتشبّث بغيثارته تشبّث غريق بطوق نجاة، وهو يتصبّب عرقاً واللعاب يتطاير من فمه، على المراهق الذي كنته وقعاً رهيباً. كان يبهرني بل يسحرني. كنت أدرك وأنا في ذلك السن كلماته القاسية واستعاراته العنيفة وتراكيبه العبقرية، فلم تبرح ذاكرتي أبداً.

تضرّعت لأمّي إلى أن سمحت لي بحضور الحفلات الغنائيّة كلّ مساء. كان شغفي يتزايد ليلة بعد ليلة. وفي يوم من الأيام قلت لنفسي: سأكتب. لم تكن لي حينئذ أيّ فكرة عما سأكتبه، لكنّني سأكتب: كان فكتور هيغو يقول: «إمّا أن أكون شاتوبريان أو لا أكون شيئاً»، أما مُلهمي أنا، فكان بريل.

بينما كان جالساً ذات يوم على ظهر السفينة يحدّق في مياه النيل، تجرّأت على التحدّث إليه. أعجز عن تذّكر الحديث الذي دار بيننا من شدّة انفعالي، لكن شيئاً واحداً ظلّ راسخاً في ذاكرتي. بينما كنت أعبّر بتلعثمّ عن إعجابي بأغنيته «لا تهجرني»، التي كنت أعدّها حينئذ أغنية حبّ عظيمة، انفجر ضاحكاً. «أغنية حبّ؟! هي بعكس ذلك تماماً يا صغيري! إنّها تعبير عن أشدّ صور الانحلال سفالة. إنّها تعبّر عن انحطاط الإنسان وخسّته، تفسّخ رجل يحبّ امرأة لم تعد تحبّه». ثمّ أضاف: «لست أعرف امرأة تستمرّ في حب رجل يركع بخنوع أمام قدميها على نحو بئيس كهذا».

قطّب وهو يومئ بيده ويقول: «ظلّ يدك، ظلّ كلبك». وختم كلامه قائلاً: «يا للهول!»

والتقيت بهذا البلجيكي ثانيّة بعد سنوات من ذلك. وقد قادني إعجابي به إلى تسجيل أغنية في نفس الدار التي كان يسجّل فيها: باركلاي، واستعنت ـ بدافع لا شعوري ـ بموزّعه الموسيقي ورئيس جوقته: فرانسوا روبر. واستأنفنا الحوار الذي انقطع قبل ذلك بثماني سنوات. لم ينس شيئاً من الأيّام التي قضاها على قاصد خير، كما أنّه لم ينس شيئاً من الحوار القصير الذي دار بيننا. ذكّرني بأنّ ـ وهو تفصيل كنت قد نسيته تماماً ـ بائع ثوب متجوّلاً اقترب منّا لكي يبيعه من سلعته الرخيصة، فاشترى منه بريل بضعة أمتار من الثوب أهداها

لأمّه لمّا عاد إلى بروكسيل، فصنعت منها فستاناً، وهو الفستان الذي دفنت به.

وفي التاسع من أكتوبر/تشرين الأوّل من سنة ١٩٧٨، أسلم الروح بمستشفى بوبيني. جفاني النوم تلك الليلة، فكتبت له رسالة. وفي سنة ١٩٨٣، تعرّفت بواسطة صديق على ممّثل ومطرب كان في قمّة مجده، وهو جان كلود باسكال. كان متعباً، لكنّه كان مع ذلك يتأهّب لتسجيل آخر ألبوماته، فاقترح عليّ أن أكتب له كلمات كلّ أغاني الألبوم. قبلت العرض بالطبع، وفي غضون ذلك طلبت منه أن يقرأ رسالتي التي كنت عنونتها «اسمع يا جاك». وقد وافق جان فرانسوا روبر، موزّع الألحان المتخصّص في أغاني بريل، على تأليف الموسيقى الخلفية التي ستعزفها فرقة سمفونية. ووجدنا أنفسنا مع معظم عازفي جاك بريل في الأستوديو الذي اعتاد على التسجيل فيه بشارع هوش. لم يكن النجاح حليف هذا الألبوم، وهو ما لم أعبأ به. هكذا اكتملت الدائرة بين قاصد خير وباريس.

رغم أنّ الثورة كانت وراءنا، استمرّت المخابرات التي أنشأها عبد الناصر تُحصي على الناس حركاتهم وأنفاسهم، ولاسيّما من ترتاب بهم. وقد كان أبي منهم. كانوا يفحصون كلّ الرسائل التي نتلقاها من الخارج، ويلصقون عليها شريطاً أحمر كتب عليه: «فتحته الرقابة»، كما أنهم كانوا يتنصّتون على خطّنا الهاتفي بالطبع. وقد بقيت بالمناسبة حادثة طريفة عالقة بذاكرتي، تشهد على الجوّ المتردّي الذي عشنا فيه. كان أخي غير الشقيق يعيش حينذاك بلبنان حيث كان يشرف على تسيير متجر موسيقي. وبما أنّ استيراد الأسطوانات كان ممنوعاً، فقد طلب منه أبي أن يسجّل له جديد الساحة الموسيقية على أشرطة (لم تكن حينها الأقراص المدمجة قد ظهرت)، ويرسلها له. وبفضل هذه الوسيلة، كان من الممكن سماع

آخر الأغاني على قاصد خير. وذات صباح، طرق بابنا ضابطان بزيّ مدني، وطلبا من أبي أن يتبعهما حالاً. وما هي إلا ساعة حتّى أدخلاه إلى مكتب أحد كبار المسئولين بالمخابرات:

- ماذا يا سيدي العزيز، أتتآمر؟

- أتآمر؟!

- لا داعي للإنكار، فنحن نعرف كلّ شيء.

- ماذا تعرفون؟

- أنت تتأهّب لإدخال قنابل إلى البلد!

- قنابل؟ كلام فارغ! عن أيّ قنابل تتكلّمون؟

بانتشاء المنتصر الذي أجهز على فريسته، أومأ مسئول المخابرات إلى أحد رجاله، فشغّل جهاز تسجيل، فتردّدت عبر مكبّرات الصوت محادثة جرت قبل بضعة أيّام بين أخي غير الشقيق وأبي.

أنصت أبي للتسجيل حتّى النهاية. لم يسمع شيئاً له علاقة من قريب أو بعيد بحكاية القنابل. فقال لمخاطبه:

- آسف، لم أفهم قصدك.

استشاط رجل المخابرات غضباً:

- أتنكر أشياء في منتهى الجلاء! لعلّك لا تعلم أن ذلك سيكلفك غاليا!

- قلت لك إنّي لم أفهم شيئاً، أين وجدت القنابل في كلامي؟

أومأ المسئول لمساعده من جديد، فشغّل آلة التسجيل لإسماع مقطع من المحادثة:

أبي: هيّا، متى ستكون الأشرطة جاهزة؟

أخي: إنّها جاهزة. أنا أبحث عمن يأتيكم بها إلى القاهرة.

أبي: حسناً، أخبرني بمجرد ما تعثر على أحد.

وأوقف المساعد جهاز التسجيل. فصرخ ضابط المخابرات:

- ما رأيك؟ أما زلت تنكر؟

وردّد بفرنسية رديئة:

- قنابل! قنابل!

لو لم يكن الموقف خطيراً لكان أبي انفجر ضاحكاً.

- لعلّك تقصد الأشرطة؟ يتعلّق الأمر بأشرطة موسيقية، أشرطة أغان![1]

فذهل الضابط:

- أشرطة؟

- أجل! أشرطة لا قنابل! وشرح له أبي فحوى المحادثة.

لقد صارت مصر في عهد عبد الناصر دولة مجنونة.

كانت فرقة موسيقية تعزف كل مساء - وهو أمر ما زال قائماً - جديد الألحان لصفوة المجتمع القاهري: موسقى «بيل بويز». كان من بين الموسيقيين عازف غيثارة شاب من أصل يوناني أرميني يحمل اسم أليكسيس ساركيس غابري كويومجيان، والذي لقبناه

---

(١) التبس الأمر على ضابط المخابرات فخلط بين قنابل (bombes) وأشرطة (bandes) نظراً لتشابه الكلمتين في اللفظ، ولجهل الضابط باللغة الفرنسية. المترجم.

بلقب أيسر في النطق هو أليك. هو أيضاً ينتمي إلى تلك البوتقة العجيبة التي خرجت منها داليدا وكلود فرانسوا وغيرهما... كتب من بين ما كتب، بعد أن نفي إلى باريس وصار ملحناً عالمياً، أغان ستشتهر في العالم بأسره، غنّاها أحد مواطنيه هو ديميس روسوس. وفي غضون ذلك، أُلهِم الحكمة ليغيّر اسمه إلى أليك كوسطاندينوس.

كيف الحديث عن الغروب المتوهّج على ضفاف النيل؟ عن الصمت السرمدي المخيّم بينما نكون في طريق العودة عبر النيل على ظهر ذلك المركب مع عدد قليل من السياح (لم يتسجّل في أوّل رحلة سياحيّة بالمركب إلا عشرة سياح على الأكثر)؟ تعجز الكلمات عن وصف الإحساسات التي شعرت بها.

وفي سنة ١٩٦٤ أفلس أبي؛ ذلك أنّ معظم الأسر المصريّة اليهودية والمسيحية الثريّة اضطرت إلى الهجرة إلى فرنسا أو كندا أو الولايات المتّحدة أو لبنان. انهار اقتصاد البلد. لم يكن بإمكان المصري العادي الذي يلبس الجلابية أن يسمح لنفسه بالعشاء في مطعم فاخر كمطعم قاصد خير. هكذا انتهت ملكية المركب إلى نادي البحر الأبيض المتوسط. وفي سنة ١٩٧٥، بينما كنت أقلّب صفحات إحدى المجلات بباريس، لاحت لي صورته وهو يحترق. وبذلك دفن ذلك اليخت الجدير بقصص ألف ليلة وليلة في أعماق النيل، قبالة معبد الأقصر، على شاكلة صورة مصر السالفة.

آثر أنطوان بوللي أن يبقى في مصر. اشترى مخبزة في ضواحي القاهرة، في مصر الجديدة تدعى: هوم مايد كايك (كعكة محليّة الصنع)، وقضى بقية حياته يبيع البرجوازية المصريّة الحلويات وأنواع الطورطة. كنت ألتقيه بانتظام في كلّ مرّة يحلّ فيها بباريس لزيارة ابنه

ماريو. وخلال زيارته الأخيرة، ناشدته أن يكتب مذكّراته، لكنّه رفض قائلاً: «لو كتبتها، ستلزمني الاستقامة أن أكتب عن السرّاء والضرّاء، وأنا أرفض الكلام عن الضرّاء».

كان ذلك سنة ١٩٨٢، ومنذئذ لم أره. فقد رحل وحيداً بعد بضعة شهور على لقائنا. ساور القلق أحد جيرانه لأنّه اختفى عن الأنظار، فلمّا دخل بيته اكتشفه جثّة هامدة.

(٢٦)

روما يوم الثامن عشر من مارس/آذار ١٩٦٥

مطعم ليل دو فرانس.

تدعى آنا ماريا غاتي، في الثانية والعشرين من العمر، تمتهن الحلاقة. لقد رغب فاروق أن يمضي بمعيّتها هذه السهرة على الأوريليا أنتيكا. لعلّه تعب من أحاديث إيرما كابيسي مينولوطو وهي تردّد أحلام مجدها.

كان الملك يختلس النظرات إلى طبقه الفارغ. كان قد التهم اثنتا عشرة محارة، وأتبعها بسرطان بالتيرميدور.

إنّه أمر مملّ، فهو ما زال يشعر بالجوع.

نقر بأصابعه، فجاءه كبير الخدم مسرعاً.

- نعم يا صاحب السمو!
- خروف مشوي.
- حسناً، وبماذا تريد أن ترفقه يا صاحب الجلالة؟
- ببطاطس مشقّرة وفاصوليا، كثير من الفاصوليا!
- حسناً يا صاحب الجلالة، وبالنسبة للتّحلية، هل تسمح لي بأن أقترح عليك فطائر سوزيت؟

قطّب فاروق حاجبيه:

موافق. فهو يعيش حياة أبعد ما تكون عن حياة المتشدّد في

الدين. لكن رغم ذلك، فلا أحد يجهل أنّ فطائر سوزيت تطهى بالكونياك!

هزّ الملك رأسه:

ـ كلا، أريد كأساً من القشدة المثلجة مان ـ بلان.

واختفى رئيس الخدم.

راح فاروق يراقب آنا ماريا الجميلة من وراء نظارتيه السوداوين.

امرأة... صبيّة... جسد... إنّه جسد آخر ينضاف إلى الأجساد السابقة. لن يضاجعها. ثمّ، هل سبق له أن أحبّ الجماع؟ فقد كانت لذّته الوحيدة هي دائماً أن يشعر بأنّه يملك ويسيطر، ليس على الجسد، بل على روح الآخر العارية. نعم يريد أن يملك كلّ شيء، لكن ليس الجسد. إنّه مهووس بسرقة الأرواح.

أين راحت «فافيت»، فريدة، ملكته الأولى؟ ماذا تراها تصنع؟ حسب ما وصله من آخر أخبارها أنّها تعيش بين بيروت وباريس، وأنّها اكتشفت في نفسها شغفاً بالصباغة. بل يزعمون أنّها تتأهّب لعرض لوحاتها. كانت طيّبة، «فافيت» امرأة طيّبة.

وناريمان؟

ها قد مرّت بضعة أشهر على زواجها الثاني. يسمّى زوجها إسماعيل فهمي، ضابط سابق من ضباط جيش عبد الناصر، وهو اليوم طبيب. هل عثرت أخيراً على السعادة؟

أنهى خروفه، وابتلع فاصولياه وبطاطسه. والآن حلّ الدور على قشدة الكستناء المغمورة بالشانتيلي.

وحلّ النسيان... لم يعد لصور الماضي من وجود. لن يقرأ تلك

الأوراق المتّسخة التي لوثّت حياته. سينسى كلّ تلك السُّحن الحقيرة والرسوم الكاريكاتورية القاسيّة. سيُسكت كلّ الأصوات، أو سيترك صوتاً واحداً هو صوت موظّف نادي القمار وهو يعلن: ٦ في البنك. كان فاروق يتوفّر على ٨. كانت لحظة عظيمة.

ماذا؟ أيتخيّلون أنّ عليه أن يكون بيسمارك أو ميتيرنيخ لمجرّد أنّه ابن ملك؟ العالم غبي، وأولئك الذين لم يكن قدرهم مسطّرا سلفا يجهلون كلّ شيء عن مصاعب الحياة.

إنجلترا...

لعلّ جلالتكم تدرك بعد كلّ هذه الهفوات، أنّه لم يعد أمامكم من خيار سوى التنازل على العرش!

لامبسون... يا له من نذل! ما زال يتراءى له وجهه المتجهّم. إنّها الغطرسة في صورة آدميّة...

وفجأة أمسك فاروق بعنقه. شعر بالاختناق. فتح فمه بحثاً عن الهواء، وإذا به يسقط بكامل وزنه، فيرتطم جبينه بالمائدة.

تعالى صوت يصرخ طلباً للنجدة. إنّه صوت آنا ماريا. أسرع كبير الخدم والنادل إلى الملك، وراحا يسحبانه إلى أريكة حمراء، ومدّداه عليها. بادر النادل بفكّ ربطة عنقه وأزرار قميصه، وحاول أن يدلّك قلبه. أما آنا ماريا، فجرت إلى الهاتف وطلبت بيته. أجابتها الخادمة بأنّها ستطلب الإسعاف فوراً. وصل رجال الإسعاف بعد عشرين دقيقة. كان فاروق يختنق، لكنّه كان ما يزال حيًّا. عرّى طبيب ساعده، وحقنه بالأدرينالين. وحُمِل الرجل المحتضر تحت جنح الظلام إلى مستشفى سان كاميلو.

لمّا توقّفت سيارة الإسعاف أمام مدخل الطوارئ، كان فاروق قد

أسلم الروح. كانت الساعة تشير إلى الثانية والربع صباحاً. قبل ذلك بأسبوعين، كان طبيبه الخاص، الدكتور لويجي دوناتو، قد أدخله إحدى مصحات لوزان. السبب: تصلّب الشرايين وارتفاع خطير في الضغط. كان الهالك يحمل معه ورقتين من فئة ألف دولار وورقة من فئة خمسمئة دولار وبطاقة دبلوماسية وأنبوب دواء وسلسلة يدوية وساعة وقرآناً صغير الحجم ومسدساً ملقوماً من عيار ٦,٣٥.

كان قد احتفل بعيد ميلاده الخامس والأربعين قبل ذلك بشهرين، يوم الحادي عشر من فبراير.

كان إيمليو دي كارلو هو من تكفّل بكلّ شيء. اتّصل في البداية بابنه فؤاد وأخواته، فحلّوا بروما في اليوم اللاحق. حُمِل فاروق إلى المشرحة. أمّا فؤاد فكان قد أكمل الثالثة عشرة من عمره.

مات الملك. كلا، مات أبي.

كانت فاديا في الثانية والعشرين. تزوّجت في لندن شهر فبراير/ شباط بشاب روسي يكبرها بعامين، يدعى بيير أورلوف. وأقيم العرس حسب التقاليد الأرثذوكسية.

حضرت أيضاً فوزية التي تبلغ الخامسة والعشرين. ركبت أوّل طائرة. وكانت فريال، كبرى بنات فاروق، سبع وعشرون سنة، تعضّ على شفتيها.

بابا مات.

كانت مراسيم الجنازة قصيرة. لُفّ جثمانه في علم مصري كان فاروق قد حمله معه إلى منفاه. صلى عليه إمام صلاة الجنازة، وعبر الموكب الجنائزي شوارع روما، وكان يضمّ بعض الشخصيات الدبلوماسية التي لا يعرفها أحد.

كانت فريدة، زوجته الأولى القادمة من بيروت تنظر إلى الأمام، وغير بعيد عنها، كانت إيرما كابيسي تجفّف دموعها. لقد فقدت راعيها. ستقول فيما بعد إنّها فقدت أهمّ رجل في حياتها، لكنّ الحياة بالغة القصر.

لم تحضر ناريمان.

وضع النعش مؤقّتاً في قبو بالمقبرة البلدية. كان من اللازم حينئذ إقناع السلطات بالقاهرة بأن تتفضّل بالموافقة على طلب الملك الأخير: أن يدفن بأرض مصر.

قام إميليو كارلو بالإجراءات المطلوبة، وهي إجراءات مليئة بالتعقيدات. وبعد مماطلة طويلة، أبدى عبد الناصر أخيراً موافقته، لكن اشترط أن يتمّ الدفن في سرّية تامّة. وهكذا نقل الجثمان على متن طائرة مصرية حطّت حوالي منتصف الليل بمطار ألماظة.

كان بانتظاره أسفل سلّم الطائرة أختاه، فوزية وفايقة، وزوجاهما: إسماعيل شيرين وفؤاد صادق.

وضع النعش في شاحنة عسكرية تحرّكت فوراً باتّجاه شرق القاهرة الغارقة في النوم. ولم يكن يكسر سكون الليل غير نباح الكلاب.

دخلت الشاحنة إلى مدينة الأموات التي يشرف عليها جبل المقطم الكلسي. إنّها مزيج من القباب المغبرّة والمساجد والمدافن التي سمّيت خطأً «قبور الخلفاء». هنا دفن قادة المماليك، ولكن أيضاً بنات محمد علي الثلاث، ودفن معهنّ إبراهيم باشا.

ما زال هذا المكان يدعى إلى يومنا هذا «مدينة الأموات». وقد صار مأوى للبؤساء والمتسوّلين، وغدا رمزاً للفقر والبؤس، إذ أنشئت فيه بيوت عشوائية بين القبور، يستوطنها المحرومون

والمهمّشون والمعوزون والمقصيّون من المجتمع المصري. إنّها الثانية صباحاً بمسجد الإمام الشافعي. آثرت العائلة الملكيّة أن يدفن فاروق بمسجد الرفاعي إلى جوار أبيه، غير أنّ السلطات اعترضت على ذلك. وكان يلزم انتظار عهد السادات لكي يتحقّق هذا الطلب.

وقفت الجماعة الصغيرة بصمت بينما راح فقيه دُعي على عجل يصلّي صلاة الجنازة. كان الجنود ورجال المخابرات يذرعون المكان جيئة وذهاباً بالخارج. أزيلت أختام ضريح إبراهيم باشا، وشقّت بداخله حفرة وجُهّزت لاستقبال جثّمان فاروق. وهكذا وضع الجثّمان الذي كان مكفّناً وملفوفاً في العلم المصري، ووجهه صوب القبلة.

عندئذ بدأ حفارو القبور عملهم، وبدأ التراب يُهال شيئاً فشيئاً على الملك الصبي.

انتهى كل شيء.

لن يأتي ذلك النذل لامبسون بعد الآن ليعذّب روحه، ولن يشغل الوفد ولا الإخوان المسلمون ولا الضباط الأحرار لياليه. لم يبكه أحد تقريبا.

(٢٧)

القاهرة، نهاية أكتوبر ١٩٦٦.

ـ جرى إيه يا جمال؟

التفت عبد الناصر إلى السادات في دهشة، ثمّ سأله:

ـ إيه اللي جابك النهار ده يا أنور؟

ـ النهار ده جمعة، وأنا لي مدّة لم أرك ـ قلت أفوت عليك أدردش معاك شوية وأنا أعرف أنك يوم الجمعة بتبقى لوحدك.

ـ والله عملت طيّب... اقعد.

جلس السادات وسأله مرّة أخرى:

ـ مالك شايل الدنيا على دماغك ليه يا جمال؟ واضح أنك شايل الدنيا على دماغك...

ـ أيوه... فعلاً أنا شايل الدنيا على دماغي... يا أنور البلد بتحكمها عصابة.

فقال السادات مؤيداً:

ـ الحقيقة دي بدت لي منذ شهور.

ـ مستحيل أكمل بهذا الشكل... أنى أبقى الرئيس المسئول...

صمت البكباشي بُرهة قبل أن يسترسل:

ـ وللي بيحكم هو عبد الحكيم، وينفذ اللي هو عاوزه... طيّب

أخرج أنا أحسن وأروح أقعد في الاتحاد الاشتراكي... ويتولى هو رئاسة الجمهورية وأنا مستعد لأن أسأل عن الفترة اللي قعدتها لغاية ما حأخرج... أجاوب عن أيّ شيء...

لزم السادات الصمت، فهو يعرف وضع البلد، ويعرف كذلك تصرفات عامر. فقد صار عامر مستبدًّا في الخفاء، يتحكّم في القوة الوحيدة القادرة على قلب النظام: الجيش. ذلك الجيش الذي دلّله، ومنحه كل الامتيازات، حتّى أكثرها جنوناً. لاحظ السادات أيضاً التصرفات الرعناء للجنة تصفية الإقطاع، وشراسة الرجال الذين كانوا يحيطون به، كما كان شاهداً على إلغاء كلّ الحريات.

- مش معقول يا جمال تسيب رئاسة الجمهورية... لا أنت عارف أن عبد الحكيم أسوأ من يختار معاونيه - هم اللي تسببوا في فشل الوحدة مع سوريا - ومع ذلك فعبد الحكيم متعصّب لمعاونيه تعصب قبَلي. تقول له نشيل صدقي قائد الطيران، يقول قبل ما تشيلوه شيلوني أنا... خلقته كده.

توقف السادات للحظة ليلتقط نفسه، واسترسل يقول:

- لذلك أعتقد أنه أفضل شيء إنك تجيبه وتكلمه بينه وبينك وبالشكل ده ممكن تتوصلو لحل مع بعض.

فردّ عبد الناصر كما لو أنّه يخاطب نفسه:

- والله الصورة سيئة يا أنور وأنا حاسس أن احنا داخليين على كارثة.

بعد بضعة أيام، عاد السادات لزيارة عبد الناصر، فطلبوا منه أن ينتظر، لأن عنده ضيف. ولم يُدخلوه إلى مكتب الرئيس إلا بعد حوالي عشرين دقيقة.

فبادره عبد الناصر بصوت متوتّر:

- تعرف يا أنور مين اللي كان عندي دلوقتي؟ وزير الحربية شمس بدران. فاكر حديثنا للي قلتلك فيه عن العصابة؟

- آه.

- يا سيدي الحكاية كملت... شمس بدران جاي لي دلوقتي بطلب رسمي...

- ما هو؟

- أن المشير يأخذ رئاسة الوزارة.

شعر السادات بقشعريرة حاول جاهداً أن يخفيها.

- وحجته إيه، أن البلد بيشتكي... مش عارف أن معظم الحاجات التي يشتكي منها الناس هي من تصرفاته وتصرفات أتباعه؟

- طيب، أنت قلت إيه؟

- قلت له أنا ما عنديش مانع... قل له أنا موافق، بس يترك القوات المسلحة ويأخد رياسة الوزارة.

قطّب السادات حاجبيه:

- أنا ما زلت عند رأيي إنك تقابله وتتكلموا مع بعض، وأنت عارف أنه يقبل منك ما لا يقبله من أيّ شخص آخر، بالشكل ده ممكن الموضوع يتلم والمسائل تتحل.

لم يكن البكباشي يدرك إلى حدود هذه اللحظة أن السادات على حقّ.

وفي الرابع من نوفمبر/تشرين الثاني، قرّر أن يوقّع ميثاق دفاع مشتركاً مع سوريا.

تسعة أيام بعد ذلك، أيّ في ١٣ نونبر/تشرين الثاني، قتل ثلاثة جنود إسرائيليين قرب الحدود السورية، وحبس الشرق الأوسط أنفاسه: ماذا ستفعل إسرائيل؟ فضل ليفي أشكول الذي خلف بن غوريون ألا يتسرّع في اختبار صلابة الميثاق السوري المصري، واختار أن يضرب في مكان آخر. هكذا شنّ غارة جويّة على قرية السموع الأردنية أسفرت عن ثمّانية عشر قتيلاً ومئة وأربعة وثلاثين جريحاً. لم تتحرّك مصر، وهو ما جعل الملك حسين يستشيط غضباً، وقال صراحة إنّ «قادة القومية العربيّة المزعومين» يلوذون بالصمت لمّا يتعرّض بلده للاعتداء. لم يغب عن عبد الناصر أنّ الملك حسين كان يقصده، إلا أنّه تحمّل وتمالك نفسه. لعلّه استشعر أيضاً بأنّ سوريا ستكون هي هدف إسرائيل القادم. وفعلاً، أسقط الجيش الإسرائيلي ستّ طائرات ميغ يوم السادس من أبريل/نيسان خلال معركة جويّة في سماء دمشق.

في هذه المرّة أيضاً، لم يحرك عبد الناصر ساكناً. لكنّ الأحداث ستتطوّر بسرعة بعد هذا الحادث.

في الثامن من ماي/أيار ١٩٦٧، تلقّى الريّس من دمشق مذكرة تحذّره من هجوم وشيك على سوريا تحضّر له قيادة الجيش الإسرائيلي. وفي يوم الحادي عشر، نقلت قصاصة صادرة عن وكالة أسوشايتد بريس أنّ مسئولا إسرائيلياً تحدّث عن عمليّة عسكرية ضدّ دمشق. وفي الثاني عشر من نفس الشهر، كتبت نيويورك تايمز: «إنّ بعض القادة الإسرائيليين مصمّمون على ضرب سوريا لقطع الطريق على موجة الإرهابيين». وفي نفس اليوم أسرّ اللواء رابين إلى صحيفة بريطانية: «طالما لم يحدث انقلاب بدمشق، لن يشعر أيّ نظام في الشرق الأوسط بالأمان».

بين العاشر والخامس عشر من ماي/أيار، أخبرت مجموعة من

المصادر من أوروبا الشرقية القاهرة ودمشق بأنّ الإسرائيليين أخطروا موسكو بالتحذير الآتي: إذا استمرّت غارات الفلسطينيين من سوريا، ستقوم إسرائيل بعملية عقابية ضدّ دمشق. وأذاعت وكالة طاس يوم الثالث عشر، وهو أمر أدعى للقلق، مذكّرة تقول إنّ موسكو علمت من مصادر أكيدة أن إسرائيل ستهاجم سوريا يوم السابع عشر من ماي.

عمّت العالم العربي موجة من التوتر، وتملّكت عبد الناصر حالة من العصبية. زاد توتّره، لاسيما يوم أخبرته موسكو بأنّ من مصلحته ألا يترك هيبته تضعف في العالم العربي، وأنّ قضاء إسرائيل على الحكومة السورية سيمثّل هزيمة نكراء له وللاتحاد السوفييتي أيضا.

لكنّ الضغط كان صادرا كذلك من قطاع من الجيش، وذلك بتأثير من الشخص الذي جاء عبد الناصر طالبا تعيين عامر في منصب رئيس الوزراء، وهو شمس بدران، وزير الحربية.

كان بدران وعامر مقتنعين بأنّ الجيش تحت قيادتهما لم يسبق أن كان جاهزا للقتال مثلما هو الآن، وأنّه صار جيشاً لا يقهر.

وفي الرابع عشر من ماي/أيّار، خلال حفل الاستقلال، أعلن إسحاق رابين بأنّ: «بلاده لا تغيب عنها مسئولية سوريا عن كلّ عمليات التخريب، وأنّ ردّ إسرائيل، إذا استمرّت العمليات الإرهابية، سيكون مختلفاً عن الضربات الانتقامية المحتشمة السابقة التي وجهتها للأردن».

وفي يوم ١٦ ماي/أيار، قام عبد الناصر بخطوة حاسمة بناء على الخبر الذي نقلته طاس، والذي مفاده أنّ ضربة إسرائيلية ضدّ سوريا مرتقبة في اليوم الموالي. وكانت تلك خطوة أخرى نحو الهاوية. طلب إخلاء قوات الأمم المتّحدة من الحدود مع إسرائيل بسيناء،

وذلك حتّى «تكون مصر على أتمّ الاستعداد إذا بدأت إسرائيل أيّ عدوان على أيّ دولة عربيّة».

وفي مساء يوم السابع عشر، أعلن السكرتير العام للأمم المتّحدة، يوثانت (بلطف بالغ)، بأنّه لا يمكن إلاّ أن ينصاع لطلب الريّس. وفي اليوم الموالي، أيّ في الثامن عشر من شهر ماي/أيار من سنة ١٩٦٧، تحرّكت قوات اللواء فوزي نحو المناطق التي أخلتها القبعات الزرق، وبذلك بلغ التوتر ذروته. ماذا كان يدور إذن في خلد لاعب الشطرنج؟ ماذا يأمل؟

مساء العشرين من ماي/أيار، استدعى الريّس اللجنة التنفيذية العليا المكونة من زكريا محيي الدين وحسين الشافعي وعلي صبري وصدقي سليمان (الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء) وأنور السادات، وبطبيعة الحال «روبنسن»، عبد الحكيم عامر. وفي كلمة موجزة، رسم بإجمال ملامح للوضع:

- إن حشودنا في سيناء تجعل الحرب محتملة خمسين في المائة، وإذا أمرت بإقفال مضيق تيران في وجه الملاحة الإسرائيلية، فالحرب مؤكدة مئة في المئة.

صمت قليلاً، ثمّ التفت إلى عامر وقال له:

- هل القوات المسلحة جاهزة يا عبد الحكيم؟

فوضع عامر يده على رقبته وقال:

- برقبتي يا ريّس... كل شيء على أتمّ الاستعداد.

حدّق عبد الناصر في وجوههم ثمّ كرر سؤاله، فوافقوا جميعاً على جواب القائد العام.

- حسنا، وفيما يتعلّق بمضيق تيلان، ما رأيكم؟ هل نجازف بإغلاقه؟

شخص واحد من بين الحاضرين الستة أجاب بالنفي. إنّه رئيس الوزراء صدقي سليمان.

فقال له عبد الناصر:

- اشرح لنا موقفك، لماذا تعارض هذا الأمر؟

- لأنّه خطير يا سيادة الرئيس، وسابق لأوانه. فحالتنا الاقتصادية في أسوأ حال، والحرب ستكون ضربة قاضية للاقتصاد. والخطط الطموحة التي لم تستكمل وأكثرها لم ينفّذ وخاصة بعد قطع المعونة الأمريكيّة. صدّقني، فأنا أعتقد حقًّا أنّ الحكمة تقتضي تأجيل إغلاق مضيق تيران إلى وقت لاحق. لا يخامرك شكّ في أن إغلاقه سيدفع الإسرائيليين إلى ردّ فعل في عنف ردّ الفعل الفرنسي البريطاني في السويس.

أشعل الريّس سيجارة، وكان قد دخّن عدداً لا يحصى من السجائر ذلك الصباح، وتلوّن بؤبؤ عينيه بلون قاتم.

إنّ رئيس الوزراء محقّ فيما يقول، لكن هناك، خارج حدود مصر، ينتظر العالم العربي لفتة، تأكيد سلطة قادرة على أن تفرض نفسها على إسرائيل. كان الفلسطينيون ينتظرون من البطل أن ينتزعهم من المخيّمات الموحلة، ويعيد لهم حقّهم. أما أعداؤه، فكانوا متأهّبين لتوجيه سهام نقدهم إليه، واتّهامه بالجبن إن هو استمرّ في جموده. كانت الأصوات قد بدأت تتعالى بعبارات من قبيل: «لقد انتهى الريّس، انتهى أمره!» والوحيد الذي لم يكن ينتظر شيئاً هو الشعب المصري. فبعد أن أصابه الإنهاك والتعب، بحث لنفسه عن تبرير: هذه الوضعية ليست جديدة، فهي موجودة منذ ألفي عام، فلم الانشغال بها؟

ماذا سيفعل؟ هل يحرك الفارس إلى مربع C 3 أم ينقل البرج إلى H3؟

كان عبد الناصر في الواقع فاقداً للسيطرة على الأحداث في هذا الظرف التاريخي. فقد صار مع مرور السنوات رمزاً مطلقاً بالنسبة إلى للعالم العربي، وما دام كذلك، كان مطلوباً منه أن يحارب كلّ «قوى الشر» من أجل القومية العربيّة. وبذلك صار الريّس «سبعاً مقيّداً» على حدّ تعبير حسنين هيكل.

في الثاني والعشرين من شهر ماي/آيار ١٩٦٧، أعلن عبد الناصر إغلاق مضيق تيران.

سارع يوثانت السكرتير العام للأمم المتّحدة إلى القاهرة. بعد مناقشات ومحادثات، تنازل عبد الناصر، ووافق على السماح لسفن بالمرور إلى إيلات في انتظار تسوية سلمية مع الإسرائيليين، لكن شريطة ألا تحمل هذه السفن الأسلحة أو المعدات الاستراتيجية.

غير أنّ رئيس الوزراء الإسرائيلي احتجّ قائلاً: «هذا أمر مرفوض! هذا الحصار خرق للقوانين الدولية، ويمثل اعتداء على إسرائيل!» وسرعان ما أيّد الرئيس جونسون هذا الاحتجاج.

كلّ من كانت لهم صلة بعبد الناصر في تلك الأثناء، لاحظوا عصبيّته البالغة. ربّما استشعر الخطر المحدق. أيعود أدراجه ويجنح للسلم؟ أم ينخدع ويواصل حتّى النهاية؟

أجل، ينخدع... ثمّ إنه يعوّل على حسن طالعه، يتمسك بحسن الطالع الذي حالفه سنة ١٩٤٨، لمّا قاتل بالفالوجا بفلسطين. كان يدرك تمام الإدراك أنّ الموقع الذي يحتلّه في تخوم المدينة غير حصين. وذات صباح تقدّم ملازم إسرائيلي من الخطوط الدفاعية المصريّة، وطلب التحدّث إليه، وقال له: « أنت محاصر وغداً سنقوم بغارة وسيكون من الأفضل لك الاستسلام عوض دفع رجالك إلى موت محقّق بلا طائل» فردّ عليه عبد الناصر باندفاع لا يصدّق:

«أنصحك بألا تهجم، سترتكب حماقة، لأنّني أملك حظاً لا نظير له. ستعضّ على أناملك ندماً إن فعلت».

لم يستطع الضابط الإسرائيلي أمام هذه الحجّة الواهية أن يتمالك نفسه من الابتسام. وفي فجر اليوم الموالي، بادر بالهجوم. وحسب اعتراف عبد الناصر، كان الأمر معجزة. لم يستطع يوماً أن يفسّر كيف تمكّنت قوّاته من صدّ الإسرائيليين، وتكبيدهم خسائر فادحة. وفي اليوم اللاحق، عبر الضابط عن رغبته في استرجاع جثث جنوده في المنطقة العازلة التي كانت تفصل بينهما، فوافق عبد الناصر على طلبه، فقال له الضابط الإسرائيلي: «كان عليّ أن أنصت لكلامك. فأنت تملك حقًّا حظًّا لا يصدق! أنت رجل محظوظ! كانت حظوظكم في النجاة لا تتجاوز واحد من مئة».

لعلّ عبد الناصر عشيّة ذلك اليوم المشهود كان يحلم بالحظ الذي حالفه في الفالوجا.

وفي الخامس والعشرين من ماي/أيار، استقلّ شمس بدران وزير الحربية طائرة إلى موسكو طلباً لمزيد من الأسلحة، فسأله كوسيجين كيف سيكون تصرّف مصر لو تدخّل الأسطول السادس الأمريكي، فأجاب بلا تردّد: «عندنا ما يدمّره!» ملمّحا بذلك إلى الطائرة الحربية تي يو ١٦، حاملة الصواريخ التي يعرف الجميع أنّ سرعتها وهي محمّلة بالصاروخ لا تتجاوز ٥٠٠ كيلومتر في الساعة. ورغم أنّ الدعابة لم ترق للروس، فقد وقّعوا مع ذلك اتفاقاً يقضي ببيع أسلحة لمصر، لكن دون تحديد موعد لتسليمها.

قبل أن يعود إلى مصر، نبّهه كوسيجين قائلاً: «احذروا! لتكن الأمور واضحة! أبلغ الرئيس عبد الناصر بأنّه إن كنتم البادئين بالحرب، فروسيا لن تساندكم».

وفي الثامن والعشرين من ماي/أيّار، عقد عبد الناصر مؤتمراً صحفياً شارك فيه مئات الصحفيين من مختلف بلدان العالم. بدا الرئيس طاعناً في السن، كما بدا صوته خشناً. أمّا ابتسامته المتألّقة المعهودة، فاستحالت إلى ما يشبه التكشيرة. لم يكن أحد يعلم حينئذ أن العقيد مريض منذ سنوات عدّة. كان طبيبه الخاص قد كشف عن الأعراض الأولى لمرض السكري منذ ١٩٥٨، وهو مرض أُهمل لفترة طويلة. داء قاتل ينخرك في غفلة منك. يشرع بتدمير الأطراف السفلى، ثمّ يزيد من احتمال الإصابة بارتفاع ضغط الدم والذبحة الصدرية، وكذا اضطرابات البصر وتلف الكلى.

كما أثبت فحص قام به عبد الناصر بإحدى مصحات موسكو أنّه مصاب بتصلّب الأوعية الدموية في الساقين، وهو ما اضطره إلى التخلّي عن كم السجائر التي كان يدخّنها يوميًا ـ بين سبعين وثمانين سيجارة ـ وعلّق على ذلك قائلاً: «شعرت بعدها بأنّني ودّعت صديقاً عزيزاً عليّ. فلقد كان التدخين الترف الوحيد الذي كنت أستمتع به، والآن المتعة الأخيرة قد ضاعت هي الأخرى» كما أنّه بدأ يتبع بشيء من الانتظام حمية غذائية خاصة. لكن الأوان كان قد فات.

وفي الثلاثين من ماي/أيار حلّ الملك حسين، ملك الأردن بالقاهرة، ووقّع مع الريّس معاهدة دفاع مشترك.

في اليوم الموالي انضمّ موشي ديان وميناحيم بيغن إلى الحكومة الإسرائيلية. ويعدّ بيغن أحد كبار صقور الحكومة. ولد ببولونيا، متديّن بالغ التشدّد، ومعارض شرس لبن غوريون، إذ كان يعتبره شديد اللطف في تعامله مع البريطانيين، وقد ناضل طويلا من أجل صهيونية متشدّدة. هو الذي خطّط سنة ١٩٤٦ لتفجير فندق الملك داوود بالقدس، متسبّباً في مقتل ما يناهز مائة قتيل، بين مدني

وعسكري. وفي سنة ١٩٤٧، كان يرأس الإرغون، المنظّمة القومية اليهودية. وفي التاسع من أبريل/نيسان ١٩٤٨، اقتحم مع رجاله، وكذا عناصر من جماعة شتيرن وإيتزيل، قرية دير ياسين الفلسطينية، وهي قرية هادئة تقع خارج المنطقة التي عيّنتها الأمم المتّحدة للدولة اليهودية، وفي غضون ساعات، كان الأمر قد قضي. فمن بين ٧٥٠ من سكان القرية العزّل، أبادوا مئة منهم بدم بارد، فيهم أطفال ونساء. ثمّ هدموا القرية بالجرافات، ومحوا أثرها من الخريطة.

أما ديان، فكان بعكس بيغن. ولد بكيبوتز بفلسطين يدعى دغانيا. ورغم انتمائه للحزب العمّالي اليساري، فقد كان عسكرياً بالمقام الأوّل. انضمّ خلال الحرب العالميّة الثانية إلى فرقة المشاة الأسترالية السابعة التي قاتلت قوات فيشي بسوريا. هناك أصابت رصاصة عينه اليسرى، ففقأتها. وعند نهاية الحرب، وشّحه البريطانيون... وفي شهر يونيو/حزيران ١٩٦٧، عيُّن وزيراً للدفاع، وعهد إليه بمهمة كبح جماح الجيوش العربيّة.

وفي الثاني من شهر يونيو/حزيران، زار عبد الناصر مقرّ القيادة العامة للقوات الجويّة، وكان له حديث طويل مع المسئول عنها، صدقي محمود، وحذّره قائلاً: «إذا هاجمت إسرائيل سيتلقى الطيران الضربة الأولى». فردّ محمود بجسارة: «لا داعي للخوف، لن تتجاوز خسائرنا ١٠٪».

هزّ البكباشي رأسه ثمّ وضع خطة الحرب. وقبل أن ينصرف، قال محذّراً المشير عبد الحكيم عامر: «سيهاجمون بين الرابع والخامس من يونيو/حزيران. كن جاهزاً!»

في تلك الأثناء، كانت طائرات تجسّس أمريكية من نوع أواكس تحلّق عالياً، وتحدّد مواقع الوحدات المصريّة. وفي صبيحة الثالث

من يونيو/حزيران ١٩٦٧، بعثت بالمعلومات إلى الإسرائيليين حوالي الساعة العاشرة.

وفي يوم الرابع من يونيو/حزيران، لم يعد أحد يؤمن بإمكانية استمرار السلام.

وفي صباح يوم الخامس من نفس الشهر، على الساعة الرابعة والنصف، قرّر عامر القيام بجولة مراقبة جويّة في سماء سيناء، وأعطي الأمر بتوقيف عمل بطاريات صواريخ سام المضادّة للطائرات. وفي الخامسة صباحاً، بدأ الهجوم...

كان عامر ما يزال في الجوّ، وظلّت صواريخ سام مسمّرة في مكانها.

تلقّى السادات نبأ بداية العدوان عبر أمواج الإذاعة، فقال في نفسه: «حسناً، سوف يتعلّمون درسا لن ينسوه مدى الحياة». كيف له أن يرتاب في ذلك؟ فالخطّة التي وضعها عبد الناصر محكمة، والعدّة أكثر من كافية. تناول فطوره وحلق ذقنه على مهل قبل أن يلتحق بمركز القيادة العامّة.

وصل حوالي الساعة الحادية عشرة، وشاهد سيارة السفير الروسي تتقدّم سيارته، فقال في نفسه: «لعلّه جاء لتقديم تهانيه».

دخل إلى قاعة العمليات، وسأل الضباط الحاضرين:

- ما الأخبار؟

- أسقطنا أربعين طائرة تقريباً...

- عظيم!

لمح عبد الحكيم عامر، فحيّاه، لكنّه بدا كما لو لم يسمعه. كان واقفاً يتطلّع حواليه بعينين زائغتين. أعاد التحيّة، لكنه لم يجب. في

تلك الأثناء وصل جمال عبد الناصر. سأل قائد الأركان بدوره عمّا يحدث، لكنّه ظلّ صامتاً. وفجأة حلّ النبأ الذي لم يكن منتظرا. قال عامر بتلعثم:

- كارثة!

وراح على الفور يقول كلاماً غير مفهوم مفاده أنّ من ضربهم هو سلاح الجوّ الأمريكي لا إسرائيل. ثمّ أضاف وهو يتمتم بأنّه استدعى السفير الروسي ساعة بالكاد بعد بداية الحرب ليطلب منه وقف إطلاق النار.

نزل الخبر على عبد الناصر كالصاعقة. أزاح عامر بحركة غاضبة من يده، وطلب التقارير الأوليّة. كانت مروعة ورهيبة.

بعد ساعة على الغارة الجوية الإسرائيلية، دُمّرت الطائرات الحربية المصريّة وهي ما تزال رابضة في أماكنها على المدرّجات. هكذا بقيت صفوف المدرّعات من دون غطاء، فسهل على الطائرات الإسرائيلية اقتناصها. يضاف إلى هذا أنّ عامر أصدر أمره بالانسحاب من دون أيّ تنسيق بين الوحدات، وكان أمراً أرعن مرتجلاً، يتّفق جميع الخبراء على أنّه انتحاري. أمّا في القاهرة، فكانت «نصر!» تجري على كل الألسنة.

سارعت جيهان، زوجة أنور السادات، إلى الالتحاق بصفوف الهلال الأحمر في المستشفيات لكي تساهم في استقبال الجرحى. ولمّا عادت إلى بيتها عند العصر، وجدت زوجها جالساً في الصالون، مستغرقاً في أفكاره، فهتفت به:

- لدي معلومات طيّبة، الممرّضات جاهزات، هيّأنا كلّ شيء.

لم يجبها السادات، بل لم ينظر إليها حتّى. استرسلت تقول:

ـ هذه المرّة لن نضيّع لحظة واحدة. يمكن أن أؤكّد لك أنّ جرحانا سيلقون العناية التي لم يحظوا بها قطّ في السابق.

ظلّ السادات يلزم الصمت على نحو مثير للقلق.

ـ ماذا بك يا أنور؟ ماذا جرى؟ أهو قلبك من جديد؟

كان السادات قد أصيب بذبحة صدرية قبيل ذلك.

هزّ رأسه وأجاب بنبرة كئيبة:

ـ لقد خسرنا الحرب...

ـ خسرنا الحرب؟ ولكنها بالكاد بدأت!

وأخيراً قرّر السادات أن يرفع بصره نحوها.

ـ اسمعي يا جيهان! لم تعد لنا طائرات، والمشاة الإسرائيليون دخلوا إلى العريش. فرّ جنودنا حفاة أمام تقدّمهم حتّى لا يلقوا حتفهم. انتهى الأمر.

ثمّ أضاف:

ـ عامر هو المسئول، لم يحترم الخطة التي اتّفقنا عليها.

أثناء حديثه، كانت تصل من النافذة المواربة هتافات الفرح: «حنحارب حتّى النصر!»

الإذاعة تعلن عن تدمير ثمانين طائرة إسرائيلية. وراحت جيهان تنتحب.

وفي يوم السادس من يونيو/حزيران، استولت القوات الإسرائيلية بقيادة إسحاق رابين ـ الذي سيدفع حياته ثمّناً للسلام لاحقاً ـ على قطاع غزّة، وفي اليوم الموالي لم يعد يفصلهم عن قناة السويس سوى أربعين كيلومتراً.

بالموازاة مع ذلك، كانت قوات الدفاع الإسرائيلية تقاتل الأردنيين في مدينة القدس القديمة. وفي يوم الثامن من يونيو/حزيران استولت على جزئها العربي، ثمّ على أريحا والضفة الغربية، مرغمة بذلك الملك حسين على وقف المعارك.

بلغت القوات الإسرائيلية إلى ضفة قناة السويس الشرقيّة يوم الثامن من يونيو/حزيران، وفي اليوم التاسع، اقتحموا الحدود السورية. ولمّا توقفت المعارك، كانت إسرائيل قد سيطرت على شبه جزيرة سيناء بكاملها وقطاع غزة والضفة الغربية والقدس بكاملها وهضبة الجولان السورية ذات الموقع الاستراتيجي.

أسفرت هذه الحرب عن: ٢٠٠٠٠ قتيل مصري، و٦٠٠٠ أردني و٥٠٠ سوري مقابل ٧٨٠ إسرائيليًّا، وبذلك بدأت مرحلة مأسوية جديدة. دُمّرت العديد من القرى العربيّة بمنطقة اللطرون التي تعتبر طريقاً إستراتيجية إلى القدس. وقد ولّد الخوف وتدمير المنازل موجة جديدة من اللاجئين، أطلق عليهم تمييزاً لهم عن لاجئي ١٩٤٨ اسم «الأشخاص المرحّلين». بعضهم سوريون (بضعة آلاف من سكان الجولان) وبعضهم الآخر فلسطينيون. كلّهم بالنسبة إلى إسرائيل اختاروا الرحيل، ومن ثمّة لم تمنحهم سوى مساعدة «لوجيستيكية» لتيسير نقلهم. وقد بلغ عدد هؤلاء المرحلين مئات الآلاف، انضافوا إلى ٩٠٠٠٠٠ شخص طردوا من أراضيهم بسبب حرب ١٩٤٨.

وقد قدّرت قيمة المعدّات، سواء ما دمر منها أم ما غنم، بـ ٥٠٠ مليون دولار، وبذلك دُقّ ناقوس الخطر بالنسبة للرئيس...

قال يوماً: «ليكون المرء سياسياً، يكفي أن يعرف ما يريد الشعب، ويهتف بضوت أعلى منه». وها قد حان الوقت لكي يطبّق هذه الحكمة.

(٢٨)

يوم التاسع من يونيو/حزيران من سنة ١٩٦٧.

كان صوته مخنوقاً ومتهدّجاً.

- لقد واجهنا نكسة خطيرة، وإنني على استعداد لتحمّل المسئولية كلّها، ولقد اتّخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه: لقد قرّرت أن أتنحّى تماماً ونهائياً عن أيّ منصب رسميّ وأيّ دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدّي واجبي معها كأي مواطن آخر... وقد كلّفت زميلي وصديقي وأخي زكريا محيي الدين بأن يتولّى منصب رئيس الجمهورية.

صمَت عبد الناصر. لقد أصيب المصريون بالشدوه.

ثمّ سمع همس أقرب إلى الوشوشة. وتحوّل الهمس إلى ضجة ثمّ إلى صخب. تعالى الهتاف في أرض الكنانة يصمّ الآذان:

- أبقَ فأنت الأمل!

وخرجت موجة من البشر لا يعرف أحد مصدرها تجوب شوارع القاهرة، وهرعوا إلى مبنى الإذاعة والتلفزة لمحاولة وقف الخطاب.

بعد ذلك بقليل، تجمّع آلاف الأشخاص في الشوارع والميادين لكي يهتفوا بدعم رئيسهم: «نحن معك يا ناصر! لا تتركنا!»

وطوّقوا بيت عبد الناصر، وراح مئتا ألف شخص، بل نصف

مليون شخص يعبّرون عن يأسهم. وانضمت النساء إلى المواكب التي تجوب الشوارع.

«لا تتخلّ عنا يا جمال! ابق! أنت الأمل!»

لم يُلق أحد في هذه الأثناء بالا لما كانت تقوله غولدا مايير جواباً على صحفي أشار إلى المأساة الجديدة التي حلّت بالفلسطينيين، الذين كانوا هم أيضاً ضحيّة هذه الهزيمة: «الشعب الفلسطيني؟ لا وجود له».

أما في القاهرة، فقد حوّلت المعجزة الشعبيّة النكسة إلى نصر.

كلّ من عاشوا تلك الأيام يشهدون بأنّ الحماس الشعبي العارم الذي استبدّ بالجماهير لم تدبّره الحكومة ولم توجّهه شأن المظاهرات السابقة. لمّا أفصح هذا الرجل عن رغبته في التخلّي عنه، شعر الشعب المصري في هذا المساء باليُتم. كان إحساسه رغم الهزيمة ورغم صورة الجيش المندحر، إحساس من انتزعت قطعة من لحمه. وقد صارت ردّة فعل المصريين الهستيرية في ليلة التاسع من يونيو/حزيران موضوع تندّر، لكن من سخر من هذا الشعب، لم يأخذ في اعتباره عنصرًا أساسياً، وهو أنّ عبد الناصر كان يشترك مع شعبه في نفس المورّثات.

وفي العاشر من يونيو/حزيران، سحب البكباشي استقالته، لكن من دون أن يبدي الرضا أو الشعور بالنصر. كانت تنتظره مهمّة تتجاوز طاقة البشر: الجيش الإسرائيلي يحتلّ خُمس الأراضي المصريّة، ويسيطر على إحدى ضفتي القناة (وهو ما يلغي مكاسب عملية ١٩٥٦) ويتحكّم كذلك في إنتاج البترول بسيناء. هذا فضلاً عن هجرة مئات الآلاف من لاجئي بورسعيد والإسماعيلية والسويس إلى القاهرة والدلتا ووادي النيل التي كانت أصلاً مكتظّة بالسكان.

كان البلد منهكاً، والجيش منكسراً ومهاناً. لم يكن يختلف كثيراً عن ذلك الجيش الذي قال فيه عزيز المصري: «ماذا تنتظر من جيش أنشأه لنا الإنجليز؟ لم يكن من مصلحتهم أن يكون قوياً»

ثمّ هناك ذلك الصراع الداخلي الذي يرهق الريّس: العلاقة بينه وبين صديقه في السلاح روبنسن، خليله القديم.

لم يعد عامر، الذي يحرسه ثلاثمئة رجل، يغادر فيلّته الفاخرة بالجيزة، وهي الفيلا التي تعكس مفارقة مثيرة بين ترفها وبساطة مسكن عبد الناصر. لم يستسغ أن يفضّل عليه عبد الناصر زكريا محيي الدين لمّا قدّم استقالته. أخذ عليه أيضاً أنّه لم يبادر بالهجوم أوّلاً، مع أنّ السوفييت حذّروه: «حذارا لتكن الأمور واضحة! أبلغ الرئيس عبد الناصر بأنكم إن بدأتم بالحرب، فلن تساندكم روسيا».

في الحادي عشر من يونيو/حزيران، قدّم رئيس الوزراء استقالته مصحوبة باستقالة جميع أعضاء حكومته وكلّ قادة الجيش باستثناء عامر. وقد توضّح الأمر لمّا طلبت مجموعة من الضباط عند الساعة الثالثة بعد الزوال مقابلة الريّس. جاءوا يلتمسون أمراً: الاحتفاظ بالمشير في منصبه.

وبالموازاة مع ذلك، أخطر أحد المخبرين البكباشي بأنّ فرقة من البوليس العسكري غادرت مقرّها بثكنة الحلميّة باتجاه بيته. لكن سيتبين في ما بعد أنّ الخبر غير صحيح، لكنّه شغَل عبد الناصر كفاية لكي يتحصّن في بيته، ويحمل مسدّسه. ولعلّ ما زاد من هواجسه هو غياب الحرس الجمهوري، لأنّه كان قد اشترك في معركة، وعاد إلى الإسماعيلية، لكنّه لم يصل إلى القاهرة بعد.

رفع عبد الناصر سمّاعة التلفون، وحاول الاتصال مراراً بعامر، لكن من دون جدوى. ولمّا يئس، اتّصل برئيس أركان القوات

المسلحة محمود فوزي في القيادة. وهنا ستواجهه المفاجأة الثانية: أخبره فوزي أنّ ستمئة جندي يقودهم أربعة فرقاء وفدوا على مركز القيادة العامة قبل ساعة، وهم يطالبون بعودة عامر. هل بلغ الجنون بصديقه إلى حدّ التفكير في الانقلاب عليه؟ في لحظات الشكّ، ينبغي التصرّف سريعاً! أصدر البكباشي أمره إلى فوزي بتعيينه قائداً عاماً للقوات المسلّحة عوض المشير، وبإبلاغ الفرقاء الأربعة أنّه قد استغني عن خدماتهم. كما عيّن عبد المنعم رياض رئيساً للأركان، وأحمد إسماعيل قائداً للجبهة.

عندما علم عامر بخبر إقالته، استشاط غضبا وفي يوم الخامس عشر من يونيو/حزيران، اقتحم مكتب السادات وهو شاحب اللون، متشنّج القسمات.

- كيف يعاملني بهذا النحو؟ أنا من اعتبرته أخاً طول حياتي! كيف يفعل ذلك؟

وتدخّلت جيهان السادات التي شهدت اللقاء لتهدئته:

- ليست المسألة هي معرفة ما إذا كان عبد الناصر يحبّك أم لا، بل المسألة هي إنقاذ مصر. اسمع كلامي، أنا أتحدّث إليك كأخت: لماذا لا تسافر أنت وأسرتك لبضعة أيام إلى بيتك في أسطال بالصعيد؟ دع العاصفة تهدأ، إثر ذلك ستواتيك الفرصة للصلح مع صديقك القديم. لن تكسب شيئاً من إرغام عبد الناصر على إرجاعك إلى منصبك، بالعكس. افعل ما أقوله لك يا حكيم، أتوسل إليك!

لكن غضب عامر لم يهدأ:

- لست وحدي المسئول على الهزيمة! جميعنا ارتكبنا أخطاء.

ـ ليست هذه هي المشكلة، سواء أعجبك الأمر أم لم يعجبك، فالشعب يحمّلك أنت مسئوليّة الهزيمة. ينبغي على المرء أن يتقبّل هذه الأشياء لمّا يشغل مناصب عليا. إذا سارت الأمور بشكل سيء في الهلال الأحمر، يمكنك أن تزعم للناس أنّ فلانة أو علانة هي المسئولة، لكن كلّ المسئولية سأتحمّلها أنا، جيهان السادات. الأمر نفسه بالنسبة إليك.

ما كاد يمرّ أسبوعان على هذه المحادثة حتّى ذاع خبر محاولة المشير المعزول اقتحام مبنى الإذاعة للدفاع عن نفسه أمام الشعب. وفي الأيام والأسابيع اللاحقة، جعل يدافع علانيّة عن عودة الأحزاب، وإقامة نظام ديمقراطي، والتقارب مع الغرب، لاسيما الولايات المتّحدة. وفي غمرة اندفاعه، حرّر رسالة استقالة ـ رغم أنّه كان قد غادر منصبه ـ لكي يعبّر عن أفكاره علانيّة، خالقاً بذلك جوًّا من الانزعاج في البلد. مع ذلك، ظلّ عبد الناصر يصمّ أذنيه أمام دعوات محيطه بإسكاته.

مضى شهر، ثمّ شهران وعامر يواصل حملته لزعزعة استقرار البلد.

وفي العاشر من أغسطس آب حذّر مبعوث الاتحاد السوفييتي لدى الأمم المتّحدة، أثناء مروره بالقاهرة، عبد الناصر من انقلاب وشيك.

وفي الرابع عشر من آب أغسطس، سيقرّر عبد الناصر التحرّك أخيراً. بعث إلى عامر مستشاره المقرّب، الصحفي محمد حسنين هيكل، يدعوه للعشاء. رفض المشير في البداية. أبدى الحذر والتردّد. ألا ينصبون له فخًّا؟ ما دام في بيته الذي حوّله إلى حصن منيع، فلا خوف عليه. وفي الرابع والعشرين من نفس الشهر، قبل أخيراً

الدعوة. لعلّه تصوّر أنّ عبد الناصر يريد أن يلقاه ليصالحه ويعيده إلى منصبه.

دُعي أيضاً إلى هذا الاجتماع الذي اتّخذ شكل عشاء أخير خمسة ضباط من بينهم زكريا محيي الدين والسادات.

قبل وصول عامر بدقائق، قال لهم الرئيس:

- اسمعوا يا جماعة، أنا عاوزها جلسة مواجهة، وأنتم تكونوا موجودين.

في الساعة الثامنة وأربعين دقيقة مساء، وصل المشير على متن سيّارة مصفّحة، وما كاد يجلس حتّى واجهه عبد الناصر بالتّهم الواحدة تلو الأخرى. استعرض عليه ما ارتكب من أخطاء جسيمة، مبرزاً مظاهر عجزه وسوء تقديره. وختم بعرض المنشورات التي كانت تروج في القاهرة، والتي يعرف الجميع أنّ عبد الحكيم هو الذي وراءها، وذكر له عدد الضباط المقيمين في بيته وأنواع الأسلحة التي يخزّنها. أنكر عامر كلّ شيء جملة وتفصيلاً. لم يكن يعلم في تلك الأثناء أنّ مصيره قد تحدّد.

اقتحمت فرقة من الجيش بقيادة محمود فوزي، قائد القوات المسلحة شخصياً، فيلّته بالجيزة، وأعادت القوات التي كانت مرابطة فيه إلى مقرّاتها، وأخلت المكان من ترسانة الأسلحة المخزّنة، وطوّقت الفيلا بحرس جديد متأهّب لاستقبال المشير عند عودته.

في حوالي الثانية والنصف صباحاً، قرّر أن ينهي المواجهة مع رفيقه في السلاح سابقاً، فقام مدفوعاً بحدسه، وتوجّه إلى الباب، وما كاد يخرج حتّى لاحظ أنّ سيارته المصفحة قد اختفت، وعوّضتها سيارة مدنية يحيط بها بعض الحرس، فأدرك أنّه مقبوض عليه، وعاد أدراجه إلى الداخل.

أحسّ عبد الناصر بالإعياء، فانسحب إلى مكتبه، ولحق به زكريا والشافعي، فوجد عامر نفسه وجها لوجه مع السادات. تحدّث الرجلان إلى الفجر، بحيث بذل السادات ما بوسعه ليواسي المشير. وحوالي الساعة الرابعة صباحاً، قام عامر وتوجّه إلى دورة المياه، ثمّ عاد بعد دقائق ليخبره بأنّه تناول كبسولة سيانيد. كان ذلك بمثابة إنذار كاذب.

بلغت الساعة السادسة والمشير ما يزال حيًّا. ظهر محيي الدين وأخبره بأنّه موقوف. ألقى عليه جنود القبض، ونقلوه إلى فيلّته التي أخليت من الأسلحة.

بعد ذلك بأيّام، نقل إلى فيلا معزولة تحيط بها الأسلاك الشائكة، تقع في مكان ما قرب قناة المريوطية.

وفي يوم الرابع عشر من سبتمبر/أيلول، على الساعة الثامنة مساء، أُعلن خبر انتحاره. فقد أصيب، حسب تصريحات الدكتور باطاطا، الطبيب الذي كان يصاحبه بالمعتقل، بما يشبه أزمة فسقط على الأرض. وجاء في ملاحظات الطبيب الشرعي أنّه «وجد عند مفصل فخذه الشمال مع جسمه بلاستر وتحته حبتان».

كانت الأصوات تتهامس بأنّه حصل على السمّ بمساعدة رئيس المخابرات، اللواء نصر. لم يكن يخفى على أحد أنّ الأمر يتعلّق بانتحار قسري.

دفن المشير روبنسن بمسقط رأسه، قرية أسطال، من دون مراسم ومن دون حضور أيّ ممثّل عن الحكومة أو الجيش. لم يحضر دفنه أحد.

قال عبد الناصر للسادات:

- تصور يا أنور، عبد الحكيم وأنا وأنت - احنا الثلاثة أصدقاء - لكن تصوّر يا أنور أن عبد الحكيم يموت وأنا واثق أنّ ما حادش حيمشي في جنازتو هناك، واحنا كمان موش قادرين نمشي في جنازتو...

مع ذلك، فقد كانت تلك مشيئة البكباشي، وأوامره التي نفذت. لعلّه خشي من أن تنتهز عائلة المشير فرصة الجنازة لتعبّر عن غضبها منه...

(٢٩)

شهر سبتمبر/أيلول من سنة ١٩٦٧

عرضت القضية الإسرائيلية المصريّة على الأمم المتّحدة، فاقترحت روسيا في البداية قراراً يقضي «بانسحاب إسرائيل من كلّ الأراضي المحتلّة»، لكنّ الولايات المتّحدة اعترضت على هذه الصياغة. وتواصلت المحادثات ليُصدر أعضاء المجلس يوم الثاني والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني من سنة ١٩٦٧ القرار رقم ٢٤٢. قضى هذا القرار بسحب إسرائيل لقوّاتها من الأراضي المحتلّة، وإنهاء حالة الحرب بين إسرائيل والعرب، والاعتراف بسيادة ووحدة أراضي كلّ دولة في المنطقة، وضمان حريّة الملاحة والممرّات المائية الدولية في المنطقة. كما دعا إلى تسوية قضية اللاجئين وخلق منطقة منزوعة السلاح. قبلت مصر ولبنان والأردن القرار، لكن سوريا رفضته، كما رفضه الفلسطينيون الذين اعترضوا على أن يتحدّد مصيرهم بعبارة «قضيّة اللاجئين» الغامضة (ذلك أنّ لفظة الفلسطينيين لم ترد في القرار). أما إسرائيل، فقرّرت أن تغلب تأويلا محدّدا للنص. إذ اعتمدت حكومة غولدا مايير على النسخة الإنجليزية للقرار ٢٤٢، وقالت إنّ القرار يطالبها بـ« انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراضٍ احتلتها في الصراع الأخير» (from terretories occupied in the recent conflict) وليس من كلّ الأراضي المحتلّة.

حلّت سنة ١٩٦٨، ومصر فريسة لشتّى التمزّقات. ذلك أنّ الطلبة

والعمّال خرجوا في مظاهرات مرّتين، في فبراير/شباط ونوفمبر/تشرين الثاني. لم يتقبّل الشعب تلك العقوبات الخفيفة التي أصدرتها المحكمة العسكرية (بضع سنوات من السجن) على لواءات سلاح الجو المتّهمين بالإهمال والعجز.

وقد وزّعت في شهر مارس/آذار منشورات تطالب بـ«برلمان حرّ» وتدين «العقوبات غير الكافية على الأخطاء المرتكبة». وهو ما دفع عبد الناصر إلى الرضوخ، فجرى تشديد العقوبات تشديداً كبيراً.

في غضون شهر نوفمبر/تشرين الثاني، اندلعت من جديد أعمال شغب في مدينة المنصورة الواقعة بالدلتا، التي كانت تعدّ معقل حزب الوفد. انضمّ الفلاحون إلى طلاب المدارس، وسرعان ما انتقلت العدوى إلى الإسكندرية. وتوجّه الحشد نحو نادي المحافظة، واحتجزوا محافظ المدينة. ولم تلبث الحركة أن انتقلت إلى القاهرة، حيث ردّد المتظاهرون شعارات تنادي بعودة الحريات، وتسخر من الإصلاحات التي يزعم النظام أنّه قام بها.

بذل الريّس ما بوسعه لتدبير الأزمة، لكن كان عليه حينئذ أن يحارب على جبهة أخرى، ضدّ عدو أقسى من الشعب المصري: إنّه المرض. فقد صار يشعر في خريف ١٩٦٨ بآلام حادّة في رجله اليمنى، ذلك أنّ مرض السكري واصل نخر جسده، وأصابه بتصلّب الشرايين مهدّداً بذلك أطرافه السفلى.

سافر إلى جورجيا امتثالاً لنصائح أطبائه ليقضي فترة علاج دامت ثلاثة أسابيع. ولمّا عاد سمح لنفسه ببضعة أيّام نقاهة في بيته بالإسكندرية. ولحق به مستشاره محمد حسنين هيكل. أورد هيكل في إحدى افتتاحياته بجريدة الأهرام أنّهما كانا جالسين على الشاطئ حين نظر إليه عبد الناصر وقال له إنّه يفكر في أمر يريد أن يناقشه

معه. استشاره في أمر استقالته إذا لم تخفّ آلامه. حاول هيكل أن يثنيه عن الاستقالة، وأوصاه بتنظيم عمله، لكنّ عبد الناصر أشار إلى أنّ حالة التعب التي تعتريه لا تسمح له بالقيام بمهامه على أحسن وجه، وهو ما لا ليس عدلاً في حقّ الشعب المصري. ثمّ أسرّ له بأنّ الشيء الوحيد الذي يصرفه عن الاستقالة هو خشيته من أن يؤوّل الناس في العالم العربي الأمر بأنّه يأس من النصر.

في الشهور الأخيرة من سنة ١٩٦٨، تعاون أمران على إنهاك عبد الناصر: هناك من جانب غارات إسرائيل على الأراضي المصريّة، ومن جانب آخر الحركات الشعبية التي تنعته بالدكتاتور المتخاذل. هكذا سيعلن في شهر مارس/آذار من سنة ١٩٦٩، وفي سبيل تلميع صورته، أنّ وقف إطلاق النار الذي يعود إلى سنة ١٩٦٧ لم يعد له معنى، وبدأ ما سماه بـ«حرب الاستنزاف»، مرتكبا بذلك خطأ آخر. فاستئناف الصراع سيكلّف مصر تحمّل غارات جوية إسرائيلية، وهي غارات كانت تسقط حوالي أربعين قتيلاً كل يوم. بل إن قصفاً جوياً لمدينة أبو زعبل في ضواحي القاهرة، أسقط بمفرده ما يفوق ثمانين قتيلاً، جميعهم مدنيّون.

كلّ ذلك أنهك عبد الناصر، سواء أعلى المستوى الجسدي أم المعنوي. وهو ما سيتسبب في إصابته يوم الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بأزمة قلبية.

لم يعلم أحد بالخبر باستثناء الأشخاص الذين كان اطّلاعهم عليه ضرورياً. واكتفى الناطق باسمه أن أعلن بأنّه أصيب بنوبة أنفلونزا، وأنّه سيتغيّب عن مكتبه لستّة أسابيع. حاولوا أيضاً أن يخفوا الحقيقة على زوجته تحيّة، لكن ليس لفترة طويلة. فهمت كلّ شيء لمّا رأتهم يجهزون المنزل بمصعد.

جيء بأطباء أجانب من الخارج ليعتنوا بالريّس. ذلك أن الدكتور شازوف، وزير الصحة الروسي، وطبيب القلب البارز، بعث إلى القاهرة بوفد من الأطباء المتخصصين ذوي الخبرة، وجاء تشخيصهم موافقاً لتشخيص طبيب عبد الناصر الشخصي الدكتور حبيب الصاوي، وخلصوا إلى أنّ الداء الذي يعاني منه ليس له دواء إلا الراحة الكاملة.

الراحة؟ لا مجال للراحة؟ كيف له أن يرتاح؟

في العشرين من ديسمبر/كانون الأوّل، قبل أن يستقلّ الطائرة إلى المغرب للمشاركة في مؤتمر القادة العرب، استدعى أنور السادات، وعيّنه نائب رئيس الجمهورية، كما لو أنّه أدرك فجأة هشاشة وضعه الصحي.

وفي الأيّام الأولى من سنة ١٩٧٠، تحوّلت غارات موشي ديان الجويّة إلى قصف. كانت حكومة غولدا مايير (التي عوضت ليفي إسكول المتوفى سنة ١٩٦٩) تحاول أن تدمّر عبد الناصر تماماً، ولم يكن عبد الناصر يجهل ذلك. كان يشعر بأنّ الإرهاق بدأ يستولي على شعبه. كان الدمار المتراكم، والخسائر التي لا يستطيع وقفها، تقضّ مضجعه حسبما نقل المحيطون به.

وفي الثاني والعشرين من يناير/كانون الثاني، إثر غارة إسرائيلية على جزيرة شدوان، سافر إلى موسكو في سريّة تامة حيث قضى أسبوعين بغرض الخضوع لفحوصات طبية، ولاسيما للإلحاح على السوفييت لكي يزودوه بصواريخ سام ٣، التي تشكل ذرعاً لا غنى عنه لمواجهة القصف الإسرائيلي. «وإلا فإنه سيتخلّى عن الفلسطينيين وعن كلّ الاتفاقات التفضيلية التي تربطه بالاتحاد السوفييتي».

وبمجرّد ما توصّلت مصر بالدفعة الأولى من الصواريخ، بدأ

السباق بين المصريين والإسرائيليين. كان رهان الإسرائيليين هو منع خصومهم من نصب بطاريات الصواريخ بالقرب من قناة السويس. لكنّ المصريين تمكّنوا من نصب بطاريات سام ببسالة، وإن كلّفهم ذلك بضعة آلاف من القتلى. منذ تلك اللحظة، شرعت الدفاعات المضادة للطائرات تكبّد الخصم خسائر جسيمة للمرّة الأولى.

وفي السادس عشر من فبراير/شباط ١٩٧٠، أعلن عبد الناصر لمبعوث جريدة لوموند الخاص، إيريك رولو، بأنّه لا يرى مانعاً من إقامة سلام مع إسرائيل إذا حصل الفلسطينيون على الحقّ في الاختيار بين العودة إلى أرضهم في إسرائيل أو الحصول على تعويض، تبعاً للقرار الذي صوّتت عليه الجمعية العامة للأمم المتّحدة سنة ١٩٤٨. ثمّ هناك احتلال الأراضي العربيّة. فالقرار الذي صوّت عليه مجلس الأمن يوم ٢٢ نونبر ١٩٦٧ يقترح حلولاً لهاتين المشكلتين، ويقدّم لإسرائيل ضمانات تتعلّق بحقّها في الوجود والسيادة، وكذا حقّها في الأمن والسلام. لكنّ هذه الأفكار لم تجد صدى لدى الإسرائيليين ولا حتّى لدى العرب.

وفي سبتمبر/أيلول من سنة ١٩٧٠، كانت بانتظاره محنة أخرى، محنة قاتلة. لم يكن مصدر هذه المحنة عدوّه الإسرائيلي، ولا المشاكل الداخلية ولا مرضه. أتاه الشرّ هذه الشر من الأردن.

كان من نتائج هزيمة يونيو/حزيران ١٩٦٧ أن تدفّقت على هذا البلد موجة من اللاجئين الجدد يقدرون بالآلاف. كان الفدائيون الفلسطينيون ينسحبون يوماً بعد يوم إلى الضفة الأخرى من نهر الأردن، جاعلين من عمان موئلاً للمقاومة، ومن الأردن قاعدتها الخلفية. وهي وضعية سرعان ما ضاق بها الملك حسين الذي كان يبحث عن سبيل إلى التسوية مع إسرائيل.

أمّا الجنود الأردنيون، فلم يعودوا يطيقون المسّ المتكرّر بسيادة بلدهم، وكذا الوجود الدائم للفلسطينيين على أرضهم. وقد قادت سلسلة من العمليات دبّرها ياسر عرفات الجميع إلى نقطة اللاعودة.

وفي الفاتح من سبتمبر/أيلول، نجا الملك حسين بأعجوبة من محاولة اغتيال. وفي السادس من نفس الشهر، حوّلت منظمة التحرير الفلسطينية اتّجاه أربع طائرات إلى عمّان. وفي يوم السادس عشر، فرض الملك حسين، بتشجيع من إسرائيل والولايات المتّحدة، قانون الأحكام العرفية، وابتداء من اليوم الموالي، أطلق رجاله من البدو ضدّ الأربعين ألف فدائي الذين يقودهم ياسر عرفات. وبذلك اندلعت الحرب.

وسرعان ما استدعي عبد الناصر للعب دور الوساطة، فقبل الدعوة. حاول جاهداً، بما فضل لديه من طاقة، أن يعيد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وملك الأردن إلى رشدهما.

- عليكما أن تتعايشا، فما من أحد منكما يستطيع التخلّص من الطرف الآخر، وهذه حقيقة من حقائق الحياة، عليكما معاً أن تسلّما بها.

وقال للملك حسين:

- تقول إنّك تستطيع أن تتخلّص منهم؟ حسناً. إذا كنت تقول إنّك قادر، فربّما كنت قادراً بالفعل. ولكنّ الثمن سيكون باهظاً للغاية. فكيف سيكون في وسعك أن تحكم بلداً بعد حرب أهلية ستكلّفك ما بين عشرين وثلاثين ألف قتيل. إنّك في هذه الحالة ستحكم مملكة من الأشباح الهائمة.

وقال لعرفات:

- لا تحسب أنّ في وسعك مواجهة جيش حديث. فإذا ما قرّر

تصفيتكم، فإن ذلك في قدرته. لذا لا تبالغوا في تقدير قوّتكم، ويجب أن تتعايشوا.

وانتهى إلى إقناع الطرفين بأن يلتقيا في القاهرة تحت إشرافه وإشراف القادة العرب الآخرين. واتّفقوا على أن تكون القمّة في الثالث والعشرين من سبتمبر/أيلول.

في تلك الأثناء كانت دبابات الفرقة المدرّعة الأردنية الأولى، بقيادة الشريف زايد ابن شاكر، ابن عمّ الملك، تقصف بلا هوادة مخيّمات اللاجئين، مُسقطة آلاف القتلى، وأكثر من ١٠٠٠٠ جريح. أُحرق العديد من الفلسطينيين أحياء بسبب استعمال قنابل النابالم. وقد ظلّت هذه المأساة محفورة في الذاكرة الفلسطينية تحت اسم «أيلول الأسود».

في الثالث والعشرين من سبتمبر/أيلول ١٩٧٠، وصل عرفات، الذي كان الملك حسين يطلب رأسه، إلى القاهرة، متخفّياً في «دشداشة» كويتية وكوفيّة بيضاء.

هناك وقع مشهد شبيه بما يقع في مسرحيات الفودفيل. لم يكن الملك حسين قد وصل، وأصرّ عبد الناصر على انتظار وصوله قبل افتتاح المؤتمر.

انفجر القذافي قائلاً:

- ما الفائدة من إحضاره؟ إنّه معتوه، إنّه مجنون.

واعترض الملك فيصل على الفور قائلاً:

- كيف تقول ذلك عن ملك عربي؟

- ولكن أين والده؟ أليس محتجزاً في مصحّة عقلية في اسطنبول؟ إنّه مجنون... قطعاً مجنون... إنّ الجنون وراثي في تلك العائلة... إنّهم جميعاً مجانين.

يلمّح الرئيس الليبي هنا إلى المرض العقلي الذي أصاب والد حسين الملك طلال، والذي أجبره على التخلّي عن الحكم لابنه سنة ١٩٥٢.

وناشد الملك فيصل عبد الناصر أن يتدخل لدى القذافي:

- كيف نقبل أن يصف أحد زملائنا ملكاً عربياً سيشترك معنا في مناقشاتنا غدا بالجنون؟

حاول عبد الناصر أن يهوّن من كلام القذافي، لكنه مضى يقول:

- والله مجنون، وينبغي علينا أن نستدعي غداً بعض الأطباء لإرساله إلى مستشفى الأمراض العقلية حتّى نتبيّن ما إذا كان مجنوناً أم لا.

وتدخّل عبد الناصر ضاحكاً:

- يبدو لي أنّنا جميعاً مجانين، وأقترح أن نستدعي بعض الأطباء للكشف علينا جميعاً ليقرّروا من منّا المجنون ومن الراشد.

عندئذ قال الملك فيصل:

- طيّب... لا بأس يا حضرة الأخ عبد الناصر. ولكنّني أريد أن أكون أوّل من يكشف عليه الأطباء، فربّما وجدوني مجنوناً، وساعتها أكون قد تجنّبت عذاب الاشتراك في محادثات كهذه!

وفي الخامس والعشرين من سبتمبر أيلول، قرّر الملك حسين أخيراً الالتحاق بالمؤتمرين. اجتاز القاعة واجما، محفوفاً بضابطين، وكانوا ثلاثتهم مسلحين. كما كان عرفات والقذافي مسلّحين أيضا.

نظر إليه ياسر عرفات نظرة شزراء ثمّ أشار إليه قائلاً:

- هل ترون هذا المجرم، يقتلنا ثمّ يأتي بعد ذلك إلى هنا!

شعر الحاضرون بأنّه متوثّب للانقضاض على الملك، فأحاطوا به وحاولوا تهدئته.

استغلّ الملك فيصل لحظة صمت فوقف وتطلّع لمن حوله، وقال:

- أعوذ بالله!... إنّنا في ترسانة سلاح، وفي مهبّ كلّ هذه المشاعر الملتهبة. أرفض الجلوس أمام كلّ من يحمل مسدّساً...

لكن لم يأبه أحد بكلامه، إذ احتفظ أصحاب المسدّسات بأسلحتهم.

وافتتح عبد الناصر، الذي أبدى صبراً لا ينفد، أشغال المؤتمر.

وفي يوم السابع والعشرين، وبعد ملاسنات حادّة بين المؤتمرين، نجح أخيراً في إصلاح ذات البين بين الإخوة الأعداء، ووقّعوا اتّفاقاً فيما بينهم. وقد خلّدت هذا الحدث صورة يظهر فيها قاتل عشرات آلاف من الفلسطينيين وهو يصافح ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، الذي كان يحاول تصفيته. إنّها سخرية السياسة ومعجزاتها.

خلفهما وقف عبد الناصر مبتسماً وقد وضع يديه على كتف كلّ منهما. كان منهكا، ولكن كان عليه أن ينجز مهمّة أخيرة: مرافقة كلّ واحد من ضيوفه إلى المطار. وكان آخر من غادر هو أمير الكويت.

أومأ له عبد الناصر بيده مودّعاً، وعوض أن يلتحق بالسيارة التي تنتظره على بعد بضعة أمتار، ظلّ متسمّراً في مكانه. صارت الآلام التي رافقته طيلة اليوم لا تطاق. لم تكن تخترق ساقيه فحسب، بل تسحق كيانه بحيث لم يعد يقوى على التقدّم خطوة واحدة.

قال لسكرتيره وهو يلهث:

- قرّب السيارة... واستدع الدكتور الصاوي.

وما هي إلا عشرون دقيقة حتّى كان في بيته. فزعت زوجته تحيّة لمّا رأت ما يظهر على وجهه من إنهاك وتعب. قال لها:

- سأذهب لغرفتي لأستريح. إذا جاء الطبيب، آتيني به.

لم يتأخّر الطبيب في الوصول. فحص الرئيس، فاكتشف أنّه مصاب بنوبة قلبية ثانية. استدعى على الفور الدكتور منصور فايز والدكتور زكي الرملي، الأخصائيين الذين كانا يعالجانه منذ النوبة الأولى، فأكّدا تشخيص الدكتور الصاوي. ونصحه الدكتور فايز بأن يخلد للراحة لبضعة أسابيع، وإلا...

- مستحيل! أو على الأقلّ بعد زيارة أولادنا المرابطين في الجبهة.

وتمّ نصب معدّات طبية، وقبيل الساعة الخامسة بدأ نبضه ينتظم وخفقات قلبه تصبح طبيعية تقريباً.

مدّ يده فجأة ليشغّل جهاز الراديو الموجود على طاولة السرير، وأومأ للأطباء أن يصمتوا. إنه موعد الأخبار. وتعالى صوت المذيع المألوف، فأنصت إلى النشرة حتّى نهايتها، ثمّ أطفأ الجهاز وهو يقول: «لم أسمع ما كنت آمل سماعه».

حثّه الدكتور الصاوي على ألا يتحرّك، ويخلد إلى الهدوء. فأجابه عبد الناصر:

- لا يا صاوي... الحمد لله... دلوقت أنا استريحت...

تلك كانت كلماته الأخيرة، ولم يعرف أحد ما كان يأمل سماعه ذلك اليوم.

انسدل جفناه على عينيه، وهوى ساعده الذي كان يضعه على صدره واستقرّ بجواره. صعق الأطباء، وحاولوا إسعافه، وأدرك الذين كانوا خارج الغرفة خطورة الموقف، فتدفّقوا إليها يشهدون بأعين تنكر كليًّا ما ترى... الأطباء يناضلون لإنقاذ حياة قائدهم.

لم يتحرّك ولم يهتزّ إلا عندما أرسل جهاز الصدمة الكهربائية سلسلة من الصدمات العنيفة. ولم يستسلم الأطباء رغم إدراكهم أن المعركة خاسرة. لن يستطيع العلم إعادة الحياة إلى قلب عبد الناصر. والحقيقة أنّ عبد الناصر كان ميّتاً منذ يوم الخامس من يونيو/حزيران ١٩٦٧.

بمجرّد ما وصل السادات، كشف عن جثّة الرئيس، وألصق خدّه بخدّه وهو لا يكاد يصدّق أنّه مات، وقال:

- مش ممكن... الكلام اللي بتقولوه ده مش ممكن يبقى صحيح...

كانت الدموع تجري على الخدود، وراح أحدهم يقرأ بعض الآيات من القرآن. كان محمد حسنين هيكل حاضراً أيضاً، وكان يردّد بصوت خافت:

- يا ربّ... يا ربّ غير ممكن... غير معقول!

غطّى الدكتور الصاوي وجه القائد بالملاءة، وأبلغوا نَعْيَهُ إلى عقيلته، فدخلت الحجرة، وأزاحت الملاءة وقبّلته بينما كان الحاضرون يغادرونها تاركين إيّاها وحيدة معه.

كانت الغرفة كبيرة وباردة، مغلقة النوافذ، ليس فيها إلا زوجة حزينة عاكفة على زوجها الذي رحل. وخارج تلك الغرفة، بقيت مصر يتيمة...

خاتمة

٢٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٦٥

كانت سفينة س. س إسبيريا تمخر عباب البحر قاصدة مرفأ بيروت. توقّف قلبي عن الخفقان في اللحظة التي هزّت فيها نبضات الآلات أحشاء السفينة. وقد نجحنا في اجتياز نقطة المراقبة الجمركية من دون أن نخضع للتفتيش بعد أن دفعنا بقشيشاً. لم يكن مسموحاً لمن يغادر مصر من المسافرين أن يحملوا معهم أكثر من عشر جنيهات مصرية. لم يكن مسموحاً بإخراج سوى الملابس والأغراض الشخصية. أمّا المجوهرات، فلا يسمح بها كذلك، حتّى ولو كانت ذات قيمة عاطفية. هذه الشروط القاسية لم تكن تختلف عمّا فرضه الألمان على من كان يرغب في مغادرة ألمانيا من اليهود سنة ١٩٣٩.

كانت أمّي جالسة على ظهر السفينة وقد وضعت مرفقيها على درابزين السفينة وهي تنظر إلى الأفق. أكانت تبكي؟ لعلّها كانت تبكي في صمت، صمت لم يكن يكسّره غير صخب الأمواج وهي ترتطم بهيكل السفينة. إلى أين أنا ذاهب؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ لربّما صرنا في نظر عبد الناصر ورفاقه همجاً يراقبهم حراس الليل في صحراء وهميّة. كان يكفي أن يصل رجل واحد إلى السلطة لينقلب كلّ شيء رأساً على عقب، مثلما كان يكفي أن تصل امرأة إلى السلطة في إسبانيا في القرن الخامس عشر. لا فرق بين القاهرة

وقرطبة والإسكندرية وغرناطة. كان الكاثوليك واليهود والمسلمون في إسبانيا هم من يمثلون أولئك الهمج. أما في نظر العقيد ـ الرئيس فكان الهمج هم اليهود ومسيحيو الشام.

كلّ شيء تغيّر، ولا شيء بقي كالسابق. صرنا من «المرحّلين»، كما يسميهم إدوارد سعيد، أولئك العرب المسيحيون والفلسطينيون الذين يحملون جوازات سفر أمريكية، عليها اسم بريطاني مردوف بلقب عربي. هو أيضاً كان من الهمج. كم عدد أولئك الذين تعني العودة لهم العدم منذ غابر الأزمان؟ هل مصر اليوم أغنى؟ هل خرج من الرؤوس التي قطعت القمح والذهب؟

اطمئن يا جمال، لن تكون ثمّة عودة. إذن...

بعض مراجع الترجمة

- القرآن الكريم.

الكتب والدراسات:

- أنور السادات، البحث عن الذات: قصة حياتي، مكتبة المصري الحديث، ط.٣ ١٩٧٩.

- أنور السادات، صفحات مجهولة، دار التحرير للطبع والنشر، المطبعة العالمية.

- ثروت عكاشة: مذكراتي في الفن والسياسة، ثروت عكاشة، ج١، دار الشروق، ط.٢، ١٩٩٠.

- جمال عبد الناصر: فلسفة الثورة، نسخة إلكترونية.

- جمال عبد الناصر: يوميات الرئيس جمال عبد الناصر عن حرب فلسطين ١٩٤٨، (مقتطفات)، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١٩، العدد ٧٤/ ٧٥.

- ذكرياتي عن الثورة، سليمان حافظ، دار الشروق، ط. ١، ٢٠١٠،

- سامي شرف، سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر: شهادة سامي شرف، (نسخة إلكترونية)، شبكة ومنتديات نجوم القمر، المكتبة الوثائقية.

- عبد الرحمن الرافعي: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، دار المعارف، ط.٣، ١٩٨٧.
- عبد الله إمام، حكايات عن عبد الناصر، مطبوعات الشعب، ١٩٨٧.
- محمد حسنين هيكل قصة السويس: آخر المعارك في عصر العمالقة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط.٢، ١٩٨٢.
- محمد حسنين هيكل: عبد الناصر والعالم، نسخة إلكترونية.
- محمد حسنين هيكل، فاروق كما عرفته، دار الشروق، ط.١، ٢٠٠٠.
- محمد حسين هيكل: قصة السويس: آخر المعارك في عصر العمالقة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط٢، ١٩٨٢.
- محمد نجيب: كنت رئيساً لمصر، مذكرات محمد نجيب، المكتب المصري الحديث، ط ٢، ١٩٨٤.

المواقع الإلكترونية:

- الموقع الرسمي لجمال عبد الناصر:
http ://nasser.bibalex.org/home/main.aspx?lang=ar
- موقع محمد نجيب: http://naguib.bibalex.org/
- موقع الموسوعة العالمية للشعر: http://www.adab.com/
- المكتبة العربية لحقوق الإنسان htm العقيد والملك الصبي/ المكتبة العربية لحقوق الإنسان بجامعة منيسوتا
http://www1.umn.edu/humanrts/arabic/
- موقع الملك فاروق http://www.faroukmisr.net

هذا الكتاب

يبسط ثلاثة ضباط خريطة القيادة العامة في قطار حاشد بالجنود. هم في الثلاثين من العمر، يسمّى أحدهم عبد الحكيم عامر والثاني زكريا محيي الدين. أمّا ثالثهم فيدعى جمال، جمال عبد الناصر. وسيلقّب لاحقاً بالبكباشي، وهي رتبة عسكريّة تركيّة تعني «قائد الألف». هذا اللقب سيُطلق فيما بعد على رتبة عقيد في الجيش المصري عموماً.

الرجل فارع، يبلغ من الطول متراً وأربعة وثمانين سنتمتراً. كحيل العين، ذو ابتسامة تجمع بين السحر والشراسة. كلّ شيء فيه يشي بالقوة والعزم والإقدام.

ISBN 978-9933351281



